العرب في سوريا قبل الإسلام

تأليف

رنيه ديسو

ترجمه

عبد الحميد الدواخلي

راجعه

الدكتور محمد مصطفى زيادة



نشرته

لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٥٩



العرب في سوريا قبل الإسلام

تأليف

رنيه دسو

ترجمه

عبد الحميد الدواخلي

راجعه

الدكتور محمد مصطفى زيادة



نشرته

لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٥٩

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الفهرس



إهداء

إلى الأستاذ هنرى روجون :

السكرتير الدائم لأكاديمية الفنون الجميلة

والمدير الفخرى للفنون الجميلة ... دليل المودة الصادقة

ر . د



مقدمة

لقد تفضل أستاذى كليرمون جانو فطلب منى أن أحلّ محله فى كرسى « دراسة النقوش والآثار السامية » بالكوليج دى فرانس خلال ستة الشهور الأولى من العام الدراسى ١٩٠٥ — ١٩٠٦ ، لأنه كان مشغولا بأعمال عاجلة . فعالجت فى تلك المناسبة « حل رموز وتفسير النقوش الصفوية » ثم درست المعلومات الجديدة التى تمدنا بها هذه النقوش فى تاريخ تسرّب العناصر العربية إلى سوريا قبل الإسلام[1] .

وأنا حين أنشر هذه الدروس فإنما ألبى رغبة الأستاذ كليرمون جانو وأقوم بواجب الاعتراف بفضله علىّ ، وإن كنت لا أزال مقصراً . أما الشروح الفيلولوجية الخالصة ، وإن كان من اليسير الحصول عليها فى غير هذا الكتاب ، فقد اختصرتها هنا لتظهر النتائج التاريخية لهذه البحوث فى صورة واضحة . وقد دونت هنا بعض نصوص تعدّ على الأخص عينات من اللغة ومن الكتابة الصفوية . ليس فيها نص جديد ؛ ولكنى اخترت تلك النصوص التى تتيح قراءة جديدة أو توحى بملاحظات تكميلية

رنيه ديسو

(١) الكتاب السنوى للكوليج دى فرانس ، عام ١٩٠٦ ، ص ٨١ — ٨٣ .

العرب في سوريا قبل الإسلام

René Dussaud :

Les Arabes en Syrie Avant l'Islam.

الفصل الأول

بادية الشام

بادية الشام والهجرات العربية — مهاجرة العرب إلى الشام ورحيل السوريين منها — الأصل الصحراوى للغساسنة والصفويين[1] والتدمريين، حكام حمص والأيتوريين[2] والنبطيين والإسرائيليين .

فى الجنوب الشرقى من دمشق ، عند مدخل بادية الشام ، وحول ذلك الإقليم البركانى كله الذى يطلق عليه الصفا ، نجد نصوصاً كثيرة منقوشة على صخور البازلت . والسكان الذين نقشوا تلك النصوص فى القرون الأولى من زمننا هذا ، كانوا من أصل عربى : فلغتهم لهجة عربية وكتابتهم تمت إلى الكتابات التى توجد فى جنوب الجزيرة العربية . بفضل هذه النقوش ، عرفنا لغة من تلك اللغات التى كانت تتكلم فى بادية

---

(١) الصفويون : يجب على القارئ ألا يخلط بين الصفويين الذين يتحدث عنهم المؤلف وبين الصفويين الذين ينتمون إلى الدولة الصفوية التى تولت مقاليد الحكم فى إيران فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى ، وحكمت من ١٥٠٢ — ١٧٣٦ وهى الدولة التى كان ظهورها يعد حادثا ذا أهمية كبرى لا لإيران فحسب بل لجيرانها ولأوربا بوجه عام : ذلك أن توليها الحكم كان يعتبر بعثا للإمبراطورية الفارسية وللقومية الفارسية ، بعد أن اختفت من مسرح السياسة العالمية أكثر من ثمانية قرون ونصف قرن ، كما أنه يعد بدءاً لدخول إيران فى مجال السياسة العالمية .

وتنسب هذه الدولة إلى الشيخ صفى الدين ، الذى كان أحد رجال الدين من ذوى المكانة العظمى فى أردبيل ، وإن كان أول ملوكها هو الشاه إسماعيل السليل السادس للشيخ صفى الدين . وبلغت إيران فى عهده درجة لم تبلغها منذ أيام الساسانيين . واتخذت هذه الدولة مذهب الشيعة « الاثنى عشرى » مذهبا رسميا للدولة . وظل سائدا فيها حتى اليوم . وكان لها آثار عظيمة فى العقائد والآداب والفنون الإيرانية .

ولمعرفة تاريخ هذه الدولة بالتفصيل ، يرجع إلى كتاب « تاريخ الأدب الفارسى » تأليف إدوارد براون ، ج ٤ . (المعرب) .

(٢) إيتوريا : إقليم يقع فى آسيا الصغرى القديمة فى الشمال الغربى من فلسطين . (المعرب) .

الشام قبل الإسلام . ونستطيع أن ندرس ، فى مساحة معروفة المعالم وبواسطة وثائق محلية خالصة ، إقامة عرب رحّل فى سوريا لدرجة أنهم انتقلوا إلى الحياة المستقرة واختلطوا اختلاطاً كبيراً بالسكان المقيمين فى الشام . وهذه الدراسة ، وإن كانت مفيدة فى ذاتها ، إلا أنها تنطوى على فائدة تاريخية كبرى : إذ أن دخول البدو إلى الشام يعدّ ظاهرة دائمة وعادية . ولم يكن الصفويون أول المرتحلين إلى الأرض الموعودة ولا آخر القاصدين إليها ؛ ولكنهم وحدهم أولئك الذين أمسكنا بتلابيبهم قبل أن يمتزجوا بغيرهم امتزاجا تاماً ؛ أعنى أننا قد عرفناهم وهم لايزالون يملكون تماماً ناصية لغتهم ، ولهم كتاباتهم وآلهتهم وعاداتهم . وعلى هذا فهم الذين يقدمون لنا المادة الأساسية لهذه الدراسة التى تهدف إلى معرفة دخول العناصر العربية إلى الشام قبل الإسلام ؛ أما المجموعات البدوية الأخرى فهى تقدم لنا بصفة عرضية معلومات مقارنة أو تكميلية .

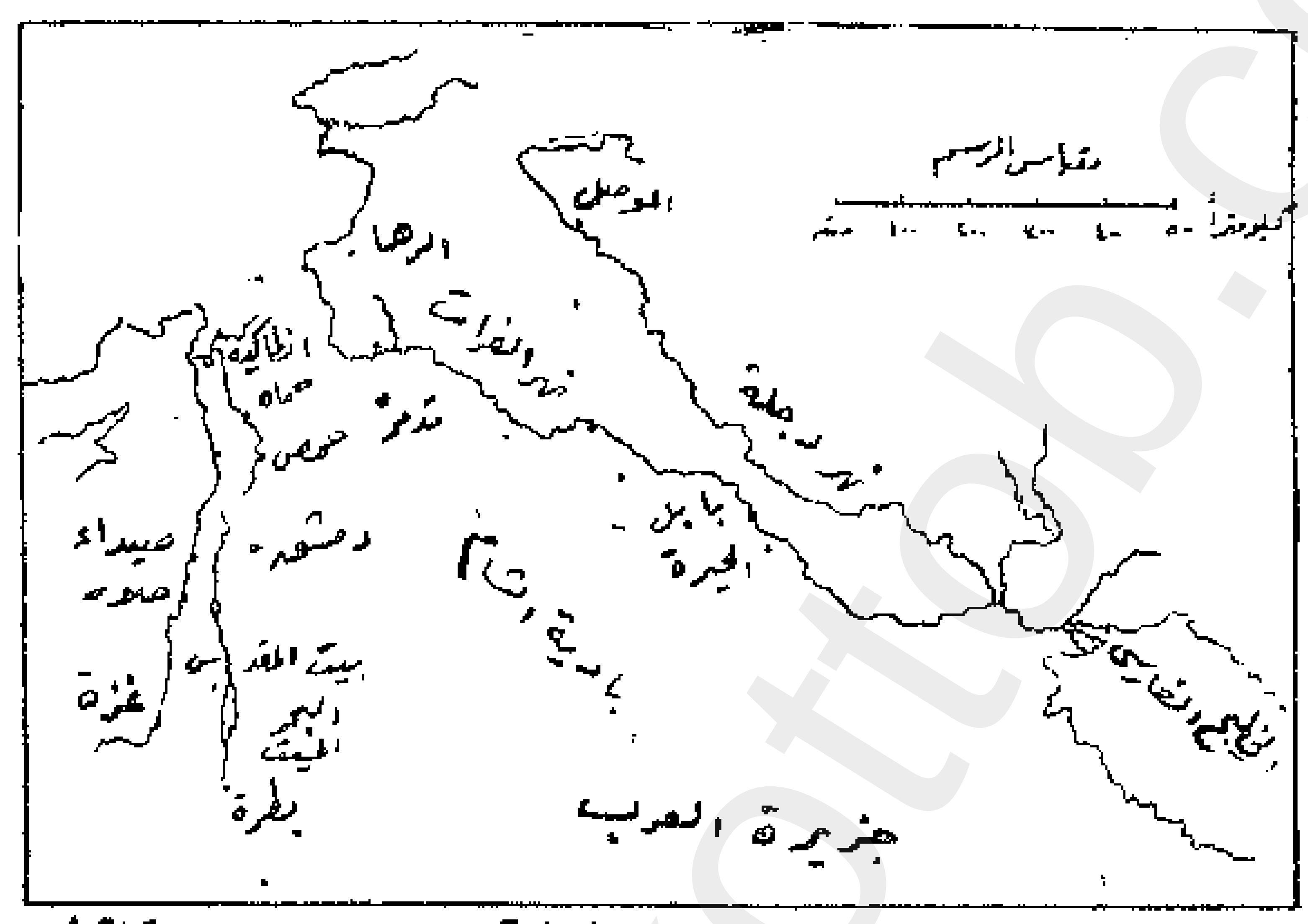
* * *

ومن الخطأ أن يعتقد الإنسان أن دخول العناصر العربية إلى الشام يرجع زمنه إلى الفتح الإسلامى : إن الوثبة التى مكنت المسلمين من تحطيم الخطوط البيزنطية فى موقعة اليرموك (٦٣٦) ومن غزو سوريا ، ثم من الزحف نحو الشرق بعد ذلك حتى وصلوا إلى وسط آسيا ونحو الغرب مارّين بشمال أفريقيا فوصلوا إلى أسبانيا ، هذه الوثبة قد دلت على القوة العربية فى أوجها ؛ ومع ذلك فإن تلك الوثبة لم تكن إلا بمثابة تعظيم شديد لاتجاه قد ترك آثاراً عديدة فى التاريخ .

وبعبارة أخرى ، إذا كان الفتح الإسلامى — الذى وقع فى القرن السابع الميلادى — يبدو كما لو كان حادثاً شاذا فى ساعته ، فهو فى الحقيقة يعد حركة طبيعية للسكان العرب الذين كانوا يتجهون دائما لا إلى غزو الأقاليم الحضرية فحسب بل إلى الإقامة فيها أيضا .

ويجب ألا يفهم من كلمة « عرب » سكان الجزيرة العربية فحسب ، ولكنها تتناول أيضا البدو الذين يجوبون وسط الجزيرة العربية وشمالها وكل بادية الشام . وعلى

هذا فلا يعد عربا أولئك السكان المتحضرون الذين يقطنون جنوب الجزيرة العربية . والملوك الحميريون الذين كانوا يحكمون هذه الأقاليم كان يطلق عليهم ملوك « سبأ وريدان وحضرموت واليمن وعربها » ، أى أنهم عرب رحّل ممن كانوا يدخلون هذا الإقليم أو ذاك .



الشكل الأول . المدن الواقعة على حدود بادية الشام

وبادية الشام ، التى تمتد نحو الشمال حتى نهر الفرات ، تعد بالضرورة جزءا من المجال العربى . فالبقعة الشاسعة ذات الأرض الكلسية التى يطلق عليها اسم « حمد » تصلح تماماً لتربية الجمال والخيل والأغنام . ومجاورة الأقاليم المتحضرة والمدن الهامة (انظر الخريطة الأولى) قد ساعدت على رواج عظيم للأغنام ومنتجاتها . فيمكننا أن نقول بأن الصحراء كانت تمد سوريا بالغذاء من اللحوم . أما الإبل فكانت تستأجر للقوافل وحتى للأعمال الزراعية . وفى مقابل هذا ، كان البدوى يطالب الحضرى بالأشياء المصنوعة وبالحبوب من قمح وشعير .

والرحلات العربية كانت تجرى على نظام فصول السنة : فالقبائل ذات المضارب الكبيرة كانت تقضى الشتاء فى جزيرة العرب وخاصة فى نجد . وفى الربيع ، كانت تتجه نحو الشمال باحثة عن المراعى ؛ فتصل بذلك إلى أطراف الحدود الحضرية . وحينما كانت الشمس تحرق العشب القصير الذى ينمو فى الوديان المعشبة وتجفف

معظم الآبار ، فى ذلك الوقت نفسه كان الحصاد ينتهى فى البقاع الحضرية . وكان البدو يغمرون الحقول بأغنامهم التى ترعى جذور سيقان الحنطة والشعير . وكانوا يغزون أيضاً المراعى الطبيعية مثل مراعى جولان[1].

وكان لكل قبيلة مضاربها الصيفية وسط الحضريين أو على مقربة منهم . فشيخ القبيلة كان يرتبط بعهد « الأخوة » بشيوخ قرية أو عدة قرى . فالأخوة إذن هى العرف الذى ينظم العلاقات بين البدو والحضر[2] . وحينما لا توجد وراء الحضرى حكومة تحميه ، فإن البدوى لم يكن يتطالب فحسب أن يكون مطلق الحرية فى استعمال الحقول بعد الحصاد ولا دخول المراعى الطبيعية ولا حق الارتواء من الآبار ومجارى المياه ، بل كان يفرض أيضا غرامة عينية على الحضرى . وفى مقابل ذلك ، كان يبذل حمايته للحضرى فيدفع عنه القبائل المجاورة حين تغير عليه . ومما لاريب فيه ، أن هذا العرف هو الذى قد أتاح لرؤساء البدو من أن يمكنوا سلطانهم فى البلاد المجاورة للصحراء مثل حمص والرها[3] .

وإذا كان الحضرى يعتمد على حكومة قويه فإن البدوى يحدّ فى هذه الحالة من غلوائه . وقد أدرك الرومان ذلك حق الإدراك ، فأقاموا مراكز محصنة بطول امتداد حافة الصحراء لا ليحولوا بين البدو ودخول الشام ولكن لينظموا هذه الارتحالات البدوية . وكذلك أقاموا عدداً كبيراً من الخزانات كانت تسمى البرك ، إما بواسطة حفر الأرض وإما ببناء القناطر ، فكانت أمطار الشتاء تملأ هذه

---

(١) جوْلان : قرية تقع فى بعض نواحى دمشق وقيل جبل فى حوران . قال ابن دريد : يقال للجبل حارث الجولان ؟ وقيل حارث قلة فيه . ورد ذكره فى أشعار للنابغة الذبيانى وحسان ابن ثابت والراعى ، ذكرها ياقوت فى معجم البلدان فى مادة « الجولان » . (المعرب)

(٢) انظر وصف هذا النظام خاصة فى كتاب : Travels « الأسفار » تأليف Burckhard ، ص ٣٠٠ وما يليها .

(٣) الرها : مدينة بالجزيرة ، تقع بين الموصل وحلب ، تسمى الآن « أورفا » . كانت ذات شهرة عظيمة فى الحضارة والمبانى الكبيرة ، وخاصة فى بناء الكنائس والأديرة ؟ وهى عند النصارى من المدن المقدسة . فتحها عياض بن غنم سنة ١٧ هجرية . ويذكر أنها بقيت أيام السلوقيين وكانت لها شهرة كبيرة فى الحروب الصليبية . يسميها اليونانيون « إدسا » وتسمى بالآرامية « أرهوئى » وبالأرمينية « أرهائى » ومنها الاسم العربى « الرها » ، والترك « أورفا » . (المعرب)

الخزانات ، وإذا حل الصيف ظلت المياه وفيرة ، وأتاحت الحياة للقطعان . وللإبقاء على هذه المراكز المقامة على الحدود — والتي سنعود إلى الكلام عن نظامها — كان الرومان يعتمدون اعتماداً كبيراً على الخدمات التي يقدمها لهم البدو . وقد نظمت سياستهم جميع الأمور ووضعتها في نصابها ؛ غير أن حالة السلم التي فرضوها قد أحدثت تطوراً خطيرا : فالحضريون ، وقد أمنوا على أنفسهم من الغارات ومن الغرامات الفادحة ، تقهقروا إلى ماوراء حدود الصحراء ، منتفعين بكل الأراضي الصالحة للزراعة . وكانت هناك عدة قرى — أصبحت اليوم أنقاضا — يقطنها سكان هم خليط من السوريين والعرب ، يتجرون كثيراً مع البدو ويزرعون أشجار الزيتون والكروم والحبوب ثم يقبلون بعد ذلك على صناعة الصوف . ومما لاريب فيه أن شئون التجارة هي التي جذبت تلك السيدة الغالية التي تدعى ستركوريا "Stercoria" من « روتو مجوس » — أي روان — إلى المثنى « امتان » (التي تقع على تخوم الصحراء) جاءت وراء زوجها ثم وافاها أجلها بالمثنى ؛ ولا تزال الكتابة التي نقشت على قبرها موجودة حتى الآن[1].

وفي بداية القرن الثالث عشر الميلادي نرى الجغرافي العربي ياقوت يثني على الثياب التي تصنع في مدينة « أعناك »[2] (هي المدينة القديمة إناكوس Ιναχος) وهي قرية في مدخل بادية الشام ، وذلك في حديثه عنها . ويذكر نفس المؤلف الخمور المشهورة التي توجد في بلدة « صرخد »[3]. وشرب الخمر كان قد انتشر بين بدو الصحراء كما يشهد بذلك الشعر العربي الجاهلي .

---

(١) ودنجتون : الكتابات الإغريقية واللاتينية في سوريا ، رقم ٢٠٣٦ . وقارن « مجلة الآثار » عام ١٩٠١ مجلد ٢ صفحة ٣٧٥ — ٣٧٦ .

(٢) مدينة بإقليم حوران في مقاطعة دمشق . كانت تشتهر بصنع السجاجيد الجميلة والثياب الحريرية التي تسمى باسمها . (المعرب)

(٣) قارن دسّو وف . مكار : « بعثة في الأقاليم الصحراوية في سوريا الوسطى » ص ٢٢ — ٢٣ . وصرخد مدينة من بلاد حوران التي كانت قاعدتها بصرى بالشام . يعرفها أهلها الآن باسم صلخد وينطقونها « صلخَد » ويذكر ياقوت أنها قلعة حصينة ، وولاية حسنة وأن بعض الخمور تنسب إليها . (المعرب)

ويذكر على بن أبى طالب أن قبيلة تغلب — تلك القبيلة المسيحية الفتية — لم « تأخذ من المسيحية إلا عادة شرب الخمر »[١] .

والواقع أن تطور الزراعة قد عقّد العلاقات بين البدو والحضر . ويمكننا أن ندرك ذلك فى أيامنا هذه بما يقع فى الجزائر وفى تونس حيث تسلمت فرنسا من روما ، بعد قرون عديدة ، مهمة نشر الحضارة . فدخول البدو بقطعانهم أراضى تغير تخصيصها ومالكها ، قد أثار صعوبات على جانب كبير من الخطورة . وقد نشر القائد « رين Rinn » ، وهو متخصص فى المسائل الإفريقية ، دراسة قيمة تتناول « أصل حقوق الاستعمال عند الصحراويين فى التل[٢] » . وقد وفى الأستاذان « أوجستان برنار » و « ن . لاكروا » هذه المسألة حقها فى دراسة قيمة عن مذهب البدو[٣] .

ويجب علينا أن نفرق بين الرحلات المنظمة ، والرحلات المباغتة . فهذا النوع الثانى من الرحلات يرجع إلى حالة الحرب التى تضطر القطعان إلى الفرار ، وتدفع إلى تحطيم مواضع المياه . وحين تصبح القبائل لاتشغل نفس الأراضى التى كانت تقيم فيها ، فإنها تعزف عن أعمال الإصلاح وتزهد فى الزراعة ؛ وسرعان مايدب الفساد فى الأرض . لأنه لاينبغى لنا أن نزعم أن البدو كانوا يجهلون الزراعة أو أنها لم تكن ذات قيمة لديهم . فالعرب البدو سكان بادية الشام ، حينما يجدون أن فى استطاعتهم أن يزرعوا ، كانوا يعرفون تماماً كيف يختارون بقعاً مثل الرحبة « انظر الخريطة الثانية » ، أو شواطئ المستنقعات الفسيحة التى فى أسفل الجزيرة ليبذروا فيها الحنطة والشعير . وعلى هذا فقد كانوا لايستغلون الأرض استغلالا حسنا فحسب ، ولكنهم كانوا يصلحون أراضى تنبت فيها أعشاب كثيفة فى السنة التالية لزراعتهم لها .

---

(١) Lammens : Un Poète Royal A la Cour Des Omiades p. 40
لامنس : « شاعر ملكى فى البلاط الأموى » . ص ٤٠ .

(٢) العنـوان الفرنسى هو : L'origine des Droits d'usage des Sahariens dans le Tell وقد نشر فى « مجلة الجمعية الجغرافية للجزائر وشمال أفريقيا » عام ١٩٠٢ ص ٢٥٩ وما يليها .

(٣) عنوان هذه الدراسة هو : « Etude sur le Nomadisme » ونشر فى مجلة « Annales de Géographie » عام ١٩٠٦ ، ص ١٥٢ — ١٦٥ .

وأول أثر من آثار السلم فى الصحراء أنه يحد من التوسع فى الهجرات ويثبت القبائل فى بقاع معينة . وأثر آخر ، أقل من هذا قربا ولكنه محقق بدوره ، هو جذب البدوى رويدا رويدا إلى مهن كانت تعد غريبة عليه .

وأما حالة الحرب فكانت تصرفه عن هذا كله . وكانت الرابطة الأدبية والمادية للقبيلة تتوطد بقوة فى سلطة رئيسها ، وفى العبادة المشتركة وتجمع المصالح من ناحية الدفاع والهجوم إلى درجة أن فكرة القبيلة كانت تطغى على فكرة الأسرة .

وكانت الرابطة القبلية تضمحل إذا استقر السلام : فكان الأفراد يتسللون واحداً إثر واحد من المجموع القبلى ، ليلتحقوا بخدمة الجيش ، أو ليؤجروا للعمل فى الحقول أو فى نقل البضائع . وذلك هو الوقت الذى تتيح فيه ظروف الحياة لهم أن يقيموا فى أراض حضرية وتدفعهم إلى الحياة الزراعية . فنراهم فى تلك الحالة يشيدون القرى ، ولا يبقى لتربية الماشية إلا العدد القليل الضرورى من الرجال . على أن هؤلاء بدورهم تطوروا لأنهم قد تخصصوا ، ولم يعودوا إلا مجرد رعاة ؛ وقد انتهت الارتحالات بالنسبة لأولئك ولهؤلاء : فانتقال القطعان قد تحول إلى إرسالها صيفاً للجبال العالية[1] .

وإنه لأمر يثير دهشة المسافر حين يعبر الأطراف الشرقية للشام ، وحين يتجول فى مقاطعات مهجورة اليوم أن يلقى قرى مدمرة ، ترجع إلى العهد الرومانى . وإننا لنتساءل من أين أتى كل هؤلاء السكان بغتة ، مادام الرومان لم يكونوا يسكنون جاليات فى ذلك الإقليم ؟ تدل أسماء الأعلام التى نلقاها فى النقوش على أن السكان كان لهم طابع البادية . كما أنها تتيح لنا أن نقول بأن السفح الشرقى لجبل حوران قد استعمره الصفويون ، بينما احتل الأنباط إقليم حوران بما فيه بصرى[2] ، وغيرها من المدن .

---

(١) بصدد هذا التطور الذى يتم فى أيامنا هذه فى الجزائر انظر أ . برنار ، ن . لاكروا فى الدراسة السابقة ص ١٦٤ .

(٢) بصرى : مدينة تقع فى الجنوب الشرقى من دمشق ، فى بسيط من الأرض ، كانت لها مكانة كبيرة فى زمن اليونان والرومان . فتحها الإسكندر المقدونى ، وضارعت تدمر فى عمرانها ، ثم فتحها خالد بن الوليد سنة ١٣ هجرية ، ولا تزال آثار قصورها ومعابدها وهيا كلها موجودة حتى يومنا هذا . وتعرف بصرى اليوم باسم « أسكى شام » . (المعرب)

ونفوذ العنصر النبطى يتأيد فى بلدة السويداء حيث أن هذه البلدة أطلق عليها اسم « ديونيسياس "Dionysias" » تمجيداً للإله النبطى « دوزاريس "Dusares" « ذو الشرك » الذى هو فى الواقع « ديونيسوس Dionysos » وفى أذرعات[١] وبصرى كانت تقام حفلات كبيرة لدوزاريس يطلقون عليها : Actia Dusaria . ويقول « مومسن Mommsen » : « إن المقاطعة الرومانية فى جزيرة العرب التى أنشأها تراجان على أنقاض المملكة النبطية قد سميت تسمية خاطئة » . ويبين المؤرخ الشهير هذا الرأى قائلا : «كان تراجان رجلا ذا أعمال مجيدة ، ولكن أقواله كانت تفوق أعماله»[٢] ، وفى هذه الحالة الخاصة كان لتلك التسمية ما يبررها ، ما دام العرب كانوا يسكنون تلك المقاطعة . وقد عجل الرومان بإقامة حصون صغيرة تعد بمثابة سياج للأطراف الحضرية ، كما أقاموها أيضاً فى الطرق الرئيسية التى تمتد داخل الصحراء . وقد حسن الرى ببناء القنوات المرفوعة وجملوا المدن ، وخططوا الطرق الواسعة ، وأقاموا الآثار العظيمة . وعلى الجملة فقد عنوا عناية خاصة بتحسين نظام المواصلات .

منذ تأسيس المقاطعة الرومانية فى جزيرة العرب الذى يرجع إلى عام ١٠٦ من الميلاد ، شيدت الإدارة الرومانيـة فى حوران شبكة من الطرق تتجه إلى الجنوب وكان مركزها بصرى ، التى كانت قديما سوقا تجارية نبطية فصارت عاصمة المقاطعة الجديدة . وعلى هذا فقد أصبح طريق القوافل الممتد من بصرى والمتجه نحو الجنوب مارا بعمان من فيلادلفى وبطرا[٣] حتى يصل إلى خليج « إيلات »

---

(١) أذرعات : بلد فى أطراف الشام ، يجاور أرض البلقاء وعمان ، وينسب إليها الخمر . وردت فى شعر امرئ القيس وبعض الأعراب . وخرج منها طائفة من أهل العلم منهم : إسحاق ابن إبراهيم الأذرعى أحد رواة الحديث « المتوفى سنة ٣٤٤ هـ » وغيره ممن ذكرهم ياقوت فى معجمه . (المعرب)

(٢) مومسن : التاريخ الرومانى ، الترجمة الفرنسية ، ج ١١ ص ٣٢ .

(٣) مدينة بطراء هو الاسم اليونانى لمدينة سلع وهى مدينة الأنباط . وأطلالها باقية الآن بوادى موسى ، وتعرف باسم « حصن سلع » . وكانت مدينة مزدهرة تضارع تدمر فى حضارتها وسلطانها وتسمى فى بعض كتب التقويم والسير مدينة الرقيم وهى تسمية مستحدثة بعد الفتح الإسلامى ، ولذا ظن بعض المؤرخين أنها مدينة أصحاب الكهف . (المعرب)

العقبة[١] . والأعمدة الدالة على عدد الأميال التي أقيمت زمن تراجان والتي أطلعتنا على معالم هذا الطريق تعرفه لنا بهذه العبارة :

Via Nova A Finibus Syriae Usque Ad Mare Rubrum

« الطريق الجديد من حدود سوريا إلى البحر الأحمر » .

ومن بصرى كان هناك طريق روماني يصل إلى أذرعات وطريق ثان يصل إلى دمشق ثم طريق ثالث يصل إلى صلخد ومنها إلى أعناك ، وقلعة الأزرق حيث أقيم آخر حصن عند مدخل الصحراء ، وكانت القوافل تسافر منها إما قاصدة جزيرة العرب ، وإما ذاهبة إلى جنوب الجزيرة .

وكان من نتائج هذه السياسة أنها حددت لدرجة كبيرة عدد البدو الذين كانوا يغشون الشام ؛ ولكن من الحق أن نقول بأن الأنباط هم الذين يسروا للرومان هذه المهمة .

إن دخول السكان العرب بلاد الشام قد ترك آثارا ، إلا أنها لسوء الحظ شديدة الغموض في كتب المؤرخين العرب . فما عدا الحوادث المتصلة بالهجرة ، نرى المعلومات التي تصلنا عن طريقهم عديمة الجدوى لو لم تلق من النقوش المكتوبة تأييدا لها . وإننا لنرى تلك التكملة القيمة التي تمد بها النقوش الروايات العربية . فكوسان دي برسڤال Caussin de Perceval في مؤلفه « بحث في تاريخ العرب قبل الإسلام » : Essai sur l'histoire des Arabes avant l'Islamisme ثم "Wetzstein" في كتابه Reisebericht über Hauran und die Trachonen قد استفادا من الروايات العربية . وأحدث منهما الأستاذ نولدكه NoeldeKe في ترجمته للطبري كما في رسالته التي تحدث فيها عن أمراء الغساسنة[٢] ، وكذلك

---

(١) يعرف خليج « أيلة أو العقبة » في كتب اليونان باسم « ايلانيتيك » Elanitique ويقال إن اسم أيلة مأخوذ من اسم أيلة بن مدين بن إبراهيم . (المعرب)

(٢) ن . نولدكه : تاريخ الفرس والعرب في عهد الساسانيين ، ليدن ١٨٧٩ . أمراء الغساسنة من آل جفنة ، فصلة من منشورات المجمع العلمي الملكي البروسي ببرلين ، طبعة برلين ١٨٨٧ .

الأستاذ رثشتين Rothstein فى دراسته للخميين فى الحيرة[1]؛ وجميع هؤلاء المؤلفين قد استنفدوا كل ما يمكن استنفاده من المصادر العربية .

وقد ظهرت قبيلة بنى تنوخ فى سوريا آتية من جنوب جزيرة العرب فى أوائل التاريخ المسيحى ؛ وأتت بعدها بقليل قبيلة بنى صالح . على أننا نصل إلى حقائق تاريخية أكثر ثباتا مع بنى جفنة الذين عرفوا باسم الغساسنة ؛ وهم بدورهم قد جاءوا من جنوب جزيرة العرب الجنوبية . وقد دخلوا حوران واعترف الرومان بسلطة رؤساء الغساسنة . فكانوا يقابلون بينهم وبين اللخميين فى الحيرة الذين كانوا يخضعون مباشرة للساسانيين . وقد نسبت للغساسنة منشآت كثيرة أقيمت على تخوم الصحراء ، وستتحدث عن هذه المسألة فى الفصل التالى .

ومن المحقق أن السكان الذين أقاموا فى اللجة[2] قرية نجران قد أتوا من جنوب جزيرة العرب لأن اسم هذه القرية يذكرنا باسم المدينة المشهورة فى جزيرة العرب[3]. وقرية بوريكة[4] Bouraiké التى توجد أيضاً فى اللجة كان يطلق عليها فى العصر الرومانى Βορεχάθ Σαβάων أى بوريكة السبئيين[5] . ومع ذلك فإذا كانت قرية يسكنها سبئيون فإن هذا يدل على أن السبئيين لم يكونوا غالبية سكان تلك المقاطعة . إذ أن الأسماء الواردة فى النقوش تكاد تكون كلها فى الحقيقة أسماء عربية ، وقليل

(١) ج . رثشتين : دولة اللخميين فى الحيرة ١٨٩٩ .

(٢) اللجة : لعلها اللجاة التى يذكرها ياقوت فى معجمه ، ويعرفها بأنها اسم للحرة السوداء التى بأرض صلخد من نواحى الشام ، وفيها قرى ومزارع وعمارة واسعة يشملها هذا الاسم . (المعرب)

(٣) انظر فيما يلى ص ٣٤ وما بعدها .

(٤) بوريكة لعلها بُريك التى يذكرها ياقوت فى معجمه ، ويعرفها بأنها بلد باليمامة يذكر مع بَرك وهى بلد آخر هناك ، وهما من أعمال الحضرمة ، ولهما ذكر فى أيام العرب وأشعارهم . ويقول ياقوت : بأن بريك أيضاً موضع فى طريق عدن ، وهو بين المنزل التاسع عشر والعشرين لحاج عدن كذا ذكر فى كتاب نصر . (المعرب)

(٥) ودنجتون Waddington : L. C., رقم ٢٣٩٦ (قارن رقم ٢٣٩٣ ، Notre Mission « بعثتنا » ص ٢٥٢ ، رقم ٣٢ .

جداً منها ما هو سيء ؟ وعلى هذا فلا يجب أن توصف خرائب جبل حوران بأنها سبئية كما وصفت به أخيراً .

والهجرة العربية إلى سوريا لا ينبغى أن تنسب إلى النظام الرومانى فحسب كما يتبادر إلى الذهن . فالظروف هى التى يسرتها فى تلك الفترة وخلعت عليها طابعا من السلام . وقبل وصول پومبى إلى سوريا كانت مدينة حمص تحت سلطان أسرة عربية ، بدليل أن أمراءها سمپسيجراموس Sampsigeramus وچمبليخوس Jamblichus وعزيزوس Azizus وسوؤمس Soemus تحمل أسماؤهم طابعا عربيا خالصاً ؛ وسنعثر عليها فى نصوص صفوية . وفى بلدة الرها كانت تحكم أسر لها نفس الأسماء العربية ، وهذا يفسر لنا دخول مذهب عزيزوس — فوسفورس Azizos-Phosphoros (العزيز المنير) تلك المدينة . ولكن المثل الذى ربما يعد خير الأمثلة على إقامة العرب فى سوريا ، يقدمه لنا الايتوريون ، لأن الوثائق التاريخية تتيح لنا أن نتتبعهم خلال حركتهم فى دخول البلاد السورية . فالعهد القديم[1] يسلك « يطور » بين أبناء اسماعيل ، أى بين القبائل ذات الجنس العربى . ومع ذلك فإذا كان سفر التكوين يحدد إقامة « يطور » فى بادية الشام ، وفى جزيرة العرب ، فإن « سفر الأيام » ، وهو أحدث تأليفاً ، يسكنه فى شرق الأردن . وفى العهد الرومانى نجد الأيتوريين يقيمون فى لبنان الداخلى ، وكانوا يعرفون تارة بأنهم عرب ، وطوراً بأنهم سوريون . والواقع أن بعض أسماء الجنود الإيتوريين ، التى احتفظت بها النقوش اللاتينية ، بعضها أسماء آرامية ، والبعض الآخر أسماء عربية . ويكفى أن نذكر من بين الأسماء العربية اسم هانل « Hanel » ، ويعثر على هذا الاسم فى حوران وحدها ، إما بالكتابة الإغريقية أنيلوك Annhλoc أو على الأصح أنّيلوك Annhλoc وإما فى نص نبطى ولكن على الأخص فى الصفوية حنئل Hann'el .

والتقارب فى الجنس بين العرب الايتوريين والعرب فى تراكونيا (عرب الصفا

(١) سفر التكوين إصحاح ٢٥ ، آية ١٥ ؛ وسفر الأيام الأول ، إصحاح ١ ، آية ٣١ ، وإصحاح ٥ آية ١٩ . انظر إميل شورر فى الفصل الخاص بتاريخ خلسيس من كتابه : تاريخ الشعب اليهودى زمن عيسى المسيح ، ج ١ ، ص ٧٠٧ — ص ٧٢٥ .

وعرب اللجة) قد هيأ لزينودور — رئيس الايتوريين — أن يرى سلطانه يمتد بواسطة الإمبراطور «أغسطس قيصر» على تراكونيا . فليس من العجب إذن فى مثل تلك الظروف أن يخلط إيزوب بين إيتوريا وتراكونيا ، ولكن من الخطأ أن يراد التمسك بتلك الغلطة .

وفى أثناء المناقشة التى دارت حول نقطة معرفة من هم أولئك الذين ورد ذكرهم فى « رسالة إلى الجلاتيين Epître aux Galates » للقديس بولس ، وإلى أى الكنائس خصص هذا المؤلف . لقد زعم الأستاذ رمزى Ramsay — العالم الذى كشف آسيا الصغرى — أن العبارة اليونانية التالية التى وردت فى أعمال الحواريين Actes des Apôtres ، رقم ١٦ ، ٦ وهى: Ιὴν Φρυγίαν χαὶ Γαλατιχὴν χώραν لا ينبغى أن يفهم أن المقصود بها القاطنتان « أفروجيا وجالاتيا » ولكن يراد بها قطر واحد هو أفروجيا — جالاتيا La Phrygie-Galatie .

وبما أنه توجد عبارة مماثلة لذلك فى إنجيل القديس لوقا رقم ٣ / ١ هى : « بلاد إيتوريا وتراكونيا » وجب بالضرورة أن نبين أن « إيتوريا » L'Iturée كانت هى فى الواقع تراكونيا Trachonitide . والأستاذ رمزى يلجأ إلى قاموس الأعلام L'Onomasticon لإيزوب Eusèbe الذى حقق القاطنتين فى موضعين[1]: 'Ιτουραία ἡ χαί Τραχωνῖτις « بلاد إيتوريا هى بلاد تراكونيا » .

ومنذ أن أيد الأستاذ رمزى افتراضه ضد ما ذهب إليه الأستاذ إميل شورر Emile Schürer والأستاذ آدم سميث Adam Smith ، ظهر نقش إغريقى زاد المسألة غموضاً فوق غموض : هذا النص قد عثر عليه الأستاذ « برينوف » فى بعثة مزدوجة إلى عتيل على مقربة من كناثا بحوران ، فهناك شخص يحمل لقب bouleutès أعنى مستشار البلدية يدعى اسكندر بن مكسيم ، وقد وصف بأنه إيتورى كما وصف أيضاً بأنه أدرعاتى[2] Adraénien كما يقول الأستاذ كليرمون جانو . فهل نستنتج

---

(١) طبعة لاجارد Lagarde ، ص ٢٦٨ و ص ٢٩٨ .

(٢) مجموعة « Recueil d'Archéologoie Orientale : Clermont — Ganneau الآثار الشرقية » رقم ٤ ، ص ١١٨ — ١١٩ .

من هذا أن أدرعات — وهى من أشهر المدن فى أورانيا — كانت واقعة فى إيتوريا ؟ وبعبارة أخرى ، هل كان يخلط وقتذاك بين إيتوريا وأورانيا ؟ ثم كيف نوفق بين هذه النتيجة وبين المعلومات التى وصلتنا عن إيزوب ما دامت أدرعات لم تكن يوما ما واقعة فى تراكونيا ؟

أما تفسير هذا فيجب أن يبحث عنه فى الاستعمال المألوف عند العرب ، وهو أن الشخص يحمل اسمين : أحدهما يرجع إلى البلدة التى يقيم فيها والآخر يذكره بالبلدة التى ولد فيها . وعلى وجه الدقة ، فالشخص الذى يحمل اسمين وإنما يدل ذلك على أن هذين الاسمين يختلفان فيما بينهما اختلافا تاماً . فاسكندر بن مكسيم كان من الجنس الإيتورى ، ومن المحتمل أن يكون قد ولد فى إيتوريا ، ولكنه عاش فى أدرعات .

والمظهر الغربى لأسماء الأعلام اسكندر ومكسيم يجب ألا يخدعنا . فلقد قلنا بأن النص كان منقوشا من صورتين ، وهما متحدتان فى تلك النقطة ؛ ففى إحداها نجد أن الاسم هو مكسيموس Maximos وفى الأخرى رَؤُودُس Raoudos . وهذا الاسم الثانى لابد فيه من خطأ فى النسخ ، فما لاريب فيه أن صحته هى ربانس Rabbanès ويجب أن يقرأ كذلك ، وهو اسم مرادفه الحقيقى مكسيموس[١] .

وعلى هذا فالنص الإغريقى فى عتيل لايمكن أن تعارض به الحجج التى غالى فى قيمتها الأستاذ إميل شورر ليشارك سترابون فى التمييز بين تراكونيا وإيتوريا ، وليضع الأخيرة فى لبنان الداخلى فى العهد الرومانى .

وقبل العصر المسيحى ، كان الإيتوريون يسيطرون على مملكة تقع فى لبنان الداخلى ، وكانت عاصمتها شلكيس (عنجر) فى البقاع . ومن هناك امتد سلطانهم فى لبنان حتى الشاطىء الفنيقى حيث استولوا على الطريق المشهور فى ثيوبروسوبن

---

(١) نسخة برينوف : « تقارير ومنشورات الاتحاد الألمانى الفلسطينى » Mitt. und Nachr. d. deutschen Palaestina-Vereins : Brunnöw عام ١٨٩٩ ، ص ٨٤ ورد فيها : PAOYA ... واسم العلم ربانس Rabbanès معروف فى النبطية ب « ربّانا » Rabbâna وفى الصفوية « ربان » Rabbân .

Théouprosopon واستولوا أيضاً على ميناء فطرس (Botrys) . وكانوا يقلقون جبيل (Byblos)[1] وبيروت (Béryte) إلى أن تدخل پومپي ليضع حداً لتعسفاتهم .

ومن الغريب أن الأسر اللبنانية الكبيرة فى أيامنا هذه تطالب بأصل عربى . والأمر الذى يجب أن ندخله فى حسابنا هو أننا نلقى فى قرى عدة ذلك الانقسام إلى يمنى وقيسى — وهما الحزبان القديمان المتنافسان عند العرب . وحينما نزل الإسكندر فى سوريا ، نرى إشارات تفيد أن العرب كانوا يحتلون لبنان[2] .

* * *

لقد رأينا القسم الذى يمكن أن يستمد من أسماء الأعلام التى كشفت عنها النصوص . وكان أرنست رينان أول من نبه إلى هذه النقطة . وفى عام ١٨٥٥ ظهر فى مجلة الجمعية الشرقية الأمريكية » التى تصدر بأمريكا اثنا عشر نصاً إغريقياً نقلها پورتر Porter من حوران . وبعد ذلك بشهور أى فى عام ١٨٥٦ نشر رينان مذكرة عنوانها : « فى بعض أسماء عربية موجودة بنقوش إغريقية فى أورانيا » Sur quelques noms arabes qui figurent dans des inscriptions grecques de l'Auranitide. وهذه الملاحظات الوجيزة ، التى لايكاد يعثر عليها قد طبعت من جديد فى المجلة الأسيوية عام ١٨٨٢ .

وأسماء الأعلام العربية التى تقدمها لنا النصوص التى اكتشفت فى حوران ، وجدها رينان مرة أخرى فى دمشق وحمص وتدمر . يقول ذلك العالم الجليل : « إن غزو اللغة العربية لسوريا يتفق مع حادث تاريخى هام ، أعنى بذلك وصول عدد كبير من أسماء العرب فى نفس الوقت إلى البلاد السورية ، أى فى المدة التى بدأ فيها سلطان الرومان فى الاستقرار[3] » . والحقيقة أن هذه الحركة ترجع إلى زمن أبعد من

---

(١) ببلوس : مدينة فينيقية قديمة ، بين طرابلس وبيروت فى سفح جبل لبنان تسمى جُبيل Giblet . (المعرب) .

(٢) لم يكونوا قد أصبحوا إيتوريين ؟ قارن شورر Schürer l.c. I. P. 708, n. 2 Contre Wellhausen .

(٣) المجلة الأسيوية : رقم ١ ، ص ١٩ .

ذلك . وقد أضاف رينان ملاحظة ينبغي لنا أن نتذكرها وهي : « إن الضبط التام ، الذي كتبت به الأسماء العربية في نقوشنا ليعد أمرا لا يفوت الفقيه اللغوي التنبه له . لقد روعيت فيها أدق خصائص اللغة العربية ؛ والتوافق الذي تقيمه هذه الخصائص بين العربية قبل الإسلام والعربية التي يتحدث بها اليوم لهو توافق يدعو إلى العجب حقاً ، لو لم نكن نعلم من جهة أخرى مقدار الثبات الكبير الذي تتصف به اللغات السامية[١] » .

إن آلاف النصوص التي ظهرت منذ ذاك الوقت حتى الآن في شرق سوريا ، سواء أكانت نصوصا إغريقية أم نبطية أم صفوية إلى جانب ثلاثة نصوص عربية قبل الإسلام — قد أكدت تلك الآراء الصادقة التي ألهمتها إلى رينان اثنا عشر نصا إغريقيا قد كتبت كتابة ناقصة ونشرت نشرا غير صحيح .

وإن بقاء أسماء الأعلام العربية عند النبطيين الذين يتكلمون الآرامية قد أتاح لنا البت في المناقشة التي دارت حول أصل هؤلاء القوم . لقد أقاموا في جنوب فلسطين حيث كانت مدينة سلع (Patra) هي العاصمة ؛ ثم أصبحوا مهيمنين على الطرق التجارية منذ القرن الرابع قبل الميلاد ، تلك الطرق التي بين مصر والشام والجزيرة العربية وجنوب الجزيرة ؛ والعرب الأنباط قد دخلوا شيئاً فشيئاً إلى شرق الأردن[٢] . وحوالي عام ٨٥ قبل الميلاد ، كان الملك النبطي أريتاس الثالث يحتل دمشق التي كانت في ذلك الوقت عاصمة المملكة السلوقية ، وذلك بموافقة السكان ، واتخذ لقب Philhellène (حبيب الإغريق) ليرضى رعاياه الجدد .

وفي زمن قديم ، كان دخول الإسرائيليين فلسطين أشهر مثل لنفوذ العناصر الرحل في إقليم متحضر . وإذا أخذنا بالمشابهات ، رأينا أنه من المحتمل أن اليهود لم يكونوا يتكلمون اللغة العبرية ، التي تعد لهجة كنعانية ، قبل إقامتهم في شرق الأردن .

---

(١) نفس المرجع : ص ٢١ .

(٢) كليرمون جانو : Les Nabatéens dans le pays de Moab, dans Recueil d'arch. or. II. p. 185-219. « الأنباط في إقليم مؤاب نشر في مجموعة الآثار الشرقية » ، ج ٢ ، ص ١٨٥ — ٢١٩ .

والروايات المختلفة لليهود كانت تحتفظ بذكرى المملكة البدوية القديمة . ومن المفيد خاصة أن نوازن بين أسماء أسرة إبراهيم وأسماء الأعلام العربية التى حفظت لنا منها الصفوية طائفة كبيرة .

فاسم إسماعيل مثلا هو فى الصفوية (ى س م ع ل) יסמעל وهو أقرب إلى العبرية (ى ش م ع ى ل) ישמעאל من الاسم العربى الفصيح . واسم أبى إبراهيم تَرَاح قد قربه الأستاذ شارل دڤياوى Charles Daveluy من الصفوية ترَاح . وهذه الملاحظة تبدو لنا حقة من جميع الوجوه .

فالمسوريون (les Massorètes)[١] قد جهروا تَرَاح ؛ ولكن مترجمى العهد القديم إلى اللغة اليونانية les Septante قد كتبوا « ثَرَا » Θάρα ؛ وبعض المخطوطات تكتبه ثرّا Θάρρα مراعية فى ذلك ، الميل إلى تضعيف الحرف الذلق liquide . ومن جهة أخرى ، فإن التفسيرات التى قدمت حتى الآن لشرح اسم والد سيدنا إبراهيم لم تعد مقبولة ؛ ومن اليسير علينا أن نثبت ذلك .

وتراح ، كما نعرف ، كان ابن ناحور (سفر التكوين ، رقم ١١ ، ٢٤) . وقد خلف ابرام (ابراهام) ، نحور وهران (المصدر نفسه ٢٧) فى أور Ur — وهى مدينة من مدن الكلدانيين (المصدر نفسه ٢٨) . ثم رحل من أور ليذهب إلى كنعان ، وتوقف فى الطريق عند حرّان وسكنها ومات بها (المصدر نفسه ٣١ — ٣٢) .

وإذا طبقنا نظرية الأستاذ شتوكن Stucken التى جددها دبوى Dupuis مؤلف « أصول جميع العبادات » Origine de tous les cultes ، فإن الأستاذ ڤنكلر Winckler يشرح تاريخ الآباء (الأحبار) فى قصة فلكية . وتراح[٢] ما هو إلا

---

(١) المسوريون : مترجو العهد القديم إلى اللغة اليونانية Les Septante . (المعرب)

(٢) يرى الأستاذ شتوكن Stucken ومدرسته التى تضم فى ألمانيا علماء أجلاء ، أن الخرافات القديمة والأحاديث التاريخية القديمة ما هى إلا عرض على الأرض لما يدور فى السماء من فلك . وأنصار هذا المذهب يؤمنون به إيماناً كبيراً ، حتى أنهم لا يترددون فى أن يغيروا القصص ، ويحوروا فيها لتكون ملائمة لنظريتهم . ولكن الأستاذ عمانويل كوسكان Emmanuel Cosquin ، وهو عالم فى الفلكلور ، قد بين فى وضوح الطرق غير العلمية التى يتبعها الأستاذ شتوكن ، ووصفه بالتحايل ، وذلك فى نقد قيم عميق أسماه « أوهام رئيس مدرسة فيما يختص بالقصص فى الإنجيل » فى مجلة الإنجيل عام ١٩٠٥ ، ص ٥ — ٣٨ .

تحريف غير مقصود من براح . وهذه الكلمة هى « أرحو » فى السوريانية ومعناها الأصلى « بدأ القمر » أور كصديم Ur-Kasdim التى جاء منها تراح . فهى نفسها مدينة « أور » الواقعة فى بلاد بابل الجنوبية وهى مقر عبادة من عبادات القمر . وكانت حران التى مات فيها تراح مركزاً آخر من مراكز هذه العبادة . وليس من العسير أن تكون أساطير الأبطال قد لقحت فى بعض الأحيان بأوهام الكواكب ، ولكن الخطأ هو الرغبة فى أن يفسر كل شىء بالكواكب .

أما فى هذه الحالة التى هى موضع عنايتنا هنا ، فإن الأساطير الخاصة بالكواكب Les Astralmythen مهما انطوت عليه من حذق كبير ، فإنها لاتهدينا إلى حل مقبول . وإذا لم يكن تراح إلا تصويراً للإله القمرى البابلى . فإن ابنه ابراهام لا يكون إلا إله الشمس ، وساره لاتصبح غير ڤينوس (أشتار) . ولكن واضعى هذه النظرية يؤكدون أن أبراهام إله قمرى أيضا ، وسارة إلهة قمرية[١] .

وهناك خطأ آخر ، وهو أن هذه المجموعة تمتد سلطانها إلى شاؤول ويونثان وداوود وسليمان[٢] ؛ وهذا يذكرنا كثيراً بخطأ ماكس مولر من جعل إبراهيم بطلا من أبطال الشمس .

أما روبرتس سميث فقد جعل من تراح طوطما معبوداً ؛ لأن معنى هذا الاسم هو « عنزبرية ، وعل » بالمقارنة بالكلمة السريانية « ترحُو Torho » ، ولكن الأستاذ نولدكه يرفض هذا التقريب بين الكلمتين[٣] .

وأما الأستاذ ينسن Jensen فيرى أن تراح Tarah ألوهية نعثر عليها فى مركبات بعض أسماء الحيثيين[٤] .

ليست هناك أية نظرية ترتضيها من تلك النظريات التى عرضناها . وعلى هذا

---

(١) تسيمرن : من الكتابات المسمارية ، والعهد القديم ص ٣٦٤ .
Keilinschriften und das alte Testament.

(٢) فنكلر — Winckler . نفس المرجع ص ٢٢٣ .

(٣) نولدكه : ZDMG . مجلة جمعية المستشرقين الألمان عام ١٨٨٦ ص ١٦٧ وما يليها .

(٤) ينسن : الحيثيون Hitiler ص ١٥٠ وما يليها .

فيمكن قبول التقريب الذى اقترحه الأستاذ « ڤيلوى » ، وهو أن « تراح Terah ليس إلا علما على رجل ، وهو اسم من أصل عربى ، أو على الأقل كان مستعملا فى بادية الشام .

سواء أكان الأمر يتعلق بالاسرائيليين ، أم بالنبطيين ، أم بالمسلمين ، فإنهم جميعاً فى القرن السابع الميلادى كانت تغريهم الأرض الموعودة وتقوم فى سبيلهم نفس العقبات . وقد حاولت الجماعات الرحل الاستيلاء على جنوبى فلسطين ، إلا أن المحاولة قد باءت بالفشل ؛ لأن هذا الإقليم كان محصناً ومنظما تنظيما جيداً ، فاتجهت هذه العشائر إلى شرق الأردن وأحاطت به فى سهولة . وكان عليها أن تحتل كل المنطقة الواقعة شرق البحر الميت ونهر الأردن قبل أن تتمكن من التوغل فى قلب الإقليم .

وهذه الإغارة السلمية أو الشديدة المتواصلة على كل حال ، ألا وهى هجرة العناصر البدوية بسوريا ، تقابلها هجرة لا تقل عنها شدة هى مهاجرة سكان لبنان تجاه البحر .

فالجبل مثله مثل الوديان الصحراوية الجرداء ، يحدد فى سرعة كبيرة عدد السكان الذين يتمكن من أن يمدهم بالغذاء . وأصبحنا نرى ساكن الجبل يهبط فى انتظام من جبله إلى الوادى فى الفترات المستحبة ثم يصعد ثانية إلى أماكنه المرتفعة .

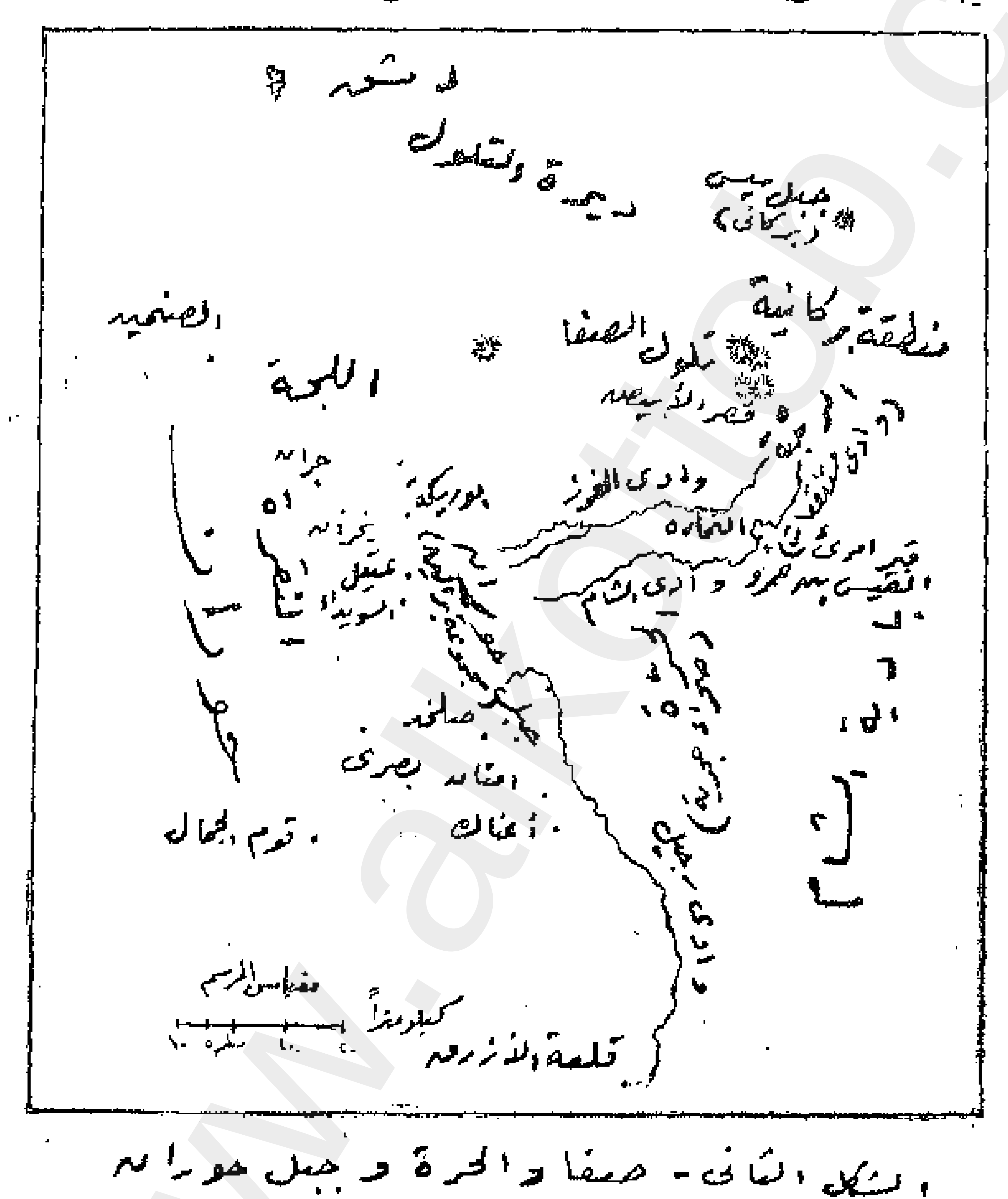
وقد يصبح هذا الارتحال هجرة . ونحن نرى هذا فى فرنسا فى مقاطعة الباسك أو فى وادى « برسيلونت » . وقد تفشت هذه الحركة نفسها بكثرة فى لبنان ، حتى أنها امتدت تدريجيا إلى كل الجهة الشرقية من حوض البحر الأبيض . فاجتذبت أمريكا اللبنانيين كما اجتذبتهم أفريقيا وحتى استراليا قد استهوتهم إليها بدورها . وقد أنشأوا فى غربتهم منذ خمسة عشر عاما[1] جاليات حقيقية تحتفظ بعاداتها وبلغتها التى تصدر بها الصحف ، كما احتفظت بعبادتها وبرجال دينها . وهذه الهجرة التى نشأت أول الأمر بسبب صعوبات الحياة فى لبنان ، قد اتخذت فيما بعد ذلك طابعاً قويا حتى أن بعض المناطق أصبحت خالية من السكان تماما .

وعلى هذا فلا ينبغى لنا أن نبالغ فى ضيق مساحة فينيقيا لنخرج من هذا بتعذر إقامة المدن الفينيقية لجاليات كثيرة العدد ، مزدحمة السكان كبيرة القوة مثل تلك

---

(١) كان هذا فى عام ١٩٠٧ وقت طبع هذا الكتاب . (المعرب)

الجاليات التي كانت تقيم بشمال أفريقيا . وقد أرجع الأستاذ فنكلر المؤسسات الفينيقية في أفريقيا لا إلى استعمار ولكن إلى حركة غزو برية كبيرة ، هي نفس الحركة التي بدأت من جزيرة العرب وترتب عليها دخول الفينيقيين إلى سوريا[1] ، وهو في هذا مدفوع بإدراك خاطىء من أن فينيقيا مكونة من عدة مدن ليس لها عضد قوي في الإقليم[2] ، ومدفوع أيضاً بالمثل الذي ضربه لنا الفتح الإسلامي .



الشكل الثاني - صفا والحرة وجبل حوران

(١) عرض الأستاذ فنكلر هذا الرأي عدة مرات ، وخاصة في الطبعة الجديدة التي طبع بها شريدر Die Keilinschriften und das alte Testament : Schrader والأستاذ فون لنداو Von Landau قد أخذ بهذا الرأي في : Die Phönizier (Der alte Orient) .

(٢) انظر عكس هـذا الرأي في المجلة الأثرية عام ١٨٩٧ ، مجلد ١ ، ص ٣٣٦ — ٣٣٨ .

ويذهب الأستاذ فنكلر إلى أن جزيرة العرب هي المهد الأول للساميين ، ففي موجات متتالية خرج من جزيرة العرب البابليون والكنعانيون والآراميون وذلك على مثال الغزو الإسلامي في القرن السابع الميلادي . وفي كتاب قيم يسمى « أين توجد الجنة » ؟ WO lag das Paradies لا يفهم فريدريك ديلتسن أنه لا يمكن أن يطرأ أي شك على ذكر دجلة والفرات في سفر التكوين : رقم ٢ ، ١٤ . والأستاذ هومل Hommel لا يقبل حلا في مثل هذه السهولة ، فهو يفترض أن ذكر جنات عدن يرجع إلى عصور ماقبل التاريخ ، يعود إلى زمن كان فيه وادي بادية الشام ، وقد أصبح اليوم أرضاً جرداء ، تجري فيه مياه غزيرة وتنمو فيه زروع وفيرة . وعلى هذا فإن « هدقل » اسم النهر الذي حفظته جيدا لنا النصوص الأشورية (« دقلت ، إيد يقلت » حتى صار في اللغة العربية الحديثة دجلة) لا يراد به نهر دجلة ، ولكنه وادي راجيل وهو مجرى ماء ضئيل ينبع من جبل حوران (انظر الخريطة رقم ٢) أو أنه منخفض في إقليم الجوف شمالي جزيرة العرب[1].

هذا التحقيق لايتجاهل فحسب النتائج القيمة التي توصل إليها الباحثون ، ولكنه لايعبأ أيضاً بالمسائل الجغرافية لهذا الإقليم . وسنرى أن وادي راجيل لايكاد يخرج من جبل حوران حتى يدخل في واد تغطيه المواد البركانية والقطع الضخمة من البزالت التي لم تزل بعد تماماً كي تصبح التربة صالحة للزراعة . حقاً إن براكين تلك المنطقة ترجع إلى عصر حديث نسبياً ، ولكنه سابق جداً للعصر الذي تواضع عليه العلماء لظهور الإنسان . أما الجوف فكل المياه به أجاج ، والأهالي يستخرجون منه طبقات من الملح المعدني المتبلور . ولو افترضنا تغيراً في المناخ ، فإن هذه الأقاليم على أية حال لا تصلح لزراعة وفيرة .

إن ماانتهى إليه هذه النظريات من استحالات ليدل دلالة كافية على ضعفها . ومع ذلك فإن الحلول التي تقترح لما كان يدور قبل التاريخ ، لا تدخل في ميدان فقه اللغة « الفيلولوجيا » . وليس لنا أن نواجه هنا إلا الوقائع التاريخية : فيما عدا وفود

---

(١) هومل Hommel : Grundriss der Geographie und Geschichte des alten Orients P. 272. ، المفصل في جغرافية الشرق القديم وتاريخه ، ص ٢٧٢ .

السكان الذين جاءوا إلى سوريا من الشمال أو أتوا عرضاً من الغرب مثل الفلسطينيين فقد رأينا أنها كانت خاضعة لتموّج مضاعف يمكن أن نحدده على الوجه الآتى : من جهة نرى أن الهجرة بواسطة البحر كانت مقصورة على سكان الجبل أو الشاطئ ؛ ومن جهة أخرى نرى ارتحال البدو الذين يعدون من الجنس العربى . ومسلك هؤلاء الأخيرين هو الذى ترمى إلى تحديده فنضرب له مثلا .

إن دراسة السكان الصفويين ، وفقاً للنصوص التى تركوها ، تتيح لنا أن نفاجئ حركة توغل القبائل العربية . والبـدوى الذى يقيم فى إقليم متحضر يفقد غالباً لغته وعاداته . فإلى هذا الحد يظهر لنا النبطيون والتدمريون وقد أحاطوا إحاطة تامة باللهجات الآرامية . أما الصفويون ، فقد كان التطور لديهم لا يزال فى بدئه حين نقشوا نصوصهم فوق صخور الصحراء . وكانوا لا يزالون يمتلكون ناصية لغتهم . ومع ذلك فـكانوا قد بدءوا يتخذون لهم آلهة حضرية مثل بعل — سمين Be,elSamin ودوزاريس[1] Dusarès « ذو الشرك » . وبتحديد البقعة التى اغتربوا إليها — وذلك بفضل النصوص — نرى أنهم لا يستحقون أن يسموا إلا بأشباه البدو ؛ وهذا يرجع إلى ضآلة ارتحالاتهم . لقـد احتفظوا بلغتهم ولـكنهم لا يلبثون طويلا حتى يتركوها ؛ وابتـداء من القرن الرابع الميلادى ، نستطيع أن نتتبع أثرهم فى أسماء الأعلام التى وردت فى النصوص الإغريقية لجبل حوران .

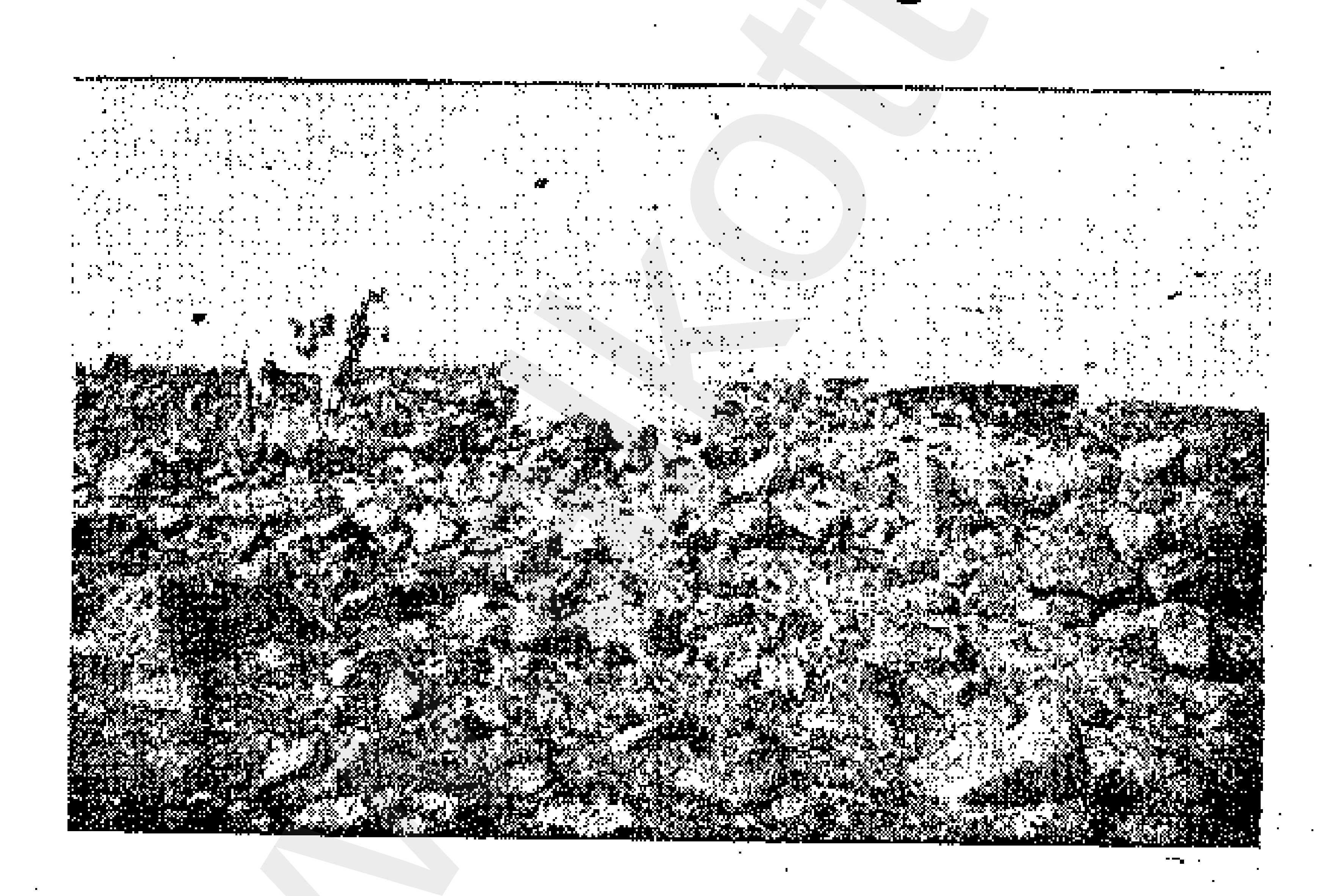
وفضلا على الفائدة التى تنطوى عليها المعرفة العميقة بظروف حياة الصفويين وتطورهم بالنسبة للجغرافيا البشرية ، وفضلا على الاستنتاجات التى تؤيد بعض النقط وتلقى ضوءاً على بعض الأمور الأخرى الغامضة فيما يتعلق بتاريخ ودراسة الشعوب بسوريا ، فإن النصوص الصفوية تذيع انتشاراً لا ريب فيه للهجات العربية قبل الإسلام مما يتيح لنا أن ندرك الانتشار السريع للتعاليم الدينية لمحمد رسول الله .

أما من ناحية العبادات العربية قبل الإسلام — التى لا تزال مجهولة وإن كانت على جانب كبير من الأهمية فى دراسة التطورات البدائية — فالنصوص الصفوية تضع بين أيدينا آلهة هؤلاء البدو ، وإذا قارنا بينها وبين آلهة تدمر مثلا ، وجدنا أن

(١) انظر ما يلى فى الفصل السابع .

آلهة الصفويين تبدو لنا أقدم منها وأقل تأثراً بالطابع السورى ، أعنى التأثير الإغريقى الآرامى فى تلك الفترة من الزمن . كما أن النصوص ترينا من ناحية أخرى كيف أن بعض الآلهة العربية قد دخلت فى الديانات السورية ، ومنها انتشرت بواسطة الجنود والتجار فى جميع أنحاء العالم الرومانى .

والنصوص الصفوية تمدنا فى كثرة شديدة بأسماء الأعلام ، لأن العربى شديد التمسك بنسبه . فالنسب هو الذى يقرر اشتراك العربى فى هذه الموقعة أو فى تلك المعركة وهو الذى يسيطر على جميع الأعمال فى حياته . وهذه النصوص تدل على أن أسماء القبائل يمكن أن تكون مأخوذة من أسماء الأجداد ؛ وإن كان هذا الرأى يخالف المتعارف عليه الآن . وأسماء الأعلام عند الصفويين شديدة الاختلاف ؛ وبما أن المعنى يمكن أن يدرك دائماً ، فإن هذه الأسماء تلقى ضوءا على المفردات . ونرى بعض الأسماء مكونة من صيغ فعلية .



شكل ٣ — معسكرنا فى الحرّة

وإذا كان كتّاب النقوش الأثرية الصفوية لايقصون علينا ، إلا نادراً ، نبأ هاما فإنهم من ناحية أخرى ، يخرجون بها من حيز ذلك الجفاف الذى يصيب النقوش الأثرية الأخرى . وهذه النقوش تشبه فى جميع النواحى تلك الرسوم التى تصاحبها غالبا

وتزينها ، فتقدم لنا بذلك تعليقا هينا على الحياة فى الصحراء . والصفويون فى نصوصهم المختلفة يبدون فى شكل مصوّر إلا أنه ملىء بالحركة : فنى ذلك الوضع ، نرى فرساناً مسلحين برمح طويل — مثلهم مثل البدو فى أيامنا هذه — تارة يترصدون الفريسة راكبين دوابهم ، وطوراً قد رُسموا وهم يطاردون ظبيا أو وعلا . وفى هذا المكان ، نرى رجالا يركبون الخيل يهاجمون أسداً ، والرمح فى أيديهم ، فى الوقت الذى يهاجم فيه رجال يسيرون على الأقدام مسلحين بالأقواس والتروس .

الفصل الثاني

الأعراف السورية

والفن العربي قبل الإسلام

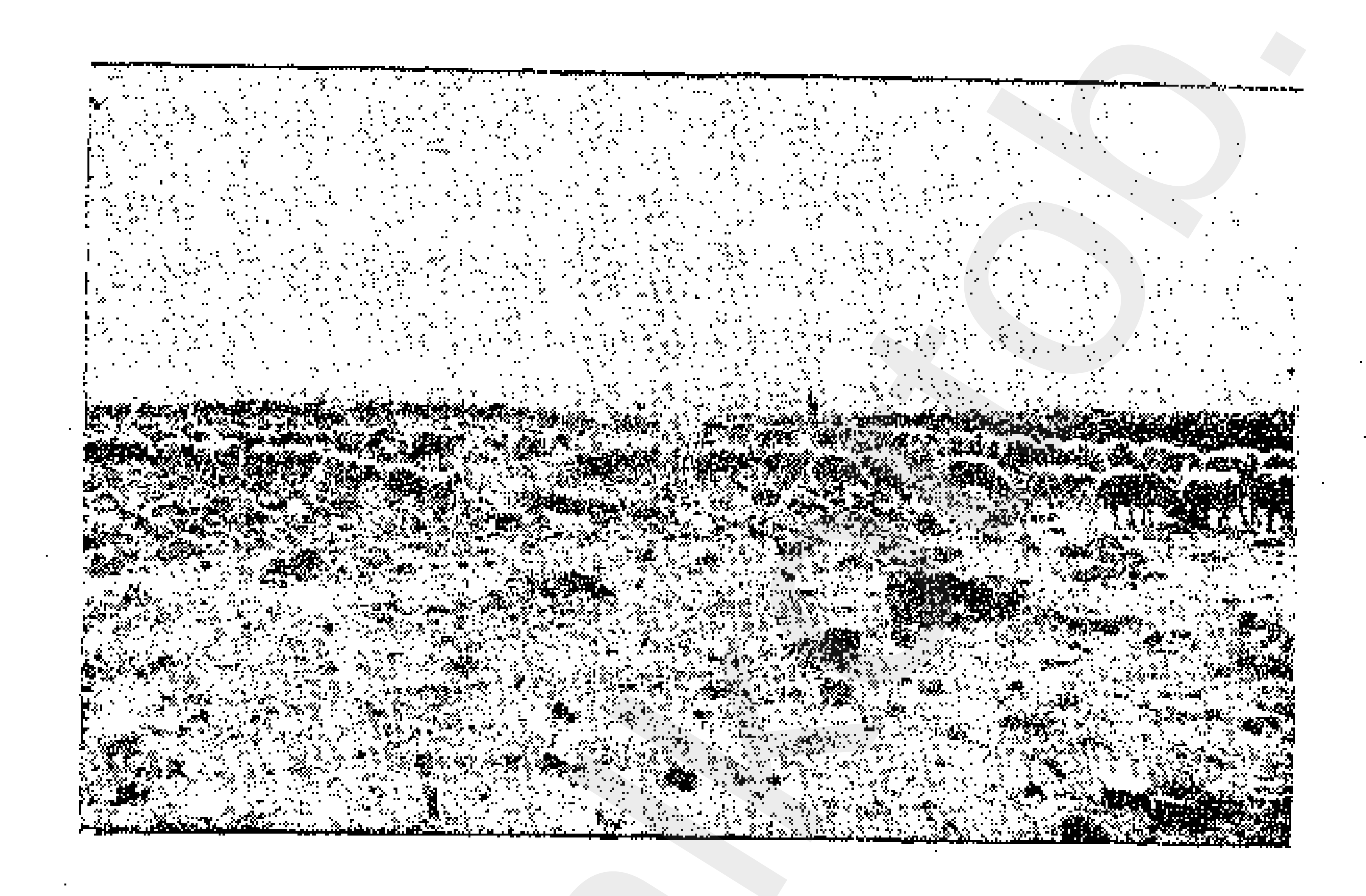
التكوينات البركانيه في سوريا — إقليم صفا أو حرة وادي رجيل — الحصون الرومانية الصغيرة في الأعراف السورية : جبل سيس . القصر الأبيض ، النماره ، دير الكهف ، قلعة الأزرق — قبر « ملك جميع العرب » : امرؤ القيس بن عمرو . قصر المشتى : فن عربي قبل الإسلام .

سطح الأرض الحالي ، الذي يوجد في سوريا ، هو نتيجة لسلسلة من هبوط الأرض بفعل الزلازل ؛ وقد تكامل بواسطة التآكل للعوامل الجوية الذي تم في ألف سنة . وفي نهاية الفترة البليوسينية أو في ابتداء فترة الطوفان ، اعترى البقعة الجيرية الكبرى المشرفة على شرقي البحر الأبيض المتوسط تفكك كبير جدا ، ناتج عن التغير الدائم للقشرة الأرضية . أما البقعة التي توجد غرب الانخفاض ، الذي يحده وادي العربة : البحر الميت ونهر الأردن ، فقد هبطت . وفي جانبي هذه الفرجة ، تظهر نفس الداميك ولكنها في مستوى قليل الارتفاع في الإقليم الغربي .

والبقاع في ذلك الوادي الذي يفصل لبنان عن لبنان الداخلي ، ناتج عن هبوط معاصر للهبوط السابق ، ولو أن هذا الوادي لايعد متمماً لخط انخفاض البحر الميت ونهر الأردن . وحينما يصل هذا الوادي إلى سفح سلسلة جبال حرمون ينحرف نحو الغرب في شكل منحن كبير يمر بسهل دمشق . وعلى هذا ، فوادي دمشق قد أوجده انخفاض في الأرض يتصل بهبوط وادي نهر الأردن .

والبراكين تقوم كشواخص على خطوط التفكك التي تحد انخفاضات بخائية . وعلى ذلك ، فقد كنا نتوقع أن نقابل سلسلة من ظواهر الفوران البركاني موازية لخط هبوط « البحر الأحمر — العقبة — البحر الميت — نهر الأردن — وادي دمشق » . والواقع أن مجموعة من البراكين القديمة والارتفاعات المخروطية الشكل في القشرة

الأرضية ، تمتد عبر جزيرة العرب وشرق الأردن حتى تصل إلى حافة واحة دمشق . وكل مجموعة بركانية محوطة بمقذوفاتها تسيل حولها المواد البركانية ، كتلا وأحجاراً بركانية ، يسميها العرب « الحرة » . والحرة كما يقول ياقوت[1] « أرض ذات حجارة سود نخرة كأنها أحرقت بالنار » ويشير إلى أن بلاد العرب بها كثير من الحرات وخاصة بين المدينة ودمشق . ويمكننا أن نتصور تكوين أرض الحرة من الشكلين الثالث والرابع .



شكل ٤ — قطيع من الأغنام يمر بالحرة

أما اللون الأسود للصخور فيميز هذه الأصقاع البركانية ، ولكنه ليس على الإطلاق نتيجة للنار . وفي الصحارى ذات الانخفاضات الجوية النادرة ، فإن الطل الغزير يحمل حامض الكربونيك وآزوت النشادر في الهواء . ومن ناحية أخرى ، فإن أملاح الحديد والمنجنيز في الصخور البركانية ، وقد اشتد تأكسدها في بطء بتأثير الحرارة المرتفعة ، تتجمع في الندى . وحينما يتبخر الندى يترك أملاح الحديد والمنجنيز فوق سطح الصخور في شكل قشور ملونة[2] . وعلى هذا ، فالصخرة بعد أن

(١) المعجم : المجلد الثاني ، ص ٢٤٧ .

(٢) بلنكنهورن ، اقتباسا من لالوا : الأنثروبولوجيا ، عام ١٩٠٥ ، ص ٦٦٩ .

كان لونها رماديا كالحديد تصبح بفعل التأكسد حمراء ، وهو اللون العادي للأراضى التي من أصل بركاني . وفي الصحراء ، تؤدي شدة التأكسد إلى اللون الأسود .

والبدوي وحده هو الذي يستطيع العيش في « الحرة » . وليس أشق على سكان المدن من مثل تلك المناطق . وكان النبي أرميا ، وقد سمع بتلك المناطق المنعزلة يهدد بأن ينفي إليها من يعصى الله : « إنه سيكون بمثابة شجرة العرعر في عربة ، سيكون محروما من كل خير وسيقيم في « الحرة » بالصحراء ، وهي أرض ملحة لا يسكنها أحد[1] » .

وفي الجنوب الشرقي من دمشق تكوّن دبرة التلول والصفا وجبل حوران ثلاث مجموعات بركانية ذات طوابع شديدة الاختلاف : فالصخور البركانية بجبل حوران — التي يبلغ ارتفاع قممها ١٫٨٠٠ متر — قد تفتت إلى درجة أنها أصبحت أرضا زراعية حمراء غنية تمتد على طول السفح الغربي للجبل كما تمتد في كل وادي النقرة . وفي النُّقْـرة يزرع قمح حوران الشهير بصلابته وجودة نوعه .

ودبرة التلول الواقعة شرقي دمشق تنقصها المياه ، غير أنها في موسم الأمطار تغطيها الأعشاب والأزهار .

وإقليم الصفا لاينطوى إلا على مقذوفات مخيفة من المواد البركانية المشتبكة بعضها ببعض ، والمتشققة تجاه القمة وعلى طول امتدادها : فيه صخور سوداء بركانية قد اختلط بعضها ببعض حول الفوهات البركانية المفتوحة . والمسافرون الذين تمكنوا من اختراقه قد ترك في نفوسهم أثراً سيئاً . إن الصفا ليس صالحاً للسكنى ؛ ولكن يمتد حوله واد تغطيه الأحجار البركانية ، تمتد حرة يشبهها ياقوت الجغرافي بحرة وادي رجيل ؛ وهي الموطن الحقيقي للصفويين . ونجد فيها النقوش الصفوية وقد حفرت على كتل من الصخور البركانية في كثرة شديدة .

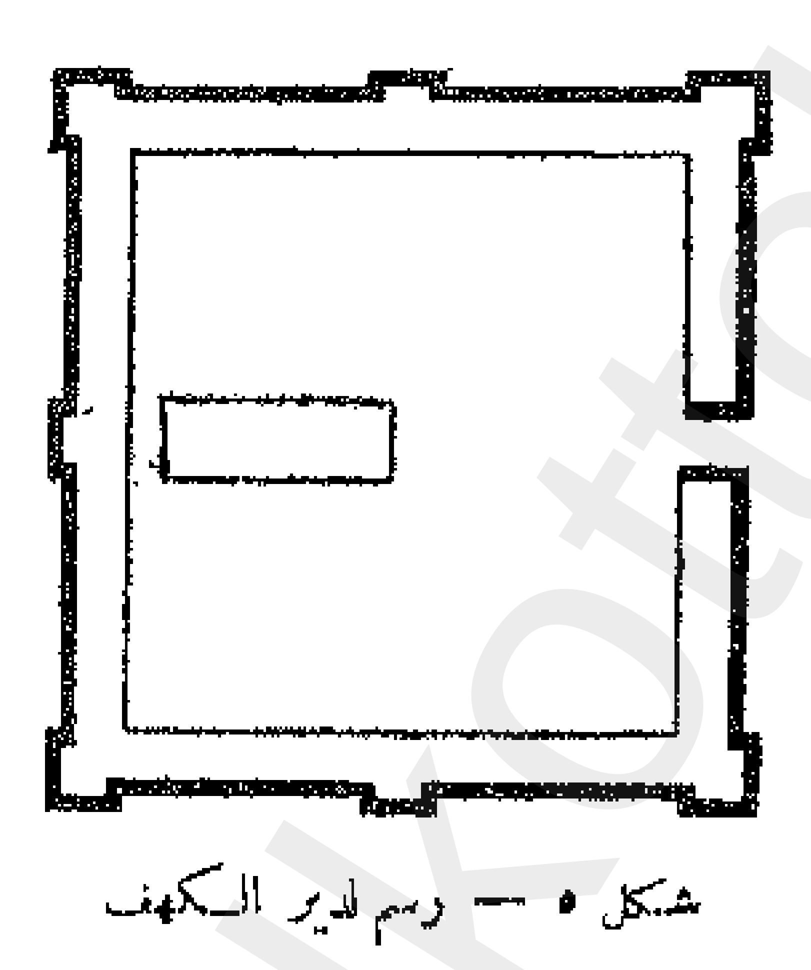
إن مصطلح الصفويين قد اقترحه الأستاذ دي فوجه الذي نشر أول قائمة من تلك النصوص تعد على جانب كبير من الأهمية . وإذا كنا نجهل الاسم القديم للسكان ،

---

(١) أرميا : رقم ١٧ ، ٦ : « ملعون الرجل الذي يتكل على الإنسان ويجعل البشر ذراعه ، وعن الرب يحيد قلبه . ويكون مثل العرعر في البادية ولا يرى ، إذا جاء الخير بل يسكن الحرة في البرية ، أرضا سبخة وغير مسكونة » .

فاننا نعلم من نص إغريقي أن الإقليم كان يطلق عليه اسم صفاثن Safathené[1]. وإلى اليوم[2] يطلق على العرب الذين يعيشون حول الصفا اسم « عرب الصفا » .

أما حرة وادي رجيل ، فهي وإن كان سطحها مغطى بحصى أسود ولكن يتعين على المسافر أن يعسكر فوقه (كما في الشكل الثالث) ، إلا أنها مغطاة في بعض أنحائها ، خلال موسم الأمطار ، بأعشاب نادرة تقبل الأغنام على رعيها إقبالا كبيراً . ويبين الشكل الرابع قطيعاً من الغنم يسير في الحرة . ونظراً لكثرة الأحجار ، لاتستطيع القطعان السير إلا في صفوف منفصلة .



شكل ٥ — رسم لدير الكهف

ومواضع المياه ليست نادرة في حرة وادي رجيل ، وبعض الآبار لاتفيض مياهها إطلاقا . ففي الحرة ، توجد في الواقع ثلاثة مجار للمياه أساسية تنبع من السفح الشرقي لجبل حوران ؛ ولكن مياهها تجف طوال الصيف . فوادي رجيل ، الذي سبق أن تحدثنا عنه ، يختفي نحو الجنوب في مستنقعات ماؤها ملح أجاج على مقربة من قلعة الأزرق ؛ ووادي الشام ووادي الغَرْز يتجهان نحو الشرق ويصبان في منخفض يكوّن واحة الرحبة على الحافة الجنوبية للصفا .

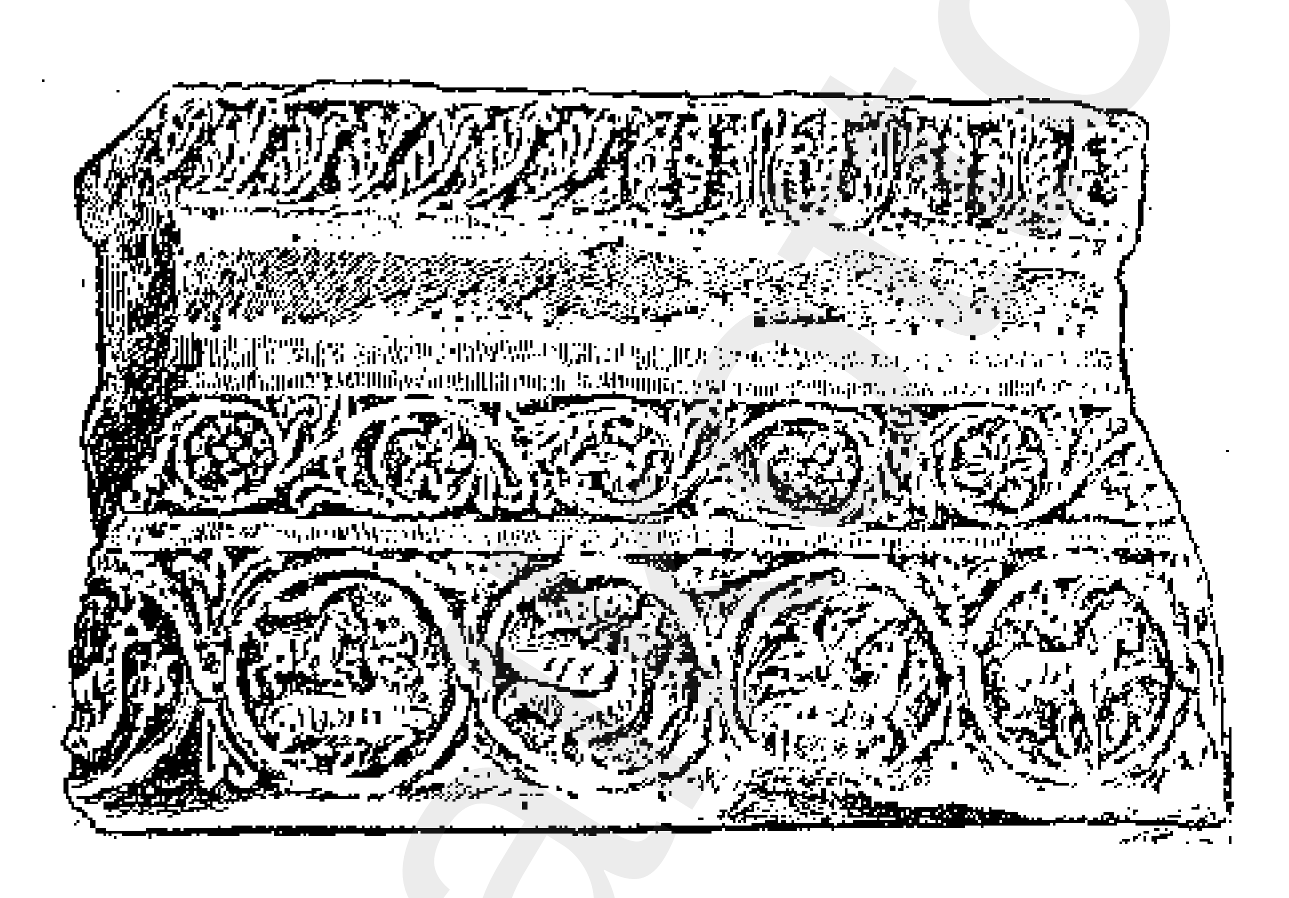
وعلى هذا ، فالرحبة سهل منخفض يبلغ طوله عشرين كيلومترا تقريبا وعرضه يتراوح بين خمسة وستة كيلومترات . وفي الشتاء ، يصير بحيرة كثيرة المستنقعات ؛

(١) انظر فيما يلي الفصل السابع .

(٢) كان هذا قبل عام ١٩٠٧ . (المعرب)

ولكنه فى الربيع يصبح حقلا زراعيا بديعا . وفى عصرنا هـذا ، يبذر عرب الصفا القمح والشعير فى الأرض ، وهى لاتزال مبتلة ، مكتفين بشقها خطوطاً بواسطة أغصان شائكة . وليس فى الشام كلها أرض خير من هذه البقعة فى زراعة القمح . أما المحصول فيجمعه الناس ويخزنونه ، ثم يتركونه فى رعاية « الشيخ سراق » : ولى هذا الإقليم ووريث الإله عند الصفويين . وأما الأجزاء التى لاتبذر من أراضى الرحبة فيكسوها عشب كثيف يعد غذاء وفيراً لقطعان البدو .

وفى العهد الرومانى ، أنشئ فى الرحبة مركز حصين كان على جانب من الأهمية . ويطلق العرب على أطلاله قصر الأبيض ، القلعة البيضاء ، لأن جدرانه التى تميل إلى اللون الرمادى تقوم على أرض من الحجارة البركانية تحيط بالقصر .



شكل ٦ — قطعة من العتبة العليا الكبيرة
من قصر الأبيض

وأطلال الحصون الرومانية التى تقابلنا فى حرة وادى رجيل تستحق أن نقف عندها ، لأنها تعد بمثابة شواخص للأعراف السورية ، وهى تتيح لنا أن نعيد تخطيط هيئة تلك الأقاليم زمن الحكم الرومانى . سندرس أولا الحصون التى أقيمت فى الأراضى الصفوية ، وبعد ذلك نتجه أكثر من ذلك نحو الجنوب حتى شرقى البحر الميت ونحاول أن نتعرف على المظاهر المختلفة التى خضع لها فن العمارة والزخرفة على حدود سوريا .

* * *

أهم الحصون[1] الصغيرة التي أقيمت في الفترة الرومانية في الميدان الذي انتشر فيه الصفويون ، هي من الشمال إلى الجنوب : نقطة جبل سيس ، قصر الأبيض ، النمارة ، دير الكهف وقلعة الأزرق (الشكل الثاني والعاشر) . والأطلال التي توجد عند قاعدة المخروط البركاني الذي يسمى جبل سيس ، تعتبر ذات أهمية خاصة. فالحصن يشغل مساحة مربعة جانبية تقدر بخمسة وثلاثين متراً تقريباً ، وبه أبراج مستديرة ؛ والجدار مبني بسمك مترين تقريباً ، ويحميه خندق صغير .

أما قصر الأبيض فهو مبني بدوره على شكل مربع ، وبه أبراج ذات زوايا وفي وسطه استحكامات . وجدار السور مكون من واجهتين مرصوصتين قد ملئ ما بينهما بالأحجار والملاط . وهناك برج عال يتصل بجدار السور ، ولكن لايبرز منه شيء في الخارج ؛ وهذا البرج يشرف على البناء كله . وسنعود إلى الحديث عن زخرفة هذا الأثر .

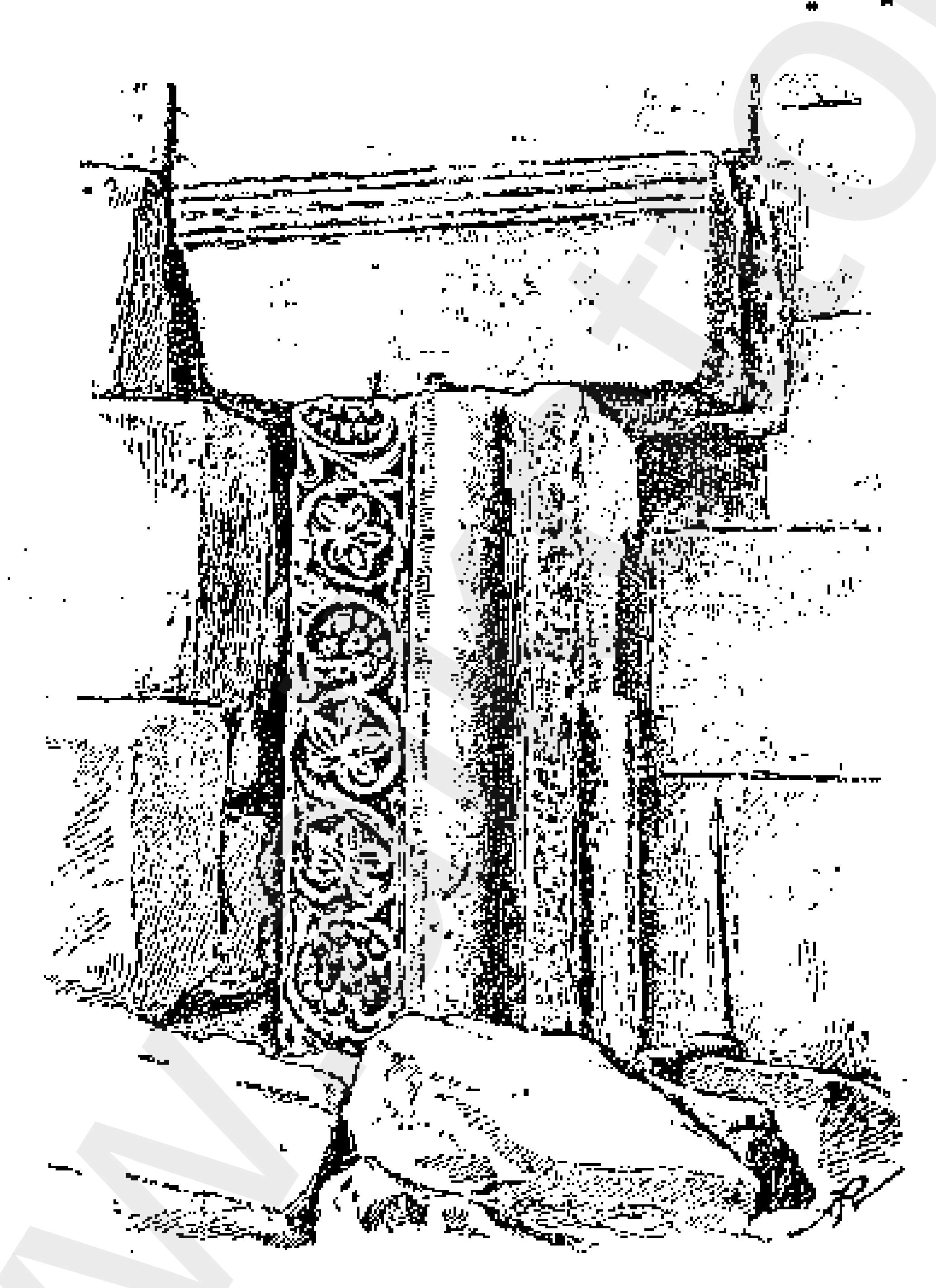
أما النمارة فيقوم على تل وسط وادي الشام . وفوق اسكفة باب الدخول نقرأ بداية نص هي : Ἐπὶα (ὑπο.) X X (ρἀτορος) M.Aὐρ.᾽Ἀντωνεὶνου «في زمن حكم ماركوس أورليوس أنطونينوس » . وهذا يدل على أن الحصن قد بني إما في زمن مارك أوريل (١٦١ — ١٨٠) أو زمن كراكلا (١٩٨ — ٢١٧) أو في عهد إيلاجبل (٢١٨ — ٢٢٢) . وفي داخل الحصن ، توجد نقوش أثرية إغريقية بجوار النقوش الصفوية . وهذه وتلك تمدنا بأسماء أعلام صفوية ، ولا بد أنها ترجع تقريبا إلى نفس العصر . وعلى مقربة من النمارة ، توجد أطلال قبر امرئ

---

(١) لمعرفة المزيد عن هذه المنشآت ، يرجع إلى دى ڤوجيه : « سوريا الوسطى ، العمارة المدنية والدينية من القرن الأول إلى القرن السابع » ؛ وإلى Von Oppenheim : Vom Mittelmeer zum persischen Golf ، « من البحر الأبيض إلى الخليج الفارسي » الجلد الأول ؛ وإلى : R. Dussaud و Fr. Macler : Voyage archéologique au Safâ Djebel ed-Druz et Mission dans les régions désertiques de la Syrie Moyenne. رنيه ديسو وفردريك مكلير : رحلة أثرية إلى الصفا ، وجبل الدروز ، وبعثة في المناطق الصحراوية من سوريا الوسطى .

القيس بن عمرو ، ملك العرب ، المتوفى فى ٧ من ديسمبر عام ٣٢٨ ميلادية ، كما يدل عليه النص الذى سنجده فيما بعد .

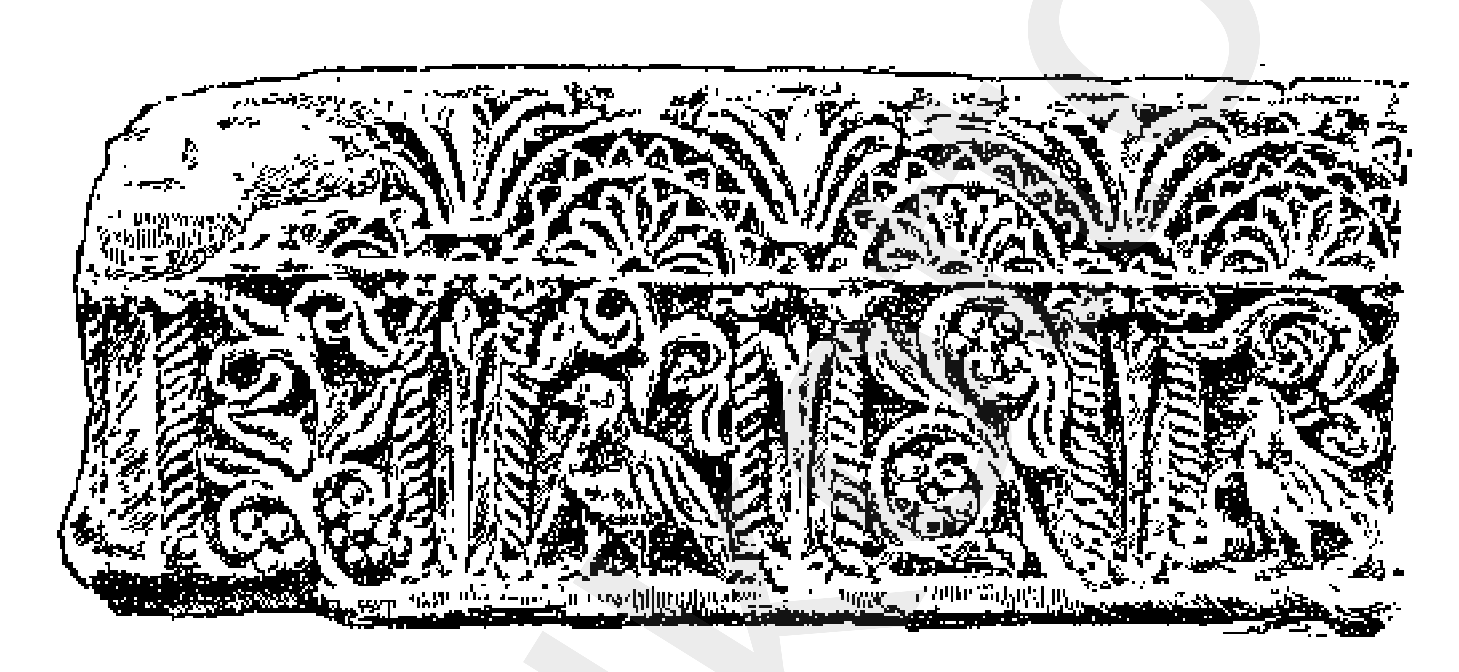
أما نظام بناء دير الكهف (الشكل الخامس) — فى الجنوب الشرقى من جبل حوران — فهو يشبه تماماً نظام جبل سيس والقصر الأبيض : مدخل واحد، مبان داخلية بامتداد جدران السور ، أبراج بارزة ذات زوايا فى الوسط والجوانب وقد نقش على أسكفة باب الدخول أسماء الأباطرة قونستانز ، كلوروجليريوس واسما القيصرين سفيروس ومكسمينيوس فى تاريخ تذكارى يرجع إلى مارس — أغسطس عام ٣٠٦ ميلادية .



شكل ٧ — قطعة من حائط عمودى لمدخل قصر الأبيض استخدمت من جديد فى البناء

وكانت قلعة الأزرق تشبه هذا التصميم قبل أن يعدلها المسلمون من العرب . لقد كان فيها هيكل مُهدًى إلى الإمبراطورين دقلديانوس ومكسميان ، وهذا يدل على أن القلعة قد وجدت فى أواخر القرن الثالث .

وإذا كانت كل هذه الحصون ترجع فى نظام بنائها إلى نوع واحد ، فإن القصر الأبيض يختلف عنها فى زخرفته . فباب الدخول محاط بنوع من الزينة كثير الانتشار فى الشام وخاصة فى حوران : أغصان كرم تطل من أوان والجزء الأعلى من أسكفة الباب مزين بإفريز من أوراق نبات شوك العقول ، والجزء الأسفل منها قد زين بمجموعة من الدوائر المتداخلة بعضها فى بعض ، وقد ظهر فيها عدد كبير من الحيوانات : طيور مختلفة ، خيل ، أبقار وحشية وسبع ، ثور ذو سنام . وربما وجد بينها الفيل والأسماك[١] أيضا . وبين إفريز أوراق العقول والدوائر المتداخلة يمتد غصن كرم ، ويتكرر نفس النقش فوق الحوائط العمودية ، التى قدمنا مثلا منها فى الشكل السابع ، وقد استخدم هذا النقش بعد ذلك داخل القلعة .



شكل ٨ — قطعة مزخرفة من قصر الأبيض

وهناك أسكفة باب آخر مزينة بالدوائر خير زينة بنفس الأسلوب ولكن لا توجد بها حيوانات . أما وسط هذه الدوائر فتشغله زينة لولبية ثلاثية الفصوص[٢]. ولنشر أيضا إلى قطعة مزينة من مقبرة ذات أعمدة صغيرة محدبة حلزونية (الشكل الثامن) . وقد رسم فى كل عقد حيوان أو زخرف من الأزهار .

وغرابة هذا الزخرف قد أشير إليها منذ زمن طويل ؛ والأثر الفارسى الزخرفى

---

(١) فيما يختص بالمجموع ، انظر دى ڤوجيه ، رقم ٢٤ .

(٢) نفس المرجع ، رقم ٢٤ ؛ ر . ديسو وفر . مكلر : رحلة أثرية فى الصفا ص ٤٢ ، شكل ٥ ؛ Von Mittelmeer Z. pers Golf : M. von Oppenheim ، مجلد ١ ، ص ٢٣٦ .

لا يُشك فيه إطلاقا ؛ وخاصة تلك القطعة الأخيرة التي وصفناها فإنها تضارع تماما فى زخرفها أثر عمان — فيلاديلفيا ، وإن كانت أقدم منها ، وهى التى أظهر فيها الأستاذ «ديولافوا» الاتجاهات الساسانية[1] . وكان المظنون قبل ذلك أنه يمكن تفسير خصائص القصر الأبيض بافتراض أن البناء يرجع إلى أمراء غسان الذين كلفوا من قبل الرومان بحكم العرب البدو ، الذين كانوا يختلفون إلى الشام ، وبمقاومة نفوذ المملكة العربية فى الحيرة . لقد عارضنا من قبل هذا الافتراض[2] ، ولكن بما أنه لا يزال مقبولا معترفا به فليس من العبث أن نؤكد ما سبق أن قلناه .

فالحرب الطويلة التى قام بها الرومانيون ضد الفرطيين (البرثيين) ثم بعد ذلك ضد الفرس ، كان لا بدلها من رد فعل فى صحراء الشام . والمؤرخون العرب قد احتفظوا بذكرى الحروب التى وقعت قبل الإسلام بين الغساسنة ، وهم رعايا الرومان ، وبين اللخميين فى الحيرة الذين كانوا رعايا الفرس .

وعلى مقربة من نهر الفرات أقيم معسكر صغير يسمى (حيرته) قد حل محل قلعة (حطره) التى بناها العرب ممن اعترفوا بسيادة الفرس . وقد أصبح هذا المعسكر بعد قليل مدينة هامة هى الحيرة (انظر الخريطة الأولى) . وبين أيدينا قائمة ملوك الحيرة الذين ترجع غالبيتهم إلى أسرة اللخميين . وسنورد فيما بعد تواريخ حكم أقدم هؤلاء الملوك .

وتاريخ منافسيهم من السوريين ، وهم الغساسنة ، غامض فى بدايته . وبحوث الأستاذ نولدكه قد دلتنا على أن أول أمير ، قطع بصحة حكمه من هذه الأسرة ، كان يدعى الحارث بن جبلة Ἀρέθας τοῦ Γαβάλα وقد انتصر على المندروس (المنذر) الحيرى فى أبريل عام ٥٢٨ ميلادية . وأما جبلة ، والد هذا الأمير ، فيبدو أن ثيوفان قد ذكره بمناسبة إغارة فى فلسطين عام ٥٠٠ ميلادية .

---

(١) ديولافوا : الفن الفارسى القديم ، مجلد ٥ ، ص ١٠٢ . ومن العجيب حقاً أن ينسب هذا الأثر القديم إلى زمن صلاح الدين كما يقترح الأستاذ شتريزيجوفسكى Strzygowski ؟ قارن Van Berchem فى مجلة العلماء ، عام ١٩٠٥ ، ص ٤٧٦ .

(٢) بعثة فى الأقطار الصحراوية من سوريا الوسطى ، ص ٧٧ — ٧٨ .

وأكثر من ذلك أن المصادر العربية تمدنا بأسماء الرؤساء الغسانيين ، لغرض واحد على ما يبدو لنا : هو أن تعمل قائمة مماثلة لقائمة اللخميين ؛ ذلك لأنه من المقرر — على الأرجح — أن الإمبراطور أنسطاس (٤٩١ — ٥١٨) هو الذى منح لأول مرة لقب « ملك » لأحد الغساسنة[١] ، وعلى هــذا فلا يصح أن ينسب إلى أمراء هذه الأسرة بناء قصر الأبيض ، قبل ذلك بقرنين .

ومما تجدر ملاحظته أن النص العربى فى النمارة ، المـكتوب بحروف نبطية فوق قبر امرىء القيس بن عمرو (الشكل التاسع) « ملك جميع العرب » عام ٣٢٨ ميلادية ، لا يشير إلى أمير غسانى . وبدلا من ذلك ، نجد ملـكا بنفس الاسم فى أسرة اللخميين بالحيرة خلال تلك الفترة من الزمن .

ومنذ البدء ، كان الأستاذ كليرمون جانو — الذى ندين له بمعرفة طبيعة هذا النص — يميل إلى الاعتقاد بأن هذا النص المـكتوب على القبر يرجع إلى ملك من ملوك الحيرة[٢] . والأستاذ العالم الذى ينتمى إلى الـكوليج دى فرانس ، قد قدم لنا أخيراً أدلة يبدو علينا أنها قاطعة . ولـكن ، لإدراك المناقشة ، لابد لنا من أن نورد النص الموجود الآن فى متحف اللوفر كما تعيننا دراسة جديدة على فهمه :

1. תי נפש מראלקיש בר עמרו מלך אל־ערב כלה דו אשר אל־תג
2. ומלך אל־אשדין ונזרו ומלוכהם והרב מדחגו עכדי ונא
3. בזגי (?) פי הכג נגרן מדינת שמר ומלך מעדו ונזל בניה
4. אל־שעוב ווכלה לפרש ולרום פלם יבלע מלך מבלעה
5. עכדי הלך שנת 200 + 20 + 3 יום 7 בכשלול בלשעד [ד]ו ולדה

١ — « هذا هو قبر امرىء القيس بن عمرو ، ملك جميع العرب ، ذلك الذى كلل بالتاج .

---

(١) تيوذور نولدكه Th. Noldeke : الأمراء الغساسنة Die Ghassânischen Fürsten ص ٩ وما بعدها .

(٢) عرف الأستاذ بيزر Peiser فى Orientalische Litteratur Zeitung ، مجلة الآداب الشرقية عام ١٩٠٣ ، ص ٢٧٧ — ٢٨١ ، بدوره ملـكا من ملوك الحيرة ، ولـكنه يذهب إلى أن المؤرخين العرب قد خلطوا فى الأنساب فنسبوا خطأً ملـكا غسانيا إلى أسرة اللخميين .

٢ — ذلك الذى أخضع (قبيلتى) أسد و (قبيلة) نزار وملوكها ، هذا الذى شتت شمل مذحج حتى يومنا هذا ، ونال

٣ — نجاحا (؟) فى حصار نجران ، بمدينة شمار ، ذلك الذى أخضع (قبيلة) معد ، ذلك الذى ولى أولاده

٤ — على القبائل وندبهم لدى الفرس والرومان . لم يصل ملك إلى مجده

٥ — حتى يومنا هذا . ومات عام ٢٢٣ فى السابع من كسلول . لتنعم ذريته بالسعادة ! » .

إن التاريخ ، الذى يحسب بعد زمن الولاية الرومانية فى الجزيرة العربية ، يوافق يوم ٧ من ديسمبر عام ٣٢٨ ميلادية . وأهم تعديل فى قراءة النص يرجع إلى الإشارة إلى الفرس[1] .

وامرؤ القيس بن عمرو يضيف إلى لقبه « ملك جميع العرب » صفة « الذى كلل بالتاج » . ويلاحظ الأستاذ كليرمون جانو أن ظهور كلمة « التاج » ، وهى كلمة معروفة تمام المعرفة فى البقاع الإيرانية ، ذو مغزى بعيد : فهى تدل على مظهر من مظاهر السلطان العربى الذى تأسس تحت الرعاية الفارسية[2] » .

وقد أظهر الأستاذ روتشتين ، فى بحثه عن أسرة اللخميين ، أن اصطلاح « ذا التاج » قد خصص تقريبا لملوك الحيرة . ولم يطلق إلا نادراً على الغسانيين ، والواقع أن هؤلاء لم يتسلموا التاج إلا عام ٥٨٠ كما يبرهن عليه حنا الأفسوسى Jean d'Ephèse[3] . وإذا كانت كلمة التاج فارسية ، فالوضع يكون فارسيا أيضاً .

---

(١) توجد القراءات المختلفة ملخصة ومناقشة فى Répertoire d'épigraphie sémitique سجل النقوش السامية رقم ٤٨٣ . وفى السطر الثانى بدلا من الكلمة غير المفهومة م هـ ج ، يظهر أن التصوير يبين لنا دالا قد ربطت بحاء ، وهذا يسمح لنا أن نقبل القراءة التى فكر فيها الأستاذ بيزر وهى : مذحج .

(٢) Clermont-Ganneau : Recueil d'archéologie orient. ، كليرمون جانو : مجموعة من الآثار الشرقية ، ٦ ، ص ٣٠٧ .

(٣) Clermont-Ganneau : Le tâdj-dâr Imoûl-Qais et la royauté Générale des Arabes ، فى المرجع السابق ، ٧ ، ص ١٦٧ — ١٧٠ .

ويقول الأستاذ روثشتين : « إن العرب قد عرفوا التاج عند الفرس فحسب ، وربما كان ذلك عن طريق اللخميين[1] » .

ويجب أن نخلص من هذا بأن ملكا عربيا ذكر عام ٣٢٨ ميلادية قد كلل رأسه بالتاج ، لا يمكن أن يكون قد تسلم تاجه إلا من الفرس . وعلى هذا فامرؤ القيس بن عمرو قد استمد سلطانه من ملك الفرس ؟ ويجب علينا أن نجزم بأنه ملك الحيرة الذى يسمى بهذا الاسم .

ونخرج من هـذا إلى أن ذكر الفرس فى نصنا يصبح أمرا طبيعيا . ولكن ينتج منه أيضاً أن الحالة السياسية فى بادية الشام فى القرن الرابع الميلادى يجب أن نواجه فى ضوء جديد من البحث :

فأولا ، نرى أن تاريخ ملوك الحيرة قد اكتسب من ذلك نقطة ثابتة هامة ، بعد أن كدنا نقنط من تحديده بالنسبة للفترة القديمة . فرواية الطبرى التى تقول بأن عمرو — أول ملوك الأسرة — قد حكم ١١٨ سنة وكانت مدة حكم ابنه[2] امرىء القيس ١١٤ سنة ، رواية غير مقبولة ما فى ذلك شك . غير أن المعلومات التى نستقيها من الطبرى صحيحة فى مجموعها . إذ الواقع أن الطبرى يجعل مدة ولاية أربعة ممن خلفوا امرأ القيس بن عمرو تسعين عاماً ، وهـذه الفترة تسد الفراغ الزمنى تماما بين التاريخين ٣٢٨ — تاريخ وفاة امرىء القيس ، كما يحدده لنا الرثاء المنقوش على القبر الذى يوجد فى النمارة — وبين سنة ٤١٨ — تاريخ وفاة النعمان الأول ، رابع ملك خلف امرأ القيس بن عمرو[3] — وهو تاريخ حقيقى يزيد أو ينقص سنتين أو ثلاث سنوات .

---

(١) رتشتين Rothstein : Die Dynastie der Lahmiden in al-Hira « دولة اللخميين فى الحيرة » ، ص ١٢٩ .

(٢) Rothstein : نفس المرجع ، ص ٥٢ وما يليها .

(٣) وعلى هذا يمكن تأريخ عهد الملوك الأول للحيرة على الوجه التالى :

١ — عمرو الأول بن عدى : ؟

٢ — امرؤ القيس الأول بن عمرو : ؟ — ٣٢٨ .

٣ — عمرو الثانى بن امرىء القيس : ٣٢٨ — ٣٥٨ .

كان امرؤ القيس ملكا لجميع العرب . وهذا يدفعنا إلى أن ندرك أن سلطانه كان يمتد على جميع عرب الحيرة كما امتدّ على القبائل المقيمة على تخوم الشام . والقبائل التي أخضعها هي : أسد ونزار ومذحج ومعد ، وكانت أقوى القبائل في بادية الشام وشمال جزيرة العرب . وهذا الرئيس السعيد يبدو أنه قد حارب شمر يورعش صاحب نجران في جنوب البلاد العربية . والقبر الذي أقيم لامرئ القيس في النمارة في إقليم روماني والرثاء الذي كتب بحروف نبطية في لغة عربية ، والذي يرجع تاريخه إلى عهد الولاية الرومانية في البلاد العربية ، يكفيان لتأييد اعتراف الرومان بسلطان امرئ القيس ، وإن كان النص لا يقطع بهذا تماماً .



شكل ٩ — قبر مهدم لملك جميع العرب ، امرئ القيس ابن عمرو بالقرب من النمارة

إن مركز ملك جميع العرب ، الذي يستمد سلطانه من ملوك الفرس ولكنه

= ٤ — أوس بن قلاّم : ٣٥٨ — ٣٦٣ .
٥ — امرؤ القيس الثاني : ٣٦٣ — ٣٨٨ .
٦ — النعمان الأول بن امرئ القيس : ٣٨٨ — ٤١٨ .
أما باقي الملوك فكما وردت أسماؤهم وتواريخهم في روتشتين ، ص ٦٩ وما يليها .

فى نفس الوقت حليف لروما ، لما يبعث على العجب وفقا لفكرتنا البسيطة عن العلاقات بين الشعوب ؟ ولـكنه يتفق تماما مع تلك السياسة المتأرجحة للشرقيين ومع المركز الخاص للعرب الرحل فى بادية الشام . وعرب الحطرة ، وهو مكان حصين فى صحراء الجزيرة مابين دجلة والفرات ، قد قاموا من قبل بنفس الدور : كانوا يقعون بين الرومان والفرطيين ثم بين الرومان والفرس ولـكنهم عرفوا كيف يحافظون على استقلالهم من أن يعتدى عليه أولئك أو هؤلاء . وقد يدفعنا الظن إلى القول بأن إنشاء الحيرة يرجع إلى ترك حطره لأن موقعها فى الشمال جعل من العسير على العرب الدفاع عنها .

وإذا صح أن الحكومة الـكسروية كانت متفقة مع ملوك الحيرة فى أن يرعوا النظام على الحدود السورية قبل تولى ملوك الغسانيين للحكم ، فإننا لن نلقى أية صعوبة فى إدراك التأثير الفارسى الذى ينم عنه زخرف القصر الأبيض . ومع ذلك فليس هذا هو الوضع الوحيد الذى يكشف عن هذا التأثير .

* * *

وفى جنوب خط الحصون الذى يمتد من جبل سيس إلى قلعة الأزرق ، نجد خطا آخر من المراكز المحصنة ولـكنه أكثر ميلا إلى جهة الغرب (الشكل العاشر) . ونحن نعلم من Notitia Dignitatum (قائمة الوظائف) أنه فى أول القرن الخامس كان للمقاطعة العربية جيشان : أحدهما ، جيش برقة الثالث ، وكان يعسكر فى بصرى التى كانت عاصمة الإقليم . وكانت حصون القصر الأبيض والنمارة ودير الـكهف وقلعة الأزرق تتبع القيادة الحربية فى بصرى . وأما الجيش الآخر ، جيش مارتيا Martia الرابع ، فكان يعسكر فى «اللجون» فى شرق الأردن ، وكانت تتبعه الحصون الممتدة من عمان حتى الحجاز ، وهى الحصون التى كانت تحمى الحدود الحضرية .

وفيما عدا اللجون التى تأثرت خاصة بالحصون الرومانية ذات المساحة الشاسعة ، فإننا نرى قلاع هذا الإقليم تنطبق عليها أوصاف النوع الذى تحدثنا عنه من قبل ، على أن واحداً منها يتميز خاصة بالنهج الذى بنى به وبخصائص البناء ، ثم بما فيه من زخرف على وجه خاص . ونحن نريد أن نتحدث عن ذلك الأثر الذى وجد فى المشتى

وكان تريستام Tristam أول من تحدث عنه فى كتابه « أرض مؤاب »[١] The Land of Moab والذى نسبه فرجسون Fergusson إلى الفرس الساسانيين فى الفصل الذى تحدث فيه عن خصائص هذا الأثر .

وبعد ذلك كله فكر فى نسبته إلى الغساسنة . وهذا الفرض هو الذى يلقى اليوم تأييداً ؛ فقد اقتنع به خاصة : الأساتذة ماكس فان برخم وشترزيجوفسكى وبرونوف .

على أن الأستاذ ديولافوا Dieulafoy فى المجلد الخامس من كتابه « الفن القديم فى فارس » قد رجع إلى رأى فرجسون الذى يقول بأن قصر المشتى بناه خسرو الثانى حينما كان الفرس يحتلون الشام من سنة ٦١١ إلى سنة ٦٢٣ .

وقد حصلت بروسيا أخيراً من الحكومة العثمانية على منحة نادرة هى أن تنقل جزءاً من واجهة قصر المشتى حجراً حجراً لتقيمه فى المتحف الجديد للقيصر فردريك ببرلين ، وقد أصبح موضع إعجاب الزائرين منذ شهر أكتوبر من عام ١٩٠٤ . وفى نفس الوقت ، نشرت إدارة المتاحف البروسية بحثا هاما يشمل تقريراً كتبه الأستاذ برونو شولز المهندس المعمارى الذى كلف نقل الأحجار ، ودراسة عميقة للأستاذ جوزيف شترزيجوفسكى الأستاذ العالم بجامعة جراز[٢] .

وبعد ذلك بقليل ، عرض الأستاذ برينوف فى الجزء الثانى من كتابه « الأقاليم العربية » Provincia Arabia نتائج دراساته عن المشتى التى قام بها فى موضع البناء نفسه قبل أن ينقل إلى برلين .

أما الأستاذ شولتس فقد توصل إلى إعادة رسم البناء واستخلص منه أن المشتى كانت قلعة روعى فى بنائها أن تكون صالحة لإقامة فرقة من الجيش قسمت إلى عشرة أقسام . على أن البناء ظل غير كامل ، وعلى هذا فهنالك شكوك تحوم حول إعادة بناء

---

(١) مؤاب : مدينة فى طرف الشام من نواحى البلقاء . فتحت بعد بصرى سنة ١٣ هـ . وقيل إنها فتحت قبل بصرى ، فتحها أبو عبيدة بن الجراح . وينسب إليها نوع من الخمر كما يذكر ياقوت . (المعرب)

(٢) Bruno Schulz et Josef Strzygowski, Mschatta dans Jahrbuch der K. pr. Kunstsammlungen, 1904, p. 205-373 : برونو شولتس وجوزيف شترزيجوفسكى : المشتى فى الكتاب السنوى لمجموعات الوثائق الفنية الذى تصدره الأكاديمية الملكية البروسية ، عام ١٩٠٤ ، ص ٢٠٥ إلى ص ٣٧٣ .

الأجزاء الجانبية بطريقة تنسجم تماما مع البناء . ومن ناحية أخرى فإن الأستاذ بريفوف يلاحظ أن الواجهة التى جددت مرتفعة أكثر مما ينبغى أن تكون عليه .

على أن الأستاذ شترزيجوفسكى يتخلى عن زميله ليأخذ من جديد بالرأى القائل بأن المشق كان قصراً ويدعم قوله بحجج تؤيده .



شكل ١٠ - أشهر حصون حدود سوريا

والواقع أنه إذا كان السور الخارجى للمشق يضاهى الحصون الرومانية القائمة فى الشام ، فإن داخله ، وإن كان ينطوى مثلها على فناء يتوسطه ، يمتاز بخصائص هامة : ففى أبعد موضع من الفناء تقوم غرفة كبرى ذات ثلاث مقصورات ، تنتهى ببناء على شكل عقد مثلث الأركان تغطيه قبة . وقد برهن الأستاذ شترزيجوفسكى على أن

هذا الوضع المثلث الجوانب خاص بالقصور . إذ نجد هذا الطابع فى القصر الذى أقامه دقلديانوس Dioclétien فى سپالاتو بدلماشيا والذى أقام فيه بعد نزوله عن العرش عام ٣٠٥ . ومن المعروف أن دقلديانوس قد قضى معظم حياته فى الشرق ؛ وكان يحب من الشرق « المظاهر المنطوية على الزهو والعبودية[١] » . وقد بنى قصر سپالاتو معماريون شرقيون وحتى العمال كانوا من الشرق . ويعد هذا القصر خير مثل للتأثير الشرقى وخاصة الشامى ، ذلك التأثير الذى أحدثته مدرسة أنطاكية فى تكوين العمارة البيزنطية التى افتتحها بالتحديد قصر سپالاتو .

وهذا الرأى الذى يعد على جانب كبير من الصواب ، والذى أخذ به منذ الاكتشافات التى قام بها الأستاذ دى ڤوجيه فى الشام ، قد توسع فيه الأستاذ شترزيجوڤسكى حتى إنه ليذهب إلى استبعاد كل تأثير غربى أعنى رومانى فى ازدهار الفن البيزنطى الذى يقوم على أسس يونانية فحسب ، كما برهن على ذلك الأستاذ أجنالوف . ونحن لا نستطيع أن نعرض إلا للنظرية فحسب ، أما مناقشتها فلا تدخل فى اختصاصنا . ويجب علينا أن نشير مع ذلك إلى أن الأستاذ جبريل مييه فى دراساته القيمة « تاريخ الفن[٢] » قد ضم شتات هذه النظرية وأيد العناصر المكونة لها .

ويكفينا أن نتبين أنه فى زمن الإمبراطورية ، كان الشكل السائد فى القصور خاصه (ميلان تريف وكولونيا) هو الشكل الثلاثى المستدير . وحتى فى القرن التاسع ، أقيمت فى بيزنطه حجرة للعرش على هذا النمط . والإقبال على هذا النوع المعمارى قد جعله يؤخذ به فى بناء بعض الكنائس مثل كنيسة بيت لحم التى أقيمت زمن قسطنطين . ونجده أيضاً فى بعض الأديرة المصرية .

وفى الشام ، وخاصة فى حوران ، لم يكن هذا النمط الثلاثى المستدير مجهولا . ويذكر نقش يونانى مسيحى يرجع تاريخه إلى سنة ٤٨٨ ميلادية ، بناء τρίκονχον σῖγμα وقد وجد هذا النص فى بصرى[٣] .

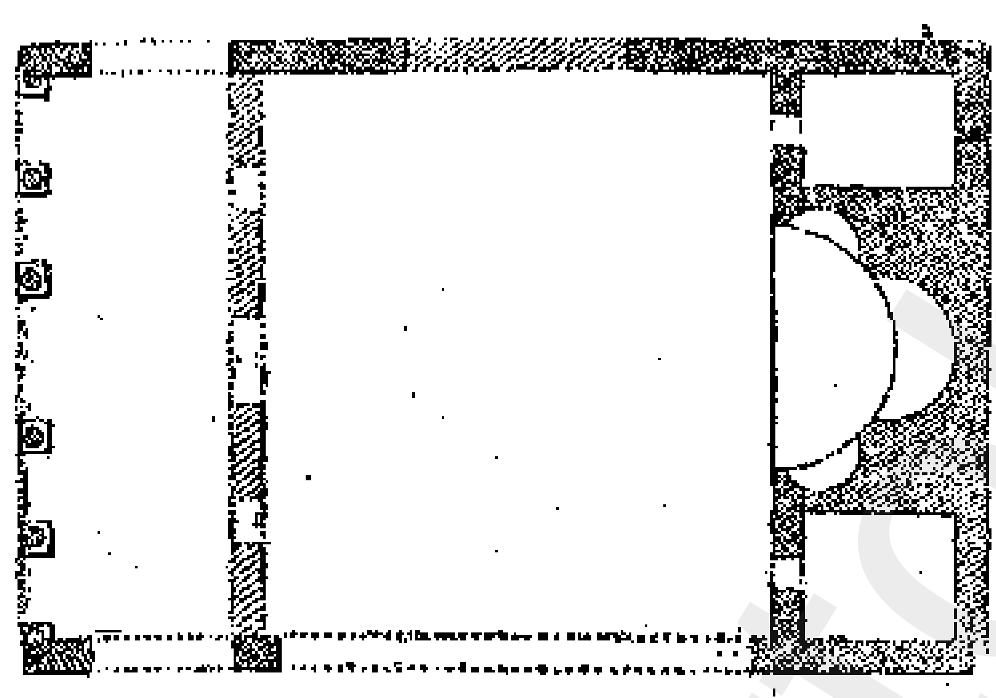
---

(١) شارل ديل : فى البحر المتوسط ، ص ٢٤ . Ch. Diehl : En Méditerranée, p. 24

(٢) نشره أرمان كولان تحت إشراف الأستاذ أندريه ميشيل .

(٣) ودنجتون : نصوص إغريقية ولاتينية فى الشام ، رقم ١٩١٣ ؛ وقارن كليرمون جانو : مجموعة العمارة الشرقية ، رقم ٢ ص ١٠١ وانظر Schumacher : Zeitschrift des deutschen Palästina - Vereins ، « شوماخر : مجلة الجمعية الألمانية لفلسطين » ١٨٩٧ ، ص ١٤٨ — ١٤٩ .

ويقول ودنجتون فى تعليقه على هـذا النص أن τρίκογχον σίγμα عبارة عن بناء أو رواق نصف دائرى على شكل C ومزين بثلاث « كونخاى » κόγχαι أو طاقات توضع فيها تماثيل . والكونخاى يرد ذكرها غالبا فى نقوش هوُوران ، ولا تزال توجد بها عدة « كونخاى » (وهى عبارة عن طاقات تتخذ فى سمك جدران المبانى ، أعلاها يشبه غلافا مضلعاً للمحارة) .



الجزء القديم
الجزء الذى أعيد بناؤه
شكل ١١ — محاولة لإعادة بناء محكمة كناثا

هذا الوصف للشكل الثلاثى المستدير يجب أن يؤيد بمثل من الأمثلة الخطية . ويرى الأستاذ شترزيجوفسكى ، الذى لم يفته نص بصرى ، أن السين اليونانية ذات الدوائر الثلاثية كانت تماثل الشكل الثلاثى المستدير فى المشتى ، إذ يوجد هنا وهناك باب مستدير ، مثل باب « برنان » أمام كنيسة القديس بطرس بروما . غير أن هذا قد تضمن سينا يونانية وشكلا ثلاثيا مستديرا ، لا سينا ثلاثية الدوائر ، مثله فى هذا مثل العمارة فى بيزنطة .

ويمكن أن نفكر فى حل أيسر من هذا ، نستعيره من أطلال بناء كناثا ، تلك المدينة القديمة التى كانت توجد بجبل حوران[1] ، وهو بناء يخيل إلينا أنه كان يستخدم أول أمره دارا للقضاء والإدارة لأن به شبها بدار القضاء فى « مسميه » . وقد حاولنا أن نعيد تخطيط هذا البناء بناء على النموذج الذى تقدمه لنا تلك الدار الأخيرة (انظر شكل ١١) . فنحن نرى إذن أن السين الإغريقية الثلاثية الدوائر

(١) دى فوجيه : سوريا الوسطى ، فن العمارة ، ص ١٩ .

كانت عقداً فى البناء به ثلاث طاقات . وهذا ما يوجد تماماً بقصر المشتى ، لأن الشكل المثلث يوجد فى أقصى غرفة مستطيلة واسعة ، وربما كانت ذات مقصورات ثلاث .

ويمكن أن نتصور أن هذا الشكل الثلاثى المستدير الذى يوجد تحت القبة فى البناء ، كان نتيجة خيال سورى ، ولكن ليس من المحتمل أن نرجعه إلى أثر قصر بيت سليمان . ولا نستطيع أن نتابع الأستاذ شترزيجوفسكى حين يفترض أن المشتى امتداد للتقليد القديم ويرجع فى أسلوبه المعمارى إلى قصر بيت المقدس كما يرجع سيلاتو إلى أنطاكية[1]. وسور المشتى مبنى بالأحجار ، وطابع البناء هو بالضبط الطابع الذى أقيمت عليه الحصون الرومانية فى ذلك الإقليم . فالوجهة قد زينت فى الموضعين بمجموعة من النقوش يذكرنا تصميمها ، بمجرد النظر إليها ، بالأجزاء المنقوشة فى القصر الأبيض . ففى هذين الأثرين ، كان النقش منصباً إلى الباب العام للدخول ، غير أنهم عمدوا فى المشتى إلى نوع من الترف لم يكن معروفا من قبل ؛ وسنتحدث عنه بعد قليل .

أما فى الداخل ، فإن أسفل الجدران ورءوس العواميد والركائز قد بنيت جميعها بالحجارة ؛ وبنيت الأجزاء الأخرى من الجدران والقباب بالآجر .

وفى سوريا ، نجد أن الأحجار هى أكثر مواد البناء استعمالا . وهذا الاستعمال يعطى فن العمارة فى سوريا طابعه المميز . ومن هنا نرى أن المنازل والكنائس التى بنيت فى سوريا العليا قبل الفتح الإسلامى فى القرن السابع الميلادى قد بنيت جميعها بالأحجار . وكان السقف وحده هو الذى يصنع من الخشب . وفى حوران ، كانت كل مواد البناء من الأحجار . أما السقف فكان يعمل من بلاط طويل من البازلت يتصل بعضها ببعض فى دقة كبيرة ، ثم توضع فوق عقود من الحجارة أو فوق مساند داخلة فى الجدران . وعلى هذا ، فاستعمال الآجر فى بناء المشتى لم يكن متوقعاً ، ويخالف طرق البناء فى الأقطار الحضرية المجاورة .

---

(١) شترزيجوفسكى : l. c ، ص ١٣١ .

وأنطاكية Antioche : مدينة ببلاد الشام ، لها شهرة عظيمة فى الحروب الصليبية ؛ ولم تكن تقل أهمية عن دمشق . تقع على نهر العاصى (l'Oronte) . وينسب إليها بطارقة الكنائس الشرقية . (المعرب)

واستعمال الآجر فى البناء نجده فى الجهات الشمالية ، ولكننا نجده أيضا فى بادية الشام فى أندرين (بناء يرجع تاريخه إلى مايو سنة ٥٥٨) وفى قصر ابن وردان . وقد قال الأستاذ دى فوجيه أنه يوجد بجبل سيس . ويذهب الأستاذ شترزيجوفسكى إلى أن المشرفين على بناء أندرين وقصر ابن وردان هم الذين كانوا قد استدعوا عمالهم من قصر أنطاكية ، بينما المشرفون على بناء قصر المشتى قد عملوا بعد ذلك فى أعالى مابين النهرين بالعراق . وهذا الفرض يعتمد فحسب على حجم الآجر الذى يختلف من جهة لأخرى . على أننا نرى من ناحية أخرى أن بناء الجدران بالحجارة فى قصر ابن وردان والقصر الأبيض والمشتى يدل على خاصية تؤيد وحدة التقاليد . ففى هذه الأماكن الثلاثة ، كانت تقام الجدران بواسطة وجهتين من الأحجار ، كان بعضها يمتد من وجهة إلى أخرى لتكون بمثابة رباط للمبانى . أما الفراغ الذى يوجد بين الوجهتين فكان يملأ بالحجارة والملاط .

وعلى هذا ففى استطاعتنا أن نتساءل عما إذا كان استعمال الآجر فى التخوم الصحراوية للشام ليس تقليداً جرى عليه سكان البادية ، بل هو تقليد أخذوه دون ريب عن سكان الجزيرة (مابين النهرين) الذين كانوا يستعملون تلك الطريقة فى البناء . ففى القصر الأبيض ، كان الأثر الفارسى — الذى نقله العرب عنهم — لايظهر إلا فى النقش ؛ أما هنا فإن هذا الأثر يظهر بجلاء حتى فى طرق البناء .

ومن المفيد أن نلاحظ أن كلمة آجر كانت كثيرة الشيوع عند شعراء العرب الجاهليين . غير أنها كلمة فارسية أو على الأصح كلمة جزيرية ما دامت هى الكلمة الأشورية أجُرُّ[1] .

وهذه الروابط الفارسية من حيث البناء بالآجر قد أخذ بها فى قصر المشتى منذ البداية ؛ على أنها تقوى وتتأيد فى العقد المثنى للقباب . وهذا الطابع ليس رومانيا ولا إغريقيا ، بل هو طابع شرقى يرجع إلى عهد سحيق . وقد دخل فن العمارة البيزنطى منذ وقت بعيد ، غير أن الفن العربى هو الذى اصطفاه بوجه خاص .

---

(١) Rhodokanaki, Wiener Zeitschrif für Kunde d. Morgenlandes, 1905, p. 291 et s. رو دوكنكى : مجلة فينا للفن الشرقى ، عام ١٩٠٥ ، ص ٢٩١ وما يليها .

وهذا يدل على مقدار العلاقات التي تربط الفن العربي بالفن الفارسي .

ويلاحظ الأستاذ شترزيجوفسكي أن العقد المنحنى الذي أخذ به في مصر عند إقامة مقياس النيل بالروضة من النوع الذي استعمل في المشتى ، وهذا المقياس يرجع إلى القرن الأول الهجري ؛ وهي ملاحظة لها قيمتها . وكذلك نرى أن العقد المنحنى في مسجد أحمد بن طولون ، الذي شيد في القرن التاسع الميلادي ، ترجعه نظرية ، ليس لها أساس علمي صحيح ، إلى تأثير الفن القبطي ؛ فأهملت بهذا شهادة القضاعي الذي عرفنا منه أن هذا المسجد أقيم على نمط مسجد سامرا بالجزيرة[1] .

وهناك ظاهرة أخرى تذكرنا بالعادات الجزرية ، هي أن الحجارة المستعملة في بناء قباب قصر المشتى قد وضعت قطعاً عمودية كما هو الحال في قناة خورسآباد تباكي كسرى في المدائن[2] .

ونحن نعلم أن هذه الطريقة تتيح إقامة القبة دون الالتجاء إلى قالب ينسق البناء .

والحصون الصغيرة الرومانية بالشام لم يكن بها كما رأينا إلا باب واحد للدخول يوصل إلى فناء وسط الحصن ، أقيمت حوله المباني المستندة إلى جدار السور . وقد أخذ بهذا الوضع دون ريب وفقا للعادات الشرقية . وعلى هذا فقصر شيرين — الذي سمى باسم إحدى زوجات خسرو الثاني — أمد الأستاذ شترزيجوفسكي بمقارنة مفيدة . فمن المحقق أن هذا القصر المحصن قد أبقى على تقاليد قديمة حتى نهاية القرن

---

(١) شترزيجوفسكي : c ، ص ٢٤٦ وما يليها . وبعد ذلك في زمن الفاطميين : أخذت العمارة الإسلامية نوعا من العقد المنحنى ذا طابع مخالف لذلك تمام المخالفة ولكنه كان معروفا في فارس .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٤٧ .

والمدائن : هي مدائن كسرى ، وكانت قاعدة مملكة الفرس حتى الفتح الإسلامي . تعرف عند اليونان باسم Ctesiphone أو Ktesibhone ، فاشتق العرب اسم طيسفون على الشاطىء الأيسر من نهر دجلة . وأطلالها على بعد ستة وعشرين كيلو مترا جنوبي بغداد . وتوجد بها أطلال إيوان كسرى أنوشروان حتى الآن . وبجانبها بالشاطىء الأيمن أطلال مدينة سلوقية Seleucie التي كانت عاصمة مملكة السلوقيين ومن جاء بعدهم من الفرطيين Parthes . فتح المدائن سعد بن أبي وقاص عام ١٦ هـ .

والمدائن أيضاً قرية من قرى حلب . (المعرب)

السادس . ومع ذلك فلا يوجد إطلاقا لا فى فارس ولا فى الجزيرة العنصران المميزان لبناء المشتى ، وقد اتحدا فيه اتحاداً كبيراً وهما : البهو والمقاصير الثلاث الدقيقة التى تنتهى بالزخارف المستديرة . ومن ناحية أخرى ، نرى أن هـذا الطراز المعمارى كان منتشراً انتشاراً كبيراً خلال القرنين الرابع والخامس فى جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية[1] . وربما كان اختراع هذا الطراز سوريًا خالصاً ، غير أن هذا الفرض لا يزال يفتقر إلى الدليل القاطع .

* * *

وإذا انتقلنا إلى زخرف الوجهة ، الذى نقل حديثا إلى برلين ، فإننا نجد أيضاً أن فارس تقدم لنا العناصر الأساسية للمقارنة .

فهناك مجموعة من المثلثات المزخرفة البارزة ، نقش على أحجارها زخرف لا نعجب إذا رأيناه على بساط فارسى ، كما كان العرب ينقشون على الخشب (انظر شكل ١٢) . وأغصان الكرم ذات الفروع الدقيقة تتدلى من إناء ، وقد صورت فيها مجموعة كبيرة من الحيوانات ، بعضها حيوانات خرافية .

وقد استغلت كل الفنون التعاريج ؛ ولكن الفن الفارسى هو الذى يستعملها جزءاً مكملا لوجهات المبانى . وقد أوضح الأستاذ ديولفوا هذه النقطة واستنتج أن قصر المشتى يرجع إلى أصل ساسانى[2] .

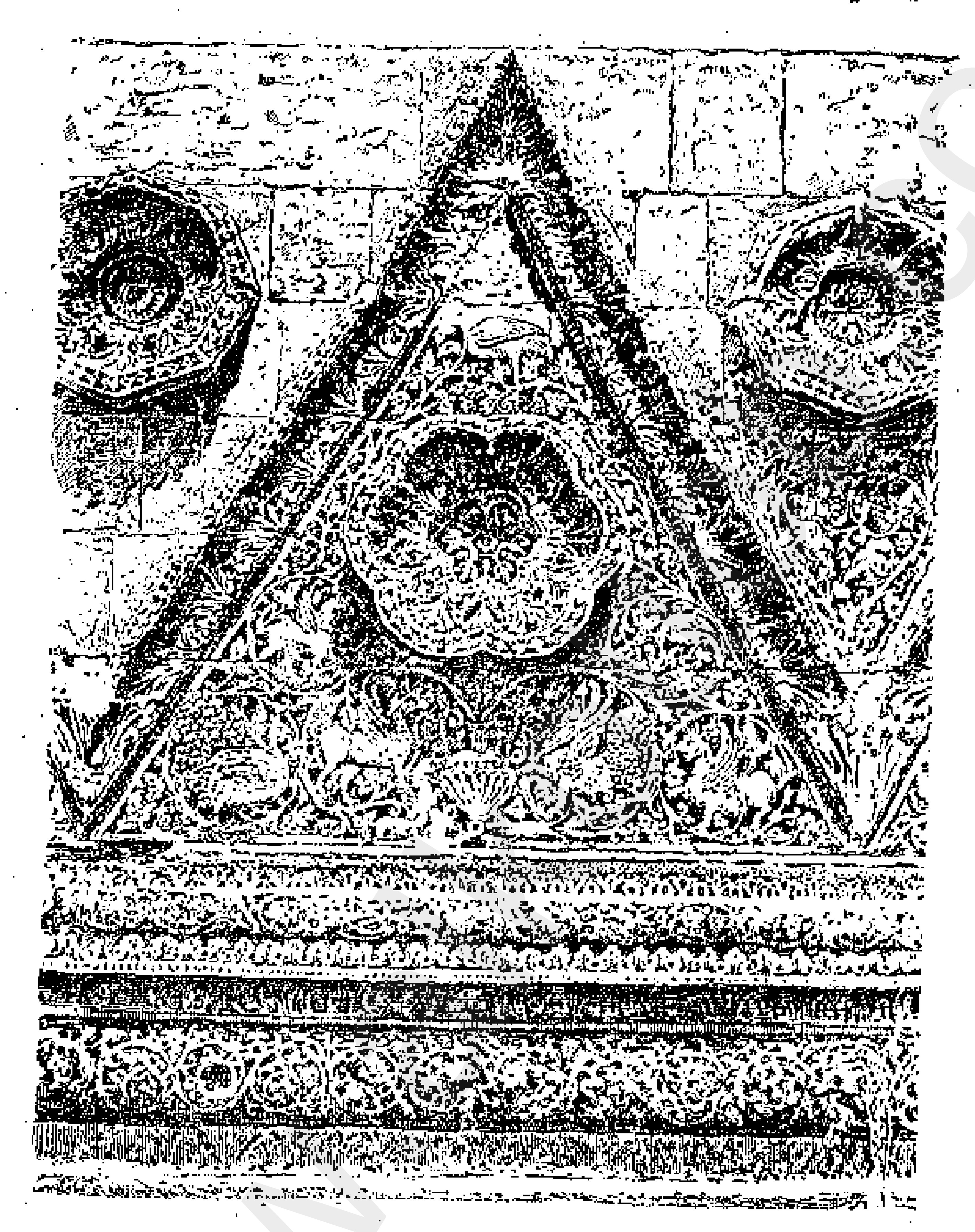
ويذهب الأستاذ شترزيجوفسكى إلى المغالاة فى مدى انتشار هذا النوع الزخرفى ، غير أنه سرعان ما ينسى أن استعمال المنحنيات وحده فى الوجهات هو الذى يميز الطابع الفارسى ، ثم يدخل فى تقديره العاج ولوحة برونزية وتيجان العواميد التى لا يمكن المقارنة بينها . كما أنه يعدضمن المنحنيات كل نقش على شكل معين أو شبكى الصورة . وعلى هذا ، فنستطيع إذن أن نقرب من المشتى الآثار الشامية التى وجدت قبل جميع الأمثلة المعمارية فى شمال الجزيرة أو فى فارس ، تلك التى يعتمد عليها هذا الأستاذ العالم .

---

(١) شترزيجوفسكى : ج ١ ص ٢٤٨ .

(٢) ديولفوا : الفن القديم فى فارس ، ج ٥ ، ص ٩٣ .

وهذه المثل المعمارية هي : الهيكل النبطي في عبره[١] وأطلال كنائه وزخرف ، على شكل المعين الهندسي أو رسوم وردية التنسيق بمدينة السويداء[٢] .



شكل ١٢ — إطار مزخرف محفور على واجهة قصر المشتى

والمقارنات الدقيقة التي التي يعقدها الأستاذ شترزيجوفسكي بين النقوش الوردية البارزة والزخارف المنقوشة والحلى ذات أغصان الكرم ، تدل على مهارة بارعة

(١) اونهايم : Vom Mittelm. Z. pers. Golf ، ج ١ ، ص ٩٧ .

(٢) دي فوجيه : o.c. ، اللوحة رقم ٢٠ .

وعلم غزير . وإذا كانت الأدلة التى يسوقها الأستاذ تناقش بعض الأحيان ، فما ذلك إلا لأنه فى دراسته لقصر المشتى قد استند إلى المذهب القائل بأن أصل المشتى ليس شرقيا فحسب ، ولكنه يرجع أيضاً إلى الفن البيزنطى الذى كان يوجد بشمال الجزيرة . وهذا يرجع خاصة إلى الآثار القليلة العدد التى تستطيع حتى الآن أن تدلنا على بعض هذا التضارب .

وبعد ، فهل أصبح فى استطاعتنا الآن أن نعرف أصل هذه الزخارف ذات أغصان الكرم التى نقشت على وجهة المشتى بطريقة تدل على تطور بارع ؟ تؤكد المعلومات أن الزخارف ذات أغصان الكرم التى توجد على التوابيت فى مدينة صيداء[١] ترجع إلى أصل إيرانى . ولبيان استعمال هذه الزخارف فى إيران فى الزمن القديم ، فإنهم يعتمدون على أمثلة ترجع إلى عصر متأخر عن عصر استعمال التوابيت ، بل ربما ترجع إلى عهد أقرب من ذلك كثيراً . وهذه الأمثلة عبارة عن مرآتين صينيتين لايعرف تاريخهما على وجه التحديد وإن كانوا يرجعونهما إلى القرن الأول قبل الميلاد[٢] . ومع ذلك فهناك مرايا مثل هاتين المرآتين تماماً عليها نقوش عربية[٣] .

ويعلق الأستاذ شترزيجوفسكى أهمية كبيرة على عدم وجود كيزان الصنوبر فى الزخارف ذات الورود فى كل تلك المبانى الكثيرة العدد ذات الصبغة المسيحية فى سوريا والتى ترجع إلى ماقبل الإسلام . وهذا الأمر ، الذى يراه الأستاذ شترزيجوفسكى كبير الأهمية ويستنتج منه أن فن المشتى يعتمد على غير الفن السورى[٤] ، لأنه يتضمن عدة كيزان من الصنوبر فى الزخارف ذات الورود ، ويمكن الاعتراض على هذا بأن

---

(١) صيداء : Sidon إحدى مدن فينيقية القديمة . كان لها فى القرن السابع عشر إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد شهرة عظيمة فى التجارة والحضارة وتفوق كبير فى الملاحة . ولما انتقلت السيادة إلى جارتها مدينة صور احتفظت بمركزها ، فبقيت عاصمة مملكة كنعان . فتحها المسلمون فى خلافة عمر بن الخطاب عام ٦٣٨ م . (المعرب)

(٢) دى فوجه : اللوحة رقم ٤ .

(٣) شترزيجوفسكى : l. c ص ٣٢٨ — ٣٢٩ (٤) رينو : الآثار العربية ، ج ٢ ص ٢٩٧ ، اللوحة ، ٩ وقارن لونجبرييه : المرآة العربية ذات الرموز فى Oeuvres ج ١ ص ٣٩٤ — ٣٩٧ .

(٤) شترزيجوفسكى : l. c. ص ٢٩٥ — ٢٩٦ .

كوز الصنوبر ، وقد تدخل فى نقش ذى ورود ، قد عثر عليه الأستاذ دى ڤوجيه فى حوران[1]. ولكن ينبغى لنا أن نعترف بأن هذا المثل الوحيد لايدل إلا على ندرة هذه الزخرفة . والاعتراض الحقيقى الذى يمكن أن يقدم فى هذا الصدد ، هو أن الأستاذ شترزيجوڤسكى يبدو أنه قد استخف بطبيعة ذلك العصر الذى يصفه بأنه عصر « كوز صنوبر » والذى لم يكن متوقعا أن نجده فى كرمة . وهذا الامتهان قد جره إلى الاستخفاف بشأن النحات ، وبطريقته فى النحت . ويجب علينا أن نضيف إلى ذلك أن استعمال التخاريم الحجرية مع كثرته ينطوى على عمق كبير .

وسنرى بعد قليل أن الأستاذ كليرمون جانو قد تعرف ، فى الألواح التى توجد فى أقصى الجهة اليمنى على رسم كرمة مزهرة . وبالتأمل فى هذا الرسم ، اقتنعنا بأن كوز الصنوبر المزعوم ماهو إلا زهرة من زهور الكرمة قد نقشت حيثما اتفق . ويتبدد الشك حينما نلاحظ أنه فى كل جانب من جوانب النقش الذى نتحدث عنه ، تبدو رسوم حلزونية الشكل لايمكن أن تشبه إلا محاليق[2] الكرم .

وعلى الجملة فقد أراد الأستاذ شترزيجوڤسكى أن ينتزع المشتى تماما من كل تأثير سورى . ونعتقد أننا أوضحنا بضرب بعض الأمثلة أن براهينه ليست قاطعة . وهذا الأثر العجيب فى رأيه ليس متأثرا بالفن الفارسى وحده ولا بالفن السورى قليلا ، ولكنه متأثر بما يسميه بفن شمال الجزيرة . وهو يرمى من وراء هذه التسمية إلى فن إغريقى قد تشبع بعناصر فارسية وجد بمدينة سلوقية[3] على نهر دجلة وهى المدينة التى كانت مركزاً كبيراً للفن . ومن سلوقية ، انتشر هذا الفن وتحول فى شمال الجزيرة فى آيد ونصيبين والرها . ومن سوء الحظ أن فن شمال الجزيرة لايزال حتى الآن مجرد زعم . والآثار القليلة التى يمكن أن تلحق بهذا الفن لم نتبين بعد

---

(١) دى ڤوجيه : l. c. ، اللوحتان ١٣ ، ٢ .

(٢) المحالق من الكرم : ما التوى منه ، وتعلق بالقضبان .

(٣) سلوقية : Seleucie : كانت تقع على الشاطىء الأيمن لنهر دجلة ، وكانت قاعدة مملكة السلوقيين ومن جاء بعدهم من الفرطيين (Parthes) وهى الآن أطلال . وبجانبها بالشاطىء الأيسر مدينة المدائن ، وقد تحدثنا عنها من قبل . (المعرب)

طابعها ، وعلى الأقل فإننا لانستطيع أن نجزم مرة واحدة بأن قصر المشتى يعد أثراً كاملا من آثار هذا الفن .

وحينما يواجه الأستاذ شترزيجوفسكى المشكلة التاريخية ، فإنه يأخذ بالرأى السائد الذى يقول بأن الغساسنة هم الذين أقاموا قصر المشتى . فكيف يتيسر للغساسنة ، وقد أتوا من جزيرة العرب ، أن يقيموا بالشام أثراً يتجلى فيه فن شمال الجزيرة ؟

الواقع أن الروابط السورية فى قصر المشتى أوثق مما وصفت به . فمن المحقق أن الأمير العربى الذى شيد هذا البناء قد قلد عن قرب قلعة القسطل المجاورة له[1]. أما العناصر الغربية والطريقة الخاصة التى اتبعت فى النقش والقباب المنحنية المبنية بالآجر ذات الرسوم العمودية ، فلا يمكن أن نرى فيها جميعاً إلا تأثيراً فارسيا يكاد يكون مباشرا . إن مقارنة المشتى بالقصر الأبيض يجب أن توضع فى الاعتبار الأول ، وإن كان الأستاذ شترزيجوفسكى قد أهملها بعض الإهمال . إنه نفس الفن الذى وصل فى تطوره إلى أقصى درجات الكمال بقصر المشتى . « إننا لنعثر على نفس النقوش العديدة وقد أثقلت بالزخارف ، ونرى نفس الزخرف النباتى وقد أحاط بحيوانات قد نقشت بنفس الطريقة التى يستخدمها الحفارون الفارسيون[2] » . ومن المحتمل أن يكون الحل الذى قدمناه من قبل خاصا بالقصر الأبيض ينطبق على قصر المشتى .

إن الحالة السياسية التى يكشف عنها النقش النبطى العربى — الذى وجد فى النمارة ودرسناه قبل ذلك ويتناول أوائل القرن الرابع — هذه الحالة السياسية يمكن أن تستمر فى شكل منتظم أو غير منتظم حتى زمن استيلاء الغساسنة على الملك أى فى نهاية القرن الخامس أو أوائل القرن السادس .

وعلى هذا ، فإذا انتزعنا من دراسة الأستاذ شترزيجوفسكى الآراء التى تقبل الجدال فإننا نخلص منها بهذه النتائج القيمة :

١ — أن جدار سور المشتى يمكن أن يرجع فى مواد بنائه وطريقة بنيانه إلى

(١) قارن برونوف Provincia Arabia (الأقاليم العربية) ، ج ٢ ص ١١ ٣ ، تعليق رقم ١ .

(٢) رينيه ديسو وفردريك مكلر : رحلة أثرية فى الصفا ، ص ٤٤ .

زمن دقلديانوس وإلى سلسلة الأعراف التحصينية التى كانت تمتد بطول الحدود فى القرن الرابع الميلادى .

٢ — أن فن العمارة الذى كان يبنى الأجزاء الداخلية بالآجر يتصل اتصالا وثيقاً بالتقاليد المعمارية التى كانت موجودة بالجزيرة .

٣ — ونظام البهو الكبير ذى — المقاصير الثلاث — والزخارف المستديرة يمكن أن يرجع إلى عهد قسطنطين .

والخلاصة أن قصر المشتى قد بنى فى القرن الرابع أو على الأكثر فى القرن الخامس[1] .

وإذا خرجنا عن دائرة طراز البناء والناحية الفنية ، فإننا نجد دليلا تاريخيا يؤيد أن قصر المشتى لم يبن فى العصر المتأخر ، هذا البرهان هو الطابع الوثنى الذى لامراء فيه .

وفى نفس البهو الكبير الذى يعرض فيه متحف القيصر فردريك ببرلين تلك الوجهة الرائعة لقصر المشتى نرى أسدا مقعياً وثلاثة أجزاء من تمثال امرأة عارية تمثل (الرأس والصدر والحوض) . وقد وجد الرأس والصدر فى البهو الكبير ذى المقاصير الثلاثة ووجد الأسد وحوض الجسم النسائى فى الزخرف المستدير . ومع ذلك فمن المحتمل أن تكون الأجزاء النسائية الثلاثة لتمثال واحد . والمرأة التى نراها فى تلك الصورة لها كل صفات الجارية السوداء وخاصة فى تلك الشفاه الغلاظ . فذراعاها كانا منخفضين وتمسك بيديها طرفى وشاح ضيق الحجم يمتد خلفها إلى أعلى فخذها . وأما اليد اليسرى ، التى لم نعثر لها على أثر محقق يدل عليها ، فكانت أعلى قليلا من يدها اليمنى وربما كانت تمسك بها ساقة نباتية لانعرف مداها تماماً إلا أن نهايتها كانت

---

(١) شترزيجوفسكى : l. c ، ص ٣٦٤ . وقارن S, R (einach) : تاريخ وجهة المشتى فى المجلة الأثرية ١٩٠٦ ، ج ١ ، ص ٤٨٥ — ويقول الأستاذ برونو فى Provincia Arabia ج ٢ ، ص ٣١٠ بأنه ينبغى لنا أن نعدل تماما عن أن ننسب هذا القصر للغساسنة إذا ما أردنا أن نرجعه إلى ما قبل القرن السادس . وهو على حق فيما يقول — ويصرح أيضاً بأن هذا هو الدليل الأساسى الذى يحمله على أن يخفض التاريخ الذى اقترحه الأستاذ شترزيجوفسكى . وحلّنا الذى اقترحناه يقضى على هذه الصعوبة .

مثبتة فى ثقب حفرة فى أعلى الفخذ الأيسر بعمق يبلغ عشرة سنتيمترات تقريباً . وأما فرجها فبارز بروزاً واضحاً . والحجر الكلسىّ المنحوت منه هذا التمثال ، يشبه تماماً الحجر المصنوع منه الأسد الجاثى . ويخيل إلينا أن هذا الكلس مأخوذ من الحجر الذى أخذت منه كتل الأحجار التى بنيت بها وجهة القصر . وليس من الغريب أن يكون نحاتو هذه الوجهة — وهم من المهارة بحيث يحفرون الأحجار فينقشون بها رسوما متقنة دقيقة — على جانب قليل من الحذق الفنى فلم يتقنوا نحت التماثيل . والأسد الجاثى يدل أيضاً على أن اليد التى تناولته صنما لم تكن يدا بارعة فى الفن .

ثم كيف نفسر أن الغساسنة ، وهم المسيحيون المتعصبون لدينهم الذين أقاموا الأديرة ، قد أقاموا الأصنام فى قصرهم ؟ ويشعر الأستاذ برونو بوجاهة هذا الدليل وقوته فيضطر إلى القول بأن الغساسنة قد اغتصبوا هذه الأصنام من أعدائهم واحتفظوا بها كغنائم تشهد بنصرهم[1]. غير أن الاحتمال المقبول هو أن يكون الغساسنة ، وهم من عرفنا ، قد كسروا هذه الأصنام فى المكان الذى وجدوها فيه .

فضلا عن هذا ، فإن وثنية الذين أقاموا القصر قد تجلت بوضوح فى الوجهة نفسها : ذلك أن الأستاذ كليرمون جانو قد تعرف فى الزخرفة على « نوع من النصوص يعبر عنه بالرسوم » ويقرأ على الطريقة الشرقية من اليمين إلى اليسار حيث يقول فى وصفها : « وشجرة الكرم قد رسمت أول الأمر تحمل ثمارها ثم تتطور تدريجيا وفقا لحالات النضج المختلفة لهذه الثمار ، حتى يحين أوان نضجها فتقبل عليها حيوانات العالم لتأكل من عناقيدها . وفى أعلى آخر لوحة مستطيلة (وليست الأولى) وهى اللوحة التى تشرف على الزخرفة كلها ، يطل من بين أغصان الكرم وجه آدمى على رأسه قلنسوة أفروغية وعليه طابع المخمورين[2]. » وهذا الرأس ، الذى يبدو أنه رأس إله ، وقد ظهر فى أعلى شجرة الكرم قد وضع مباشرة أعلى صورة حيوان يخيل إلينا بأنها صورة فهدة . والتقاطيع البشرية لهذا الرأس غير واضحة المعالم ، لأن اليد

---

(١) برونوف .l.c ص ٣١٠ — ٣١١ ضد شترزيجوفسكى .l.c ص ٢٢١ و ٢٧٠ .

(٢) كليرمون جانو : مجلة العلماء ، عام ١٩٠٦ ، ص ٥٢ .

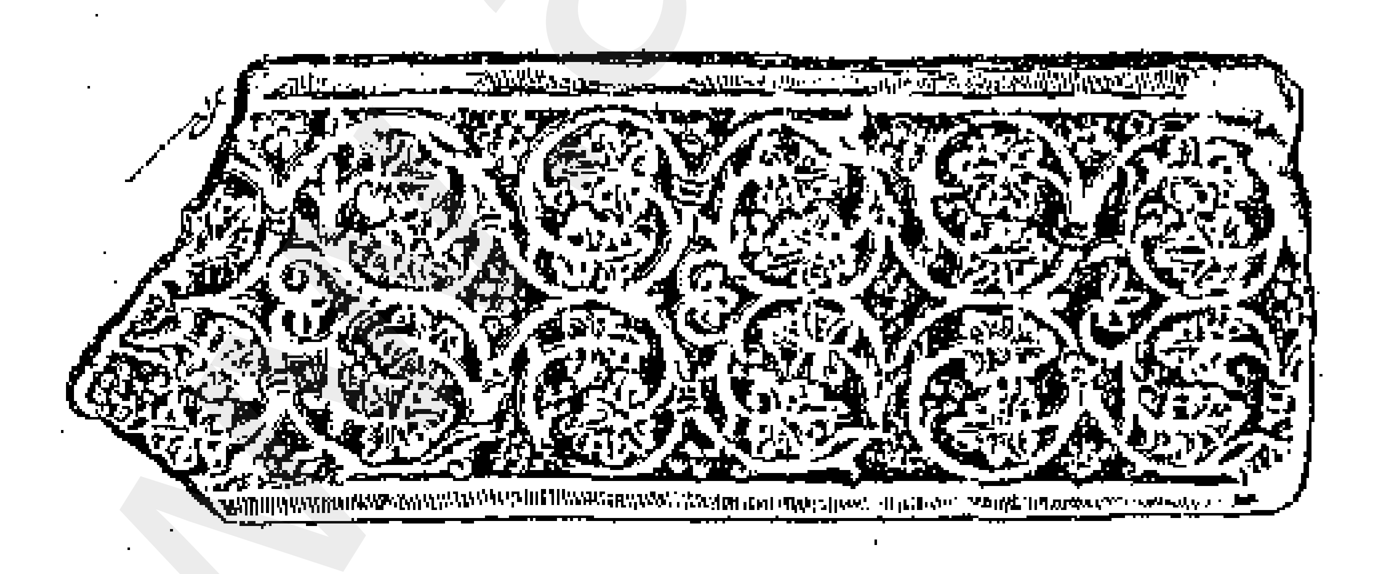
التي صنعتها ليست يدا فنية ماهرة . أما غطاء الرأس فقريب الشكل ويبدو أنه مأخوذ من الطيلسان الفارسي .

ويخيل إلينا أن المقصود بوجود الشجرة بين حيوانين متقابلين في عدة لوحات لم يكن مجرد باعث زخرفي . ويمكن أن يكون الباعث على ذلك هو أن توصف بأنها شجرة الحياة مادام هذا الموضوع مشتركا بين الساميين والفرس .

أما أصل الشجرة فمغمور في إناء ، وبعض الأحيان في حوض ترتوي منه الحيوانات . ونحن نعلم أن ينبوع الحياة ينبثق من أصل شجرة الحياة .

وعلى الجملة ، فإنا نرى أن طراز هذا القصر وطريقة بنائه يدلان على أنه يرجع إلى ماقبل القرن السادس . وتدل زخرفته على أن مشيديه كانوا مشركين . ولهذين السببين ، لايمكن أن يكون الذي بناه غسّانيا وإنما هو أمير من أمراء الحيرة كما يقول الأستاذ كليرمون جانو[1].

وهناك إيضاح ، يعد نقطة ثانوية ، إلا أنه يؤيد هذه النتائج : فالأستاذ شترزيجوفسكي قد تعرف على صورة ملك ساساني منقوشة نقشا غير متقن على كتلة من الحجر . وقد وصفت هذه الصورة لنا بأنها وجه غطى رأسه بتاج مجنح وقد رفعت الذراع اليمنى قابضة على خنجر[2] . ويكفي أن نقارن بين النقود الساسانية أو بين النقوش البارزة المحفورة ورؤوس العواميد بأصفهان أو في بيزوتون لنقتنع بأن الذراع أو الخنجر ليسا إلا شارة من شارات التاج الطائر في الهواء .



شكل ١٣ — زخرف منقوش في الجامع القديم بدمشق

(١) كليرمون جانو : نفس المرجع .

(٢) شولتس : الكتاب السنوي لمجموعات الوثائق الفنية ، عام ١٩٠٤ ، ص ٢٢٣ ، شكل ١٥ . Schulz : Jahrb.d. K. pr. Kunstsammlungen 1904, p. 223, fig' 15

إن صورة ملك ساسانى قد تأيد وجودها ، وهذا الجوار الفارسى يؤكد جميع ما ذكرناه من قبل . ويمكن أن نلاحظ أن هذا التاج من طراز قديم . والواقع أننا نعلم أن خسرو الثانى (٥٩١ — ٦٢٨) قد اتخذ عند اعتلائه العرش شكلا جديداً للتاج حلّ فيه الهلال محل الشكل المنطادى . وكان هذا التاج يلبسه آخر ملوك الساسانيين . غير أننا نرى فى رسوم قصر المشتى أن التاج الذى يظهر فيها من الطراز المنطادى .

* * *

ولنخرج من هذا كله بنتيجة هى أننا رأينا فى القصر الأبيض وقصر المشتى أنواعا من البناء قد تأثرت بالفن الساسانى الذى كان يمارسه العرب فى الحيرة . وهذا بناء على السلطة ، التى اعترفت بها الإمبراطورية الرومانية . لبعض ملوك الحيرة الذين تمكنوا من أن يمدوا سلطانهم على بعض القبائل العربية المقيمة على مقربة من التخوم السورية . والخصائص التى ذكرناها فى هذه المبانى ليست إلا خصائص قد جلبها العرب إلى سوريا ؛ وبناء على هذا ، فينبغى لنا أن ندرسها فى شىء من التفصيل .

واكتشاف الأستاذ موزيل[1] فى بادية الشام ، الخاص بالخانات المزينة برسوم غريبة على الجدران ، يؤيد وجهة نظرنا هذه . فتلك المبانى التى تعد أقدمها قليلة التأخر زمنياً عن قصر المشتى ، تتبع أيضاً فى طريقة بنائها وزخرفها ملتقى التأثيرات الفارسية والسورية على السواء .

ونحن نرى أن التآلف بين الفن الفارسى والصياغة السورية كان ضئيلا فى القصر الأبيض ولكنه بلغ فى قصر المشتى ، الذى بنى بعده بقرن أو قرنين ، الصورة الكاملة للفن العربى البدائى . والواقع أن هذه العناصر نفسها فى الزخرف قد احتفظ بها زمنا طويلا فى الفن الإسلامى ، كما يدل على هذا قطعة رخامية صورناها من الجامع القديم بدمشق (انظر شكل ١٣) وبعض صناديق عاجية صغيرة صنعت على الأخص فى أسبانيا ، وبعض نقوش على الخشب وكذلك كثير من المنسوجات .

---

(١) ألواموزيل : قصير عمره ، ڤينا عام ١٩٠٢ Kusejr 'Amra : Alois Musil .

ومصطلح « الفن العربى » الذى يحاول البعض تسميته « بالفنون الإسلامية » ليدخلوا فيه فنونا متباعدة فى زمنها ومكانها — هذا الفن العربى ليس خاليا تماماً من كل معنى كما كان يظن قبل ذلك . ويجب أن نحتفظ له بهذه التسمية للدلالة على الفن الذى كان يستعمله العرب فى بادية الشام قبل الإسلام فى الإمبراطورية العربية خلال القرون الأولى الهجرية .

الفصل الثالث

الكتابات السامية الجنوبية

اكتشاف النقوش الصفوية وحل رموزها .
الأبجدية الصفوية ونظائرها . الأصل اليونانى للأبجدية السبئية .
الأصل المشكوك فيه للأبجدية الفينيقية .

رأينا أن الإقليم الجنوبى الشرقى لدمشق إقليم أصله بركانى . وفى غربى جبل حوران تكوّن وادى النقرة الغنى بسبب إزالة الصخور البركانية ، وفى الشرق لا تصلح الأرض للزراعة ؛ لأن التربة تكاد تكون كلها مغطاة بالصخور البركانية أو بقطع منها وهذه هى الحرّة .

وفى حرة وادى رجيل ، كما فى وادى الشام ووادى الغرز ، لا يوجد ماء جار إلا فى الشتاء . ومنذ شهر إبريل ، لا يوجد ماء تسقى منه الماشية إلا فى بعض الأماكن المنخفضة ، فى المستنقعات أو الغدران الواقعة فى نفس مجرى الوادى (انظر شكل ١٤) . وهكذا تظل المياه التى تنساب إلى باطن الأرض تتجدد ببطء فى الغدران . وفى الصيف نجد بعض آبار لاينضب ماؤها وخاصة آبار النمارة . ولكن الحياة فى الحرة قد أصبحت عسيرة بالنسبة لقطعان الماشية ؛ وقد رحل عرب الصفا إلى المنحدر الشرقى لجبل حوران . والنصوص الصفوية ترجع إلى تلك البقاع وتدل على أن الصفويين كانوا يقومون بهذه الرحلة الصيفية نفسها كل عام .

ولا يمكن أن يعترض باحث على المقارنة التى نعقدها بين الصفويين وبين عرب الصفا الحديثين باختلاف ملحوظ فى المناخ . وإذا كان جبل حوران قد أزيلت أشجاره منذ القدم قليلا ، فإن نظام مسارب المياه فيه قد عدلت تعديلا طفيفا ، ولكن لم يطرأ على نظام الأمطار تغيير كبير ، تلك الأمطار التى تتساقط من تبخر مياه البحر الأبيض المتوسط(١) .

---

(١) انظر مؤلفنا : بعثة فى الأصقاع الصحراوية بسوريا الوسطى ، ص ٥٣ .
Mission dans les régions désertiques de la Syrie Centrale, P. 53.

والنصوص الصفوية تتبع غربا أطراف الحدود الحضرية ؛ وتتوقف شرقا عند الأرض الجيرية في حمد . أما في الشمال فتمتد حتى جبل « سيس » وتصل جنوبا حتى قلعة الأزرق .

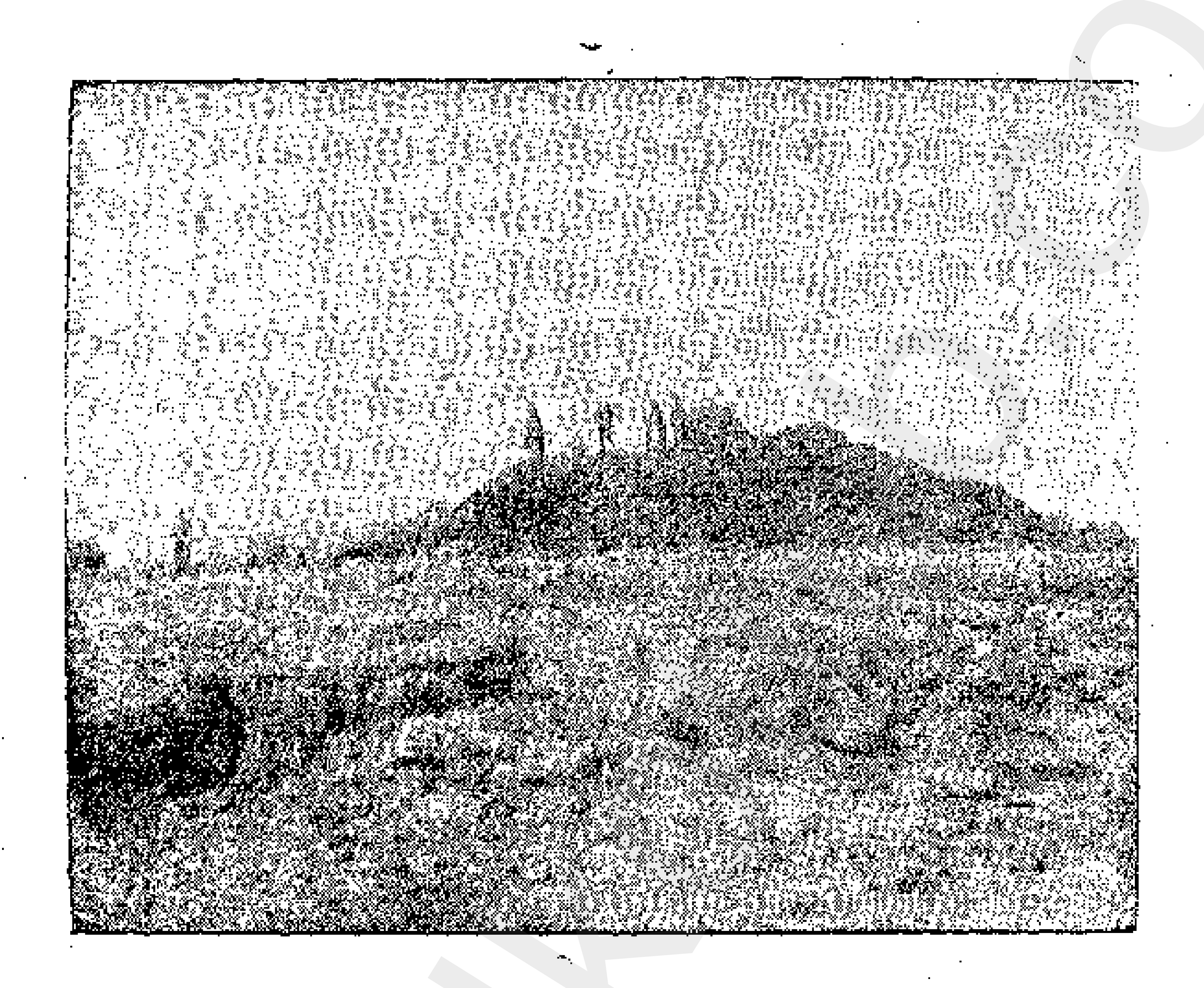


شكل ١٤ — قطيع من الجمال يرتوي من غدير « أبي زعرور »

وغالبا ماتغطي الأحجار البركانية نشزاً من الأرض يكون بمثابة مرتفع يطلق عليه لفظ « رِجْم » . وبينما تتبع القافلة طريقاً حجريا تسير فيه ، فإن دليلها يجرى من رَجم إلى رجم متطلعاً إلى الأرض ليتأكد من خلو الطريق . وكان العرب يضعون فوق أهم هذه الربى قطعاً من الأحجار ، تكون بعض الأحيان على شكل برج يختفون خلفها وقت مراقبة الطريق . وهذه الأحجار تعد أيضاً علامات مفيدة . وغالبا ماتكون هذه النقط للعسس محوطة بنقوش صفوية . وتوجد هذه النقوش أيضا على مقربة من الأماكن التي توجد بها مياه ، أي في الأماكن التي كانوا ينتجعونها.

وهذه النقوش هي في الحقيقة رسوم . وسطح هذه القطعة من الأحجار البركانية لم يهذّب ؛ وطبقتها الظاهرة هي وحدها التي عراها بعض التغيير والصقل .

وقد استعمل الصفويون عدة طرق للتغلب على الصلابة الشديدة لتلك الصخور البركانية . وخير النصوص التي نقشت كانوا يستعملون في حفرها منقاشا باردا . فكانت الحروف إذن صغيرة والشق ضيقا عميقاً نسبيا .



شكل ١٥ — رجم المراء

وأحياناً أخرى ، كانت الطبقة العليا للحجر هي التي تخدش وحدها بسن مدبب. فكانت الحروف كبيرة ، ذات طابع مضطرب ، ودقيقة جدا لا ترى إلا بلونها الأحمر الذي كان يحفر على اللون الأسود للحجر البركاني .

وعلى الجملة فهناك عدد كبير من النصوص قد حفرت بطريقة الدق . والحروف تعد كبيرة نسبياً ولكنها تبدو سميكة جداً على الأخص . وهي كسابقتها يمكن تمييزها بلونها الأحمر .

وقد تساءل ڤيتشستين Wetzstein عما إذا كان اختلاف هذه الطرق يرجع إلى اختلاف التواريخ . غير أن طريقة النقوش المختلفة المتشابكة والمنضدة بعضها فوق

بعض تؤيد أن هذه الطرق المختلفة متعاصرة . والنص الواحد قد يبدأ فى حفره بالمنقاش وينتهى منه بواسطة المدق .

والقشرة السطحية السوداء ، التى تغطى أحجار الحرة والتى تضفى عليها طابعاً خاصاً للغاية ، رقيقة جداً . ولقد رأينا من قبل أن هذه القشرة تتكون من التأكسد الشديد لأملاح الحديد والمغنسيوم التى ترسب فوق سطح الأحجار بعد تبخر الندى . وإذا خطت سطور فوق هذه الأحجار فإن لون هذه السطور يكون أزرق حديديا حتى لو لم تكن الخطوط قليلة الغور . وغالبا ماتكون الذرة ، عند كسر حجر ، شبيهة بذرة الحديد الزهر . والتأكسد الذى يحدث مرات عديدة فى أجيال متعددة يحيل الخطوط المرسومة من لون أزرق حديدى إلى لون أحمر يكاد يكون قاتما ؛ وأخيراً فالتأكسد الشديد بعد آلاف من السنين يؤدى إلى اللون الأسود .

وعلى هذا ، فالنقوش العربية التى يرجع تاريخها إلى الأعوام ٦٤٠ و ٦٥٣ و ٧٤٠ من الهجرة — والتى تقع فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين — تلك النقوش التى صورناها ، لاتزال رمادية اللون . وهذا يكفى للتدليل على أن الرسوم الصفوية التى أصبحت حمراء اللون أقدم بكثير منها .

* * *

وأول رحالة زار الصفا وأشار إلى النصوص المنقوشة على مقربة منه هو « سيرل جراهام» فى سنة ١٨٥٧ . وقد لفت الأنظار فى مناسبات عديدة إلى كشفه وخاصة فى مجلة الجمعية الجغرافية الملكية بلندن (١٨٥٨ و ١٨٦٠) .

وفى السنة التالية أى فى عام ١٨٥٨ ، كان يوهان جتفريد ڤتزشتين قنصل بروسيا فى دمشق قد بدأ بحثه الدقيق فى حوران وفى المناطق المجاورة لها . وكتابه : « أخبار رحلتى إلى حوران وتروكونيا » Reisebericht über Haurân und die Trachonen الذى ظهر فى برلين عام ١٨٦٠ ملىء بالحقائق العلمية وبالتفصيلات التى روعى فيها التحقيق الدقيق . وڤتزشتين لم ينشر إلا عدداً قليلا من النصوص التى جمعها وتبلغ مائتين وستين نصا ؛ وغالبية هذه النصوص تعد جديدة ، إلا أن النسخ التى نقلت عنها لم تراع فيها الأمانة . على أن الخريطة التى رسمها ڤتزشتين لاتزال

ذات قيمة نظراً للدقة التى راعاها فى وضع أسماء الأماكن العربية . وهو وإن لم يتمكن من كشف رموز النصوص الصفوية التى جمعها ، فإنه قد اعتقد بأن فى استطاعته أن يستنتج بأن الكتابة التي بين يديه كتابة قوم جاءوا من جنوب جزيرة العرب . وأضعف جزء فى دراسته هو ذلك الجزء الذى قارب فيه أماكن حوران بأسماء الأماكن التى وردت فى الإنجيل ، وخاصة فى سفر أيوب .

وفى عام ١٨٦٢ ، أكمل الأستاذان ودنجتون ودى ڤوجه بحثهما الممتاز فى الكتابة والآثار فى سوريا وذلك بزيارة الصفا . وقد أدخل الأستاذ دى ڤوجه فى الجزء الثانى من كتابه « سوريا الوسطى ، نقوش سامية » الذى ظهر عام ١٨٧٧ اثنين وأربعمائة نقشا صفويا .

والرحالة الذين زاروا الصفا بعد ذلك ، وهم بيرنون ودريك و ج . ل . بوركهارت وشتوبل وماكس فون أوبنهيم ، لم يقيدوا النصوص الصفوية التى كانوا يعثرون عليها .

وفى عام ١٨٩٩ نقلت أنا اثنى عشر وأربعمائة نص وجدتها فى تلك البقعة . وفى سنة ١٩٠١ نقلت أنا والأستاذ فر . مكلر أربعة وتسعمائة نص جديد . ونقل الأستاذ إنوليتمان ، عضو البعثة الأمريكية فى سوريا وأستاذ اللغات السامية بجامعة سترسبورج الآن ، خمسة وثلاثين ومائة نقش ؛ وذلك فى عام ١٩٠٠ . وفى الشتاء من عامى ١٩٠٤ — ١٩٠٥ ، جمع الأستاذ ليتمان عدداً كبيراً من النصوص سينشر عما قريب .

وإذا أسقطنا النصوص المكررة فإننا نجد أن ماشر من النصوص الصفوية حتى الآن يبلغ عدده خمسين وسبعمائة وألف نص تقريباً .

وإذا كانت النقوش الصفوية قد عثر عليها منذ نصف قرن ، فإن قراءتها لم تتم إلا منذ بضع سنوات . فالتخبط كان كثيراً ، وما ذلك إلا لخصائص الكتابة الصفوية . والمحاولة الأولى لفك رموز هذه اللغة ترجع إلى الأستاذ بلاو[1] والأستاذ داڤيد

---

(١) Zeitschrift d. deutschen morgenländische Gesellschaft : مجلة جمعية المستشرقين الألمانية المجلد ١٤ ، ص ٤٥٠ .

هينريش مولر[1]، ولم تنجح هذه المحاولة لأنه لم يكن بين أيديهما إلا عدد قليل من نسخ فترشتين من ناحية ، ولأنهما كانا من ناحية أخرى يقارنان مقارنة دقيقة بين تلك الكتابة وبين الكتابة الحميرية . والواقع أنه إذا كانت الحروف فى مجموعها ترجع إلى الشكل السبئى فإن بعضها تختلف عنه تماماً . وعلى كل حال فقد حققا عدداً من هذه الحروف .

وما نشره الأستاذ دى ڤوجه يعد أول ما نشر صحيحاً من الناحية العلمية وهو — إلى جانب هذا — ذو عدد كبير . وكان الأستاذ جوزيف هليڤى قد عرف من قبل مصطلح البنوة بن « ابن » . وقد قال فى ذلك : « لقد حملنى هذا التحقيق على التفكير فى أن المشابهة الملحوظة بين الأبجدية الصفوية والكتابة العربية الجنوبية ليست مطلقة كما يتبادر إلى الظن ؛ بل هناك رابطة عائلية بينهما على الأصح . وليست إحداهما مأخوذة مباشرة من الأخرى ؛ وأنه يجب إدخال عنصر آخر ضرورى للمقارنة هو الهجاء الفينيقى الذى يعدّ النموذج الوحيد لكل أنواع الأبجديات المعروفة[2] » . والنصوص التى نشرها الأستاذ دى ڤوجه قد أفادت الأستاذ ج . هليڤى فى فك رموز الكتابة . وقد نشرت المجلة الأسيوية من عام ١٨٧٧ إلى عام ١٨٨١ مقالاته بعنوان « محاولة فى دراسة النقوش الصفوية » .

وقد أعطى الأستاذ ج . هليڤى للهجاء الفنيقى أهمية كبرى فى خلق الأبجدية الصفوية مخالفا فى ذلك من سبقه من العلماء . وقد حقق بذلك عدداً من الحروف الجديدة . ولكن نظريته ، من ناحية أخرى ، قد منعته من أن يتعدى حروف الأبجدية الفينيقية . وسنحاول فيما بعد أن نوضح كيف أن بعض الحروف الصفوية ذات شكل مقارب لبعض الحروف الفينيقية ، وإن كانت من أصل سبئى .

وقد أدخل الأستاذ فر . ريتوريوس بعض تعديلات على الأبجدية الصفوية كما

---

(١) نفس المرجع ، ج ٣٠ ، ص ٥١٤ .

(٢) جوزيف هليڤى : المجلة الأسيوية ، عام ١٨٧٧ ، ج ٢ ، ص ٣٠٤ — ٣٠٥ .

وضعها العالم الفرنسي ، وإن كان قد وضع الاكتشاف الذي قام به الأستاذ ج. هليفي موضع الاعتبار(١).

العبرية والعربية	اللاتينية	الفينيقية	السبئية	اللحيانية	الثمودية	الصفوية
א (أ)	'	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ב (ب)	b	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ג (ج)	g	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ד (د)	d	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ד (ذ)	dh		[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ה (ه)	h	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ו (و)	w	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ז (ز)	z	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ח (ح)	ḥ	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ח (خ)	kh		[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ט (ط)	ṭ	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ט (ظ)	ṭh		[illegible]			[illegible]
י (ى)	y	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
כ (ك)	k	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ל (ل)	l	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
מ (م)	m	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
נ (ن)	n	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ס (س)	s	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ע (ع)	ʿ	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ע (غ)	gh		[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
פ (ف)	f	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
צ (ص)	ṣ	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
צ (ض)	ḍ		[illegible]		[illegible]	[illegible]
ק (ق)	q	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ר (ر)	r	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ש (ش)	ch	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ת (ت)	t	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ת (ث)	th		[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]

شكل ١٦ — الأبجدية الفينيقية والأبجديات السامية الجنوبية

(١) Litterar. Centralblt 1883 Col. 804-806 et Zeitschrift d. d. morgenl Gesellschaft, t. XXXVI (1882) p. 661-663. المجلة المركزية للآداب ، ١٨٨٣ ، المجموعة ٨٠٤ — ٨٠٦ ، ومجلة جمعية المستشرقين الألمانية ، ج ٣٦ (١٨٨٢) ص ٦٦١ — ٦٦٣ .

ولكن الأستاذ انوليتمان هو الذى أعطى للأبجدية الصفوية شكلها النهائى فى مؤلفه الصغير : Zur Entzifferung der Safâ-Inschriften الذى ظهر عام ١٩٠١ . وقد وجد الأستاذ ليتمان أن عدد حروف الأبجدية الصفوية ثمانية وعشرون حرفا ، مثل الأبجدية العربية . وعلى هذا فقد أصبح أمامنا صلة وثيقة بين الصفوية وبين الكتابات العربية الجنوبية .

وقد سجلنا فيما سبق (شكل ١٦) الأبجدية الصفوية التى تبلغ ثمانية وعشرين حرفا مرتبة وفق الحروف العبرية مع زيادة حروف إضافية .

على أن هناك ملاحظة أولية تعرض لنا : هى أن النقاشين الصفويين كانوا يدونون النصوص على جميع أضلاع الصخور أو على الأحجار دون أن يعنوا أية عناية بتنظيم الكتابة . وكانت إذا عرضت للناقش عقبة ، عاد من حيث بدأ من جديد . ومن العسير أن نقرر ما إذا كان يكتب حقا كتابة محراثية ، أعنى أنه كان يكتب على التوالى فى الاتجاهين أو أنه كان ينتقل من مكانه ليكتب دائماً من اليمين إلى اليسار . يخيل إلينا أن الحالة الأولى هى الأكثر احتمالا ، لأنه يبدو لنا أن الصفويين لم يكونوا يهتمون بوضع الحروف اهتماما كبيراً . وفى القائمة التى دونا فيها الأبجدية الصفوية ، لم نشر دون ريب إلى جميع الأوجه التى يكتب بها كل حرف من الحروف .

***

والكتابة الصفوية هى أقرب أنواع الكتابات ، التى من النوع السبئى أو الحميرى ، صلة بكتابة أهل الشمال . ونحن نعلم بالتقريب ، أخذا من النصوص العربية والتقاليد الكتابية الحبشية ، شكل الحروف الحميرية . وقد شغل بهذا الموضوع الأستاذان جيزنيوس و ا . رديجر . ولكن الأستاذ «فلجانس فرينل» هو الذى دوّن أول نقل لخمسة وخمسين نصاً سبئياً فى كتابه : « بحوث فى النقوش الحميرية » نقلها بإرشاده الصيدلى الفرنسى جوزيف أرنو من مأرب ، عاصمة السبئيين ، ومن صنعاء ، وذلك فى عام ١٨٤٥ . وقد حددت الحروف السبئية كلها بذلك تحديداً دقيقاً ماعدا الغين والزاى والسين (سامك) والثاء . ولقد ناقش هذه الحروف الأربعة وحدد قيمتها النهائية الأساتذة أوسيندر وپراتوريوس وجوزيف هليفى و ج . ه . مرتمان و د . ه . مولر وفريتز هومل .

ومن بين الرحالة الذين ترسموا خطى جوزيف أرنو ، يجب علينا أن نضع فى الصف الأمامى الأستاذ جوزيف هليفى الذى دون مايقرب من سبعمائة نص من مأرب ونجران عام ١٨٦٩ . لقد زعم هليفى أنه يهودى فقير من أهل بيت المقدس وأخذ يتنقل من مقاطعة يهودية إلى مقاطعة أخرى حتى استطاع أن يصل إلى أماكن لم تتح زيارتها لأحد من قبله . ويجب أن نشير إلى رحلة النمسوى س . لنجر (١٨٨٢) الذى ذهب هو والفرنسى هوبير ضحية التعصب العربى . وأخيراً ، وفى زمن أحدث من ذلك ، بدأ الأستاذ ادوارد جليزر عام ١٨٨٢ يحضر مئات من النصوص لا يزال عدد منها ، على جانب كبير من الأهمية ، مجهولا لنا بكل أسف . ونتج عن ذلك أن زادت معلوماتنا عن الكتابة السبئية زيادة كبيرة ، ويتابع مجمع النقوش والفنون الجميلة نشر هذه النصوص بانتظام ؛ وقد عهد بذلك إلى الأستاذ هرتويج دير ينبورج فى الجزء الرابع من :

Corpus Inscriptionum Semiticarum « مجموعة النقوش السامية . »

وقد كتبت هذه النصوص بأربع لهجات تنتمى إلى اللغات التى ترجع إليها اللغة العربية الفصحى . أولاها : اللهجة المعينية التى يقال بأنها أقدم اللهجات ، ولدينا منها نصوص ترجع إلى القرن الثامن قبل الميلاد ؛ ثم السبئية وهى لهجة حضر موت ولهجة قتبان . أما مصطلح الحميرية الذى يستعمل كثيراً ، وخاصة فى فرنسا ، فلا ينطبق تماما إلا على نصوص ترجع إلى عهد متأخر . فملوك حمير قد جمعوا تحت سلطانهم مملكة ريدان ومملكة سبأ ومملكة حضر موت واليمن ، وامتد حكمهم من أوائل التاريخ الميلادى إلى زمن الفتح الإسلامى . والراجح أن مملكة سبأ قد حلت محل المملكة المعينية فى وسط القرن السادس قبل الميلاد . أما قبل ذلك فكان السبئيون يعيشون عيشة البداوة فى شمال شبه جزيرة العرب . ويظهر أن هذا الرأى مقتبس من نص «سرجون» (٧٢١ — ٧٠٥) ق . م الذى يروى أمر الجزية التى كان يدفعها «پيرو» ملك مُصرى وتدفعها «سمسى» ملكة عربى «وإتمارا» السبئى . وعلى هذا لم يكن إتمارا ، الذى ذكر على أنه رئيس السبئيين ، يحمل إذن فى القرن الثامن لقب الملك .

وقد وجدت نصوص سبئية حتى فى العلا بشمال شبه جزيرة العرب ، حيث عثر فى هذا القطر الشمالى على نصوص من نفس النوع يرجع تاريخها إلى أوائل التاريخ

الميلادى تقريباً ، وقد قيل بأنها لحيانية ؛ لأنها تشير إلى ملوك عديدين من لحيان . وأبجدية هذه النصوص تعدّ تشويها للسبئية يجعلها قريبة من الصفوية إلا أنه أقل تطوراً منها . وعلى الجملة ، فهناك نوع آخر من النصوص يقارب النصوص السابقة تجدها فى هذا الجزء الشمالى من بلاد العرب ، ويطلق عليها البعض النصوص العربية الأصلية ويسميها البعض الآخر بالنصوص الثمودية .

أما بنو ثمود الذين ذكرهم بليني وهم الذين يتحدث عنهم القرآن ، فكانوا يسكنون شمالى المدينة . وقد أرسل الله إليهم نبيهم صالحاً ليهديهم إلى عبادة الله الحق ؛ ولـكنهم أعرضوا عن دعوة نبيهم فهدم الله عليهم الحجر (مدائن صالح) التى هى اليوم مدينة النبي صالح . وهذه القصة الغريبة التى سنعود للتحدث عنها ، تشير إلى القبور النبطية المنحوتة فى الصخور على طراز قبور « البطراء » .

والأبجدية الثمودية قريبة جداً من الأبجدية الصفوية . وقد نشر الأستاذان جوزيف هليفى ومارك ليدزبرسكى دراسة أولية فى فك رموزها معتمدين على النصوص التى نسخها الرحالة الفرنسى هوبير . وفى نفس الوقت تقريباً استفاد الأستاذ إنّوليتمان من النقوش التى قام بنسخها الأستاذج . أوتنج ، وذلك فى كتابه Zur Entzifferung der thamudenischen Inschriften الذى نشر عام ١٩٠٤ .

لقد اقتبسنا فى الجدول الذى نشرناه (شكل ١٦) وجهة النظر المأخوذ بها غالباً وهى أن الأبجدية الفينيقية أصل الأبجديات السامية كلها . وبعد كتابتها بالحروف العبرية والحروف اللاتينية ، وضعنا الأبجديات المختلفة التى نقارن بينها وفقا للوضع التاريخى : الفينيقية والسبئية واللحيانية والثمودية والصفوية .

* * *

إن الأصل الذى تنتمى إليه الأبجديات السامية الجنوبية لتقدم لنا اختلافات نرى من الفائدة أن نقارن بينها : فالهجاءان اللحيانى والثمودى سيطلعاننا على التغير الذى أصاب الأبجدية السبئية حتى انتهت أخيراً إلى الأبجدية الصفوية ؛ وحتى فى هذه الدراسة الخاصة نستطيع أن نستنبط قانوناً عاماً نقترح أن نسميه «قانون التذبذب» .

وسنحاول أيضاً أن نرى ، وإن كان ذلك أدق وأعسر مما سبق ، كيف تتصل الأبجدية السبئية بالأبجدية الفينيقية :

الألف : إن اشتقاق الألف الصفوية يصبح تتبعه يسيراً بفضل وساطة الهجاء الثمودى . غير أن اشتقاق الألف السبئية من الألف الفينيقيـة ليس من اليسر بهذا القدر . ويفترض الأستاذ ليتسبرسكى فى دراسة عميقة[1] أن هذا الحرف ، وقد استدار ، أصبح A ثم سويت مفاصل هـذا الحرف . ويستشهد الأستاذ ليتسبرسكى بالهجاء الإغريقى ليبرهن على هذا التطور . غير أن الأستاذ پريتوريوس[2] قد لاحظ أن الألف الفينيقية لم تستدر لتصبح الألف الإغريقية . والتحريفات المتوالية هى :

Ꭿ A A A .

وعلى هذا يجب علينا أن نوضح الألف السبئية على ضوء هذه التحريفات :

Ꭿ A A ∩ .

ونلاحظ أن الأشكال المتوسطة المفروضة لانجدها فى الأبجدية الفينيقية ، ولـكننا نعثر عليها فى الأبجديات الإغريقية المهجورة .

البـاء (بت) إن الأشكال السامية الجنوبية شديدة القرب بعضها من بعض . غير أننا نجد هنا أيضا أن الفارق كبير بين الحرف الفينيقى والحرف السبئى .

ويقول الأستاذ ليتسبرسكى إن الباء الفينيقية كانت على هذه الصورة « (» وأنها أصبحت بعناية الحفارين المعينيين — السبئيين — تلك العناية التى وجه لها اهتماماً كبيراً ، وكانت ترمى إلى إيجاد نوع من الـكتابة الـكبيرة المنسقة — أصبحت البـاء الفينيقية باء سبئية ، ولـكن ياله من تطور سريع ! ومن الملاحظ أن بعض الصور الإغريقيـة المهجورة تمدنا بالأشكال الوسطى التى بين الحرفين الفينيقى والسبئى (انظر شكل ١٧) . وهناك حقيقة تظهر واضحة ، ألا وهى رجوع الشكل الصفوى إلى صورته البدائية

(١) Lidzbarski : Ephemeris für semit, Epigraphik : مجموعة من النقوش السامية : ح ١ ، ص ١٢٢ .

(٢) ZDMG مجلة جمعية المستشرقين الألمانية ، عام ١٩٠٤ ، ص ٧١٧ .

وعلى هذا يبدو لنا أن الحرف لايتغير شكله دائماً في اتجاه واحد ، ولكنه على العكس من ذلك يتذبذب بين جهة وأخرى : مثله في هذا مثل الرقاص الذي يتحرك حول موضع توازنه ؛ وهناك أمثلة كثيرة تثبت ذلك . فضلا عن قانون التناسق ، الذي يعد من خواص الكتابة السبئية والذى امتدحه الأستاذ ليتسبرسكى ، يجب أن نضيف إليه قانوناً آخر ذا معنى عام ، هو قانون التذبذب . وكما رأينا من قبل ، يبدو هذا التذبذب مثلا في الألف الإغريقية في الفترة البيزنطية ، فهي تميل من جديد الخط المستعرض . وعلى هذا فإذا وجدنا في الكتابة اللحيانية والصفوية صوراً متوسطة بين الفينيقية والسبئية ، فليس معنى هذا أنها نتيجة تطور ناقص كما يقول الأستاذان ليتسبرسكى وبريتوريوس ولكنها عودة غير مقصودة إلى الشكل البدائى .

الجيم : (جيمل) — إذا قبلنا قانون التناسق فإننا لانفكر مع ذلك في أنه ينبغى لنا أن نطبقه تطبيقاً تاما في حالة حرف الجيم ؛ لأننا إذا أخذنا بهذا القانون على علاته ، جاز لنا أن نشتق أى حرف سبئى من أى حرف فينيقى .

ولا نستطيع أن نقبل الرأى القائل بأن الجيم الصفوية مشتقة من ضم جيمين سبئيتين ⌐ وضعتا لتكوّنا رسماً قائم الزوايا ، ثم شوه هذا الشكل فأصبح البيضوى الصفوى . والأصح أنهما فرعا الجيم السبئية قد رسما شكلا ستينيا ثم أقفل الفراغ بينهما من أسفل . ومع كل ، فإن قانون التناسق لاينطبق إلا على السبئية وحدها ؛ ومن المؤكد أن الصفويين لم يعنوا به .

الدال (دالت) — إن قائمة حرف الدال الفينيقية قد تطورت في الأبجدية السبئية من أعلى ومن أسفل .

الذال — هذا الحرف من اختراع السامية الجنوبية . وسنرى بوجه عام أن الحروف الإضافية قد حصلوا عليها بزيادة نقطة إلى حرف ما ، تشبه تماما النقط التى استعملها المسلمون من العرب في نفس الغرض .

ويشتق الأستاذ ليتسبرسكى الدال اللحيانية من الدال السبئية التى استقام جزؤها الأعلى أو يشتقها من الزاى القديمة H بإضافة شرطة صغيرة عمودية لها .

ومن المحتمل أن يكون هناك شكلان مستقلان من الدال : فالمجموعة اللحيانية

الثمودية الصفوية قد عدلت صورة H بإضافة شرطة عمودية ، بينما وضع السبئيون هذه الشرطة فى اتجاه أفقى .

الهاء — الأشكال العربية الجنوبية لهذا الحرف متماثلة . أما اشتقاق الحرف السبئى من الحرف الفينيقى فيحملنا على أن نمر بصورة وسطى هى Ǝ التى لانوجد إلا فى الأبجديات الإغريقية فى الزمن القديم .

الواو — يوجد خلاف تام بين الهجائين السبئى والفينيقى فى هذا الحرف . ويجد الأستاذ ليتسبرسكى صعوبة فى إيجاد أشكال انتقالية بين الصورتين[1]. ويمكن أن نقول بأن هناك استحالة فى اشتقاق أحد الحرفين من الآخر ، مادام الحرف الفينيقى البدائى يبدو عليه أنه « إپسلون » ذو شعبة صغيرة ؛ ويؤيد ذلك الهجاء الإغريقى وكتابة الأختام العبرية القديمة . أما واو نقش « ميسا » ذات الشعبة المنحنية فهو شكل قد أصابه التطور .

الزاى — من المؤكد أن الزاى اللحيانية — التى اشتقت منها الزاى الثمودية والصفوية — قد احتفظت بالصورة البدائية فيما عدا استدارتها فى شكل زاوية قائمة . أما الهجاء السبئى الذى يحرص تماماً على التناسق فقد وضع شرطة كيفما اتفق ليصير شكل الحرف هكذا × .

الحاء — (حت) — يجب أن نفترض صورة متوسطة بين الهجائين الفينيقى والسبئى هى Ǝ كما ذكرنا من قبل فى الهاء .

الخاء — للحصول على هذا الحرف أضيفت شرطة صغيرة للنقط على الساقة السفلى للهاء السبئية . وهذه الشرطة التى تستعمل للنقط واضحة كل الوضوح فى الأبجدية اللحيانية . أما فى الأبجديتين الثمودية والصفوية فالحرف قد اتخذ شكلا انحنائياً .

الطاء — إن الصور الانتقالية التى تسمح باشتقاق الحرف السبئى من الحرف الفينيقى لا تزال توجد فى الأبجديات الإغريقية المهجورة . وشكل هذا الحرف فى

---

(١) ليتسبرسكى : .l. e ، ص ١٢٧ .

الثمودى يدل على أن الحرف الصفوى مسخ للحرف السبئى ولكن فى صورة غريبة ترجع إلى الأصل البدائى الذى كان على شكل صليب .

الظاء — لهذا الحرف شكلان مأخوذان بلا ريب من الشكلين المقابلين لهما لحرف الصاد السبئية . ويبدو الشكل الصفوى لهذا الحرف غريباً لأن الأشكال الانتقالية له فى اللحيانية والثمودية غير موجودة . فهو مأخوذ من صاد مفتوحة كما تبدو فى الهجاء اللحيانى .

الياء (يود) — إن ثبات صورة هذا الحرف فى الأبجديات السامية الجنوبية ليدل دلالة قوية على الخلاف الذى يوجد بين الفينيقية والسبئية . وسنرى فيما بعد أن الأشكال الإغريقية العتيقة تمدنا بالصور الانتقالية المطلوبة .

الكاف — إذا كانت الكاف الصفوية مأخوذة من السبئية — والثمودى يؤيد هذا الاشتقاق — فلا يمكن أن يكون ذلك إلا رجوعاً إلى الصورة البدائية . والحرف السبئى لابد أن يكون قد تكوّن بإضافة خط عمودى يستعمل فى أن يظل الحرف على السطر .

اللام (لا مد) إن وضع الحرف السبئى يذكرنا باللام الإغريقية المهجورة .

الميم — سنناقش فيما بعد الصلات التى توجد بين الهجائين الفينيقى والسبئى .

النون — إن التحريف الذى أصاب هذا الحرف قد بلغ غايته فى الهجاء الصفوى .

السين (سامك) — يوجد أحياناً خلط فى الصفوية بين الباء (البت) والسين (السامك) ؛ ولكن الحرف الأخير تضاف له دائماً لاحقة تميّزه . وفى الصفوية يستعمل هذا الحرف للسامك وللسين فى آن واحد .

وتطور السامك الفينيقية إلى سامك سبئية مثل تطور الهاء . ولكنه ، كما هو الحال فى الهاء ، يُفترض شكل انتقالى هو « 王 » لايوجد إلا فى الأبجديات الإغريقية المهجورة .

العين — يوجد أحيانا خلط بين العين والجيمل الصفويتين . ونجد دائماً أن العين صغيرة ؛ أما الحرف الثانى فأشكاله كبيرة الحجم نسبيا ، ويبضوى ذو زوايا .

الغين — حرف ذو تكوين اصطناعى ، يظهر أن السبئيين قد اشتقوه من الكاف .

الفاء — إن اللحيانى والثمودى لا غنى عنهما لندرك كيف أن الفاء الصفوية قد اشتقت من الشكل السبئى . وهذا الحرف خير مثال لقانون التذبذب . فكانت الفاء الفينيقية أول الأمر مقفولة (مثلها مثل الجيمل الصفوية) ، ثم فتحت بعد ذلك وانتهت فى الصفوية إلى حرف أقرب إلى الفينيقية منه إلى السبئية .

الصاد — سنعود إلى الحديث عن تحول الصاد الفينيقية إلى صاد سبئية وهو تحول من العسير تفسيره .

الضاد — بما أن الظاء مشتقة دون ريب من الصاد السبئية ، فمن المظنون أن الضاد يجب أن تكون مشتقة من الطاء . والواقع أن الحرفين متقاربان جدا .

القاف — هذا الحرف من الحروف التى حوفظ عليها خير محافظة هو والعين والتاء .

الراء — تكونت الراء الصفوية من تحريف وقع لها مثل التحريف الذى أصاب الباء . وقد ضايق الصفويين أنفسهم ذلك التشابه بين الحرفين ، فكانوا يميزون غالباً الراء بإضافة شرطة صغيرة من أعلى وأخرى من أسفل .

الشين — تفرق الأبجدية السبئية بين السين والشين مثل العبرية تماما . وقد اشتقت السبئية حرفين من الشين الفينيقية . عدل أحدها فاشتق منه الحرف الإغريقى والحرف الفينيقى ؛ أما الآخر فقد أخذ منه شينان مهذبتان .

التاء — لا يكاد هذا الحرف يتميز من حرف الخاء فى الأبجدية الصفوية إلا بصغر حجمه .

الثاء — إن اللحيانية التى تبدو أنها قد احتفظت بالشكل البدائى تشرح لنا أصل هذا الحرف : إنه تاء قد زودت بخط عمودى مميز للحرف . لقد حول السبئيون الصليب الصغير الأعلى إلى حلقة . ولكن بما أنهم قد وقعوا بذلك فى شكل الياء ، فقد أضافوا من أسفل دائرة صغيرة إلى ساقة الحرف .

***

وعلى هذا نرى أن الحروف السبئية تكاد تبتعد دائما عن الحروف الفينيقية لدرجة أننا نرى من الضرورى افتراض أشكال متوسطة بين هذه وتلك . وفى بعض الأحيان كنا لا نجد أية وسيلة لاشتقاق حرف سبئى من حرف فينيقى مماثل له . ولهذا نرى بعض المتخصصين فى الدراسات السبئية قد أعرضوا عن اشتقاق إحدى الأبجديتين من الأخرى وافترضوا وجود أصل مشترك لهما[1]. والحل الذى سننتهى إليه سيحقق جزئيا هذا الفرض .

إن تعيين زمن النصوص المعينية والسبئية يعد على جانب كبير من الأهمية . فالترتيب الزمنى الذى وضعه من قبـل الأساتذة هومل وفنكلر وفيبر يعتبر من الترتيبات التى يسودها كثير من الشك ؛ لأن من التحكم أن نقرر أن قائمة ملوك المعينيين لا يمكن أن تكون أحدث من القرن السابع قبل الميلاد . ويستشهد على ذلك بعدم ورود ذكر للمعينيين فى الإنجيل ابتداء من ذلك التاريخ[2] . وهذا دليل سلبى ليس بأكثر قوة من الإشارات إلى المعينيين ؛ وهى تلك الإشارات التى يعتقد أنها ترجع إلى ما قبل تلك الفترة ، ولا تثبت إلا بتصحيح نصوص الحواليات ، وبهذا نفسه تصبح مشكوكا فيها شكا مزدوجا .

نرى فى التاريخ المعتمد أن ملوك المعينيين المعروفين فى النصوص ، والذين يبلغ عددهم خمسـة وعشرين ملـكا ، قد امتد حكمهم من القرن الرابع عشر إلى القرن السابع قبل الميلاد . ثم خلفهم الملوك السبئيون ، ولدينا منهم سبعة عشر[3] اسما . والمملـكة السبئية ينبغى أن ينتهى عهدها فى عام ١١٥ قبل الميلاد ، وهو تاريخ لبدء عهد جديد فى جنوب شبه جزيرة العرب . إنه دور ملوك الحميريين الذى كانوا يلقبون

---

(١) أوتوفيبر : « بلاد العرب قبل الإسلام » (الشرق القديم) ص ١٣ ,Otto Weber
Arabien vor dem Islâm (Der alte Orient, 3, 1)

(٢) فنكلر : « الـكتابات المسمارية والعهد القديم » ص ١٤٢ وما يليها . ,Winckler
Die Keilinschrifen und das alte Testament.

(٣) يقال إن الشخصيات السبئية التى تحمل لقب «مكرب» أو مقرب (أمير) قد جاءت قبل ملوك سبأ . وهو زعم لا يمكن تأييده بالبراهين وخاصة أن لدينا نصا يصف مقربا بأنه « ملك » ؛ قارن ديربنورج : فهارس الـكتابات السامية ، الرقمان ٣١١ و ٣١٢ .

« بملوك سبأ وريدان » . والمعروف لنا من هؤلاء الملوك ستة وعشرون ملكا حميريا يمتد عهدهم إلى سنة ٣٠٠ بعد الميلاد . ومنذ ذلك التاريخ حتى العهد الإسلامى ، كان الملوك يلقبون « بملوك سبأ وريدان وحضر موت واليمن » .

إن التاريخ القديم الذى يرجعون إليه النصوص المعينية لا يمكن أن نقبله ، لأننا إذا قبلناه فإن معنى هذا أن المعينيين كانوا يستعملون الهجاء فى وقت لم يكن الهجاء قد اخترع فيه بعد .

وإن الخاصة الوحيدة التى تتيح لنا أن نرجع النصوص المعينية إلى عهد عريق فى القدم هى ذكر بلاد آشور[١] . ومن ناحية أخرى فإن نص سرجون ، الذى ذكرناه من قبل ، يبرهن على أن ملوك سبأ يرجعون إلى زمن أحدث عهداً . ولكن لم يرد أى دليل على أنهم تسلموا مقاليد الحكم بعد انقضاء أسرة المعينيين . وعلى الجملة فإننا لا نتجاوز التقاليد التاريخية إذا أرجعنا مؤقتا أقدم النصوص المعينية إلى القرن الثامن قبل الميلاد[٢] .

كانت الأبجدية الفينيقية فى تلك الفترة لم يعتورها تبديل أو تغيير . فكيف تبدلت إلى كتابة معينية — سبئية بقيت دون تغيير حتى أواخر عهد المملكة الحميرية ؟ ويبدو أنه لا غنى لنا من أن نفترض وجود أبجدية وسطى بين الهجائيين الفينيقى والمعينى — السبئى ، لنستطيع تفسير الفارق الكبير الذى يوجد بين الحروف ، مع الأخذ دائماً بأن الأبجدية الفينيقية هى الأبجدية الأصلية . ومن اليسير أن نثبت أن هذه الأبجدية الوسطى ما هى إلا الأبجدية الإغريقية المهجورة .

ويكفى فى الواقع أن نثبت قائمة تظهر فيها الحروف الفينيقية فى طرف والحروف السبئية المماثلة لها فى الطرف الآخر . وبين هذه وتلك قيدنا أولا الأشكال الوسطى المثالية التى حملتنا دراستنا السابقة على أن نفترضها ، ثم أثبتنا بعد ذلك الحروف

---

(١) النقش الهام الموجود فى هليفى ٥٣٥ والذى يقابل رقم ١١٥٥ فى جليزر . وتوجد له ترجمة فى o.c. : O. Weber ، ص ١٥ و ١٦ — إن إطلاق اسم آشور على إيدوم ، والذى يمتدحه الكثيرون من العلماء الألمان ، لا يستند إلى أى أساس علمى .

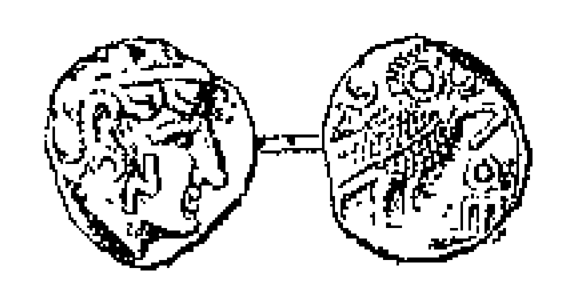
(٢) انظر ما سبق فى ص ٦٤ .

الإغريقية القريبة من هذه الأشكال الوسطى . وعلى هذا نرى أن العمودين اللذين حصلنا عليهما متماثلان (انظر شكل ١٧) .

السبئية	اليونانية	أشكال وسطى مفترضة	الفينيقية	العبرية
𐩱	Α	Α Α	𐤀	א
𐩨	ᒉ ∼	𐤁 𐤁	𐤁	ב
𐩬	Γ		𐤂	ג
𐩵		Δ	𐤃	ד
𐩠	Ǝ	Ǝ Ш	𐤄	ה
𐩥	Φ = φ		𐤅	ו
𐩸	Ζ	Ζ	𐤆	ז
Ψ saf. Ψ	Υ, Ψ = χ	Ǝ Ш	𐤇	ח
𐩷	⊕ ⊞	⊞	𐤈	ט
𐩺	ϩ ⸀ ı	ϩ ⸀	𐤉	י
𐩫	Κ		𐤊	כ
𐩡	ᒧ		𐤋	ל
𐩣	Μ (carien)		𐤌	מ
𐩪	Ν		𐤍	נ
𐩯	Ξ	Ξ Ж	𐤎	ס
𐩲	Ο		𐤏	ע
𐩰	Γ	Λ ◊	𐤐	פ
𐩮 𐩮	Τ Μ		𐤑	צ
𐩤	Φ		𐤒	ק
𐩧 𐩧			𐤓	ר
𐩦	Σ		𐤔	ש
𐩩	Χ		𐤕	ת

شكل ١٧ — مقارنة بين الأبجديات الفينيقية واليونانية المهجورة والسبئية

فضلا عن هذا ، وهو البرهان القاطع ، نرى أن الأبجدية الفينيقية فى كثير من الحالات لاتحل لنا الأشكال السبئية ، بينما نرى فى الإغريقية المهجورة أشكالا مقاربة إن لم تكن مماثلة لها تماماً .



شكل ١٨ — نقود حميرية عليها طابع أثينا(١)

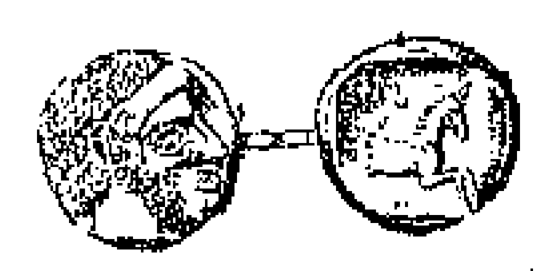
وعلى هذا فالياء السبئية سواء أنظرنا إلى الحلقة العليا على أنها قفل لمشبك للرأس أم أنها أضيفت كنوع من النقط إلى الخط ا الذى نجده فى بعض الأبجديات الإغريقية المهجورة . ومما لاريب فيه أن الحلقة فى الشاء السبئية لها قيمة النقط . وهذه الحلقة نفسها تظهر فى الصاد دون أن نجد لذلك تفسيراً مقنعاً . ونحن لا نعتقد أن الصاد السبئية قد اشتقت من الصاد الفينيقية ، ولكن على الأصح من « السان » التى احتفظت بها الأبجديات الإغريقية فى آسيا الصغرى زمنا طويلا فى شكل T . ويلاحظ أن شكلى السان يطابقان شكلى الصاد . وهناك تقاربات أخرى تدل أيضا على هذه الصلة وتوطد الانسجام ، مثل الطاء فى شكلها المربع ووضع اللام والشين . والميم السبئية قريبة جدا من « مو » الكرياوية (ومع ذلك فهناك شبهة من الشك حول قيمة هذا الحرف الأخير) .

---

(١) بيلون : الفرس الأكمينيون ؛ Les Perses Achéménides : Babelon س ٦١ ، شكل ٢٠ وفهرس رقم ٣٢٤ — رأس أثينا إلى اليمين ، يتدلى شعرها مجدولا تحت طاقية زينت بتاج من غصون الزيتون ، وتتدلى حلقة كبيرة من الأذن ، وعلى الخد حرف النون الحميرى . وفى الظهر : V⦿E(بدلا من A⦿E) . بومة أثينا . فى الحقل ، إلى اليسار ، هلال .

إن الأبعاد التى أعطيت للحلقة التى تحت الأذن ، تتيح لنا أن نتساءل عما إذا كان النحات يرمى إلى رسم عين حميرية . هذا الفرض تؤيده نقود أخرى من نفس النوع تملكها أيضاً إدارة الأوسمة . هذه القطعة من النقود ، التى لم تكن معروفة من قبل والتى تفضل الأستاذ ديودونيه بإطلاعى عليها ، تتضمن الحرفين النون والياء الحميريين على الوجه مستقيمين ، وفى الناحية الأخرى طغرة حميرية . من هذا البيان ومن نوع البومة أيضاً توضع هذه النقود بين النوع الذى وصفناه وبين النقود الحميرية الخالصة ذات السمك الرفيع .

ويجب أن نضيف إلى هذه الاعتبارات ملاحظتين هامتين أبداهما الأستاذ



شكل ١٩ — ا ر . نقود منسوبة إلى غزة(١)

براتوريوس(٢). فهذا العالم المتخصص فى الساميات يرى أن الواو ⦶ والهاء Ψ (الصفوية \/|\/) السبئيتين لا يمكن أن تكونا مماثلتين إلا للحرفين ⦶ ($= \varphi$) و Ψ ، ω ($= \chi$) البدائيين فى بعض الأبجديات الإغريقية . وإن المقابلة لدقيقة فيما يختص بالواو وهى التى لم يستطع أحد تقديم أى تفسير لها . وقد استنتج الأستاذ براتوريوس من هذا أن الحرفين قد استعارهما اليونانيون من السبئيين ؛ ولكن يبدو أن الفرض العكسى هو الأصح .

والواقع أن اليونانيين لم يستعيروا فقط هذين الحرفين بل استعاروا الأبجدية كلها ، وذلك استناداً إلى المقارنات التى قدمناها فى شكل ١٧ . وبعبارة أخرى ، يجب أن ينسب اختراع الهجاء إلى المعينيين — السبئيين . ولكن الفرض الآخر نجد فيه نفس الصعوبات حين ندلل على أخذ الهجاء الفينيقى من الهجاء السبئى .

وإذا سلمنا بأن الهجاء الفينيقى هو أصل الأبجديات ، كما قلنا من قبل حتى الآن ، فإننا نجد أنفسنا أمام افتراضين :

---

(١) رأس رجل ذى لحية إلى اليمين ، العين على الجهة المرسومة عليها الطغراء ، وقد حسر الشعر بعصابة ورمز إليه بحبيبات مبعثرة .

وفى الظهر : حرفان فينيقيان : ع V . صورة حصان تبدو على رأسه خصلة من الشعر ، راكضا إلى اليمين . أما تحبيب النقود فيوجد فى مربع مفرغ .AR — ١٣ مليمتر ؛ ٣ر٦٢ جرام . دراخمة أتيكيه . هذه القطعة من مجموعتى وهى عبارة عن تنوع لعملة بابلون ، الفرس الأكمينيون ، ص ٤٩ ، رقم ٣٣٥ ، اللوحتان ٨ ، ١١ . وتتميز بالشعر الذى لم ينسق فى خطوط متوازية . ويبدو أن ما نراه فوق رأس الحصان خصلة من الشعر وليس قرنا وذلك بمقارنته ببابلون ، نفس المصدر ، اللوحتان ٨ و١٣ .

(٢) براتوريوس : ZDMG ، ١٩٠٢ ، ص ٦٧٦ — ٦٨٠ ، ١٩٠٤ ص ٧١٥ — ٧٢٦ .

(١) إما أن الأبجدية الفينيقية قد طرأ عليها تغيير سريع ، فتحولت منذ القرن الثامن قبل الميلاد إلى الأبجدية السبئية ؛ ولـكن هذا التحول السريع ، الذي يشبه تماماً التحول الذي أنتج الأبجديات الإغريقية المهجورة ، لم يترك أي أثر .

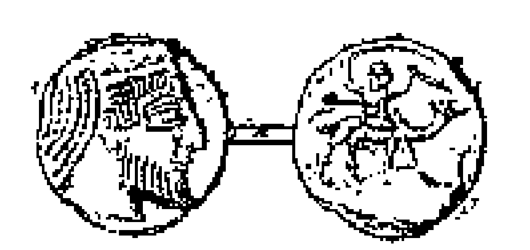
(٢) أو أن الأبجدية السبئية قد اشتقت رأساً من هجاء إغريقي مهجور . وهذا الفرض الثاني الذي يبدو لنا أقرب إلى الصحة يفسر لنا تفسيراً طبيعياً مابين أل phi الإغريقية العتيقة والواو السبئية . وهو مابرهن عليه بريتوريوس أتم برهان.

والنتيجة التي نصل إليها تفترض قيام علاقات تجارية مباشرة ومتوالية بين جنوب بلاد العرب وبين الأقطار الإغريقية منذ زمن قديم جداً . وليست هناك أية صعوبة في تصور تلك العلاقات ، ما دمنا نرى السبئيين في القرن الرابع قبل الميلاد يضربون نقوداً على مثال العملة في أثينا (شكل ١٨) .

وكانت ميناء غزة على الأخص هي مكان التبادل بين السبئيين والإغريق . وقد نسبت بحق إلى هـــذا المـكان التجاري الهام ، الذي يصفه بلوتارك بأنه أكبر مدينة في الشام . وهي نقود فيها مزج غريب من الطابع الإغريقي والطابع الشرقي (انظر شكلي ١٩ و ٢٠) . ويرد ذكر غزة في النقوش السبئية . ومن جهة أخرى فإن وجود جالية كبيرة من جزائر بحر إيجه ، وخاصة من جزيرة كريت ، في زمن سابق لاختراع الهجاء يعد أمراً لاريب فيه . وظلت الذكرى محتفظا بها في العبادة المحلية في غزة : فالإله مارنا هو الإله زوس عند أهل كريت ، وأخذ اسم مينوس ليطلق على مدينة غزة فسميت بذلك مينوا Minoa . وهناك قصة أخرى تربط اسم هذه المدينة باسم Io . وقد استعملت النقود التي ترجع إلى العهد الروماني هذه الأنواع الخرافية . وديودور الصقلي (الثالث ، ٤٥ ، ٥) ، الذي أيدت الاكتشافات الحديثة رواياته ، يؤكد هذه الأدلة حين يسجل رأي بعض الجماعات العربية التي كانت تقول بأنها متصلة بالبيوسيين في أسيا الصغرى وبالبلوبونيزيين في بحر إيجه منذ زمن البطل القصصي هرقيل .

* * *

لقد أخذنا حتى الآن بالرأى السائد وهو أن الأبجدية الفينيقية هى أصل الأبجديات كلها . ومنذ بضع سنوات أخذت الدراسات التى تتناول أصل الهجاء وطريقة انتشاره تزيد المسألة تعقيداً وتبين ضآلة الحلول التى توصل إليها من قبل .



شكل ٢٠ — نقود منسوبة إلى غزة(١)

حينما عرف شامپليون أن بعض العلامات فى الكتابة المصرية لها قيمة هجائية ، قرر فى الحال أن الأبجدية الفينيقية قد اشتقت من الكتابة المصرية الهيراطيقية . كانت فينيقيا تعد امتداداً للأراضى المصرية ، والآثار الفينيقية القليلة تدل على تبعية الفن الفينيقى التامة للفن المصرى . ومع ذلك ، فإن إمانويل دى روجيه لم يستطع البرهنة على ذلك إلا عام ١٨٥٩ فى كتابه « بحث فى الأصل المصرى للكتابة الفينيقية » الذى لم يظهر إلا عام ١٨٧٤ بقيت هذه الدراسة قاعدة فى هذا الصدد .

وحينما سجل إمانويل دى روجيه ما بين الكتابتين من تقارب ، كان لا يعرف من الكتابات الفينيقية القديمة إلا ما وجد على تابوت اشمونزار . على أنه قد اكتشفت نقوش أقدم من هذه الكتابة بعدة قرون . فالمقابلات التى دونت لم تثبت صحتها . والأستاذ فيليب برجيه يقول : « وبوجه عام ، فإن الشبه الذى يوجد بين الفينيقية والكتابة الهيراطيقية تقل كلما رجعنا إلى أقدم صور الهجاء بدلا من أن ننكر هذا

(١) بلبون : الفرس الأكيمينون ، ص ٦٤ ، ص ٥١ ، رقم ٣٤٤ ، اللوحة ٨ ، الشكل ١٩ — رأس رجل ذى لحية ومتوج — إلى اليمين ، العين مواجهة ، والشعر والذقن قد رسما فى خطوط متوازية .

أما الناحية الأخرى ، فيرى عربى فوق جمل ، إلى اليمين ، رافعا ذراعيه وقابضا بيده اليسرى على حربة . ويبدو أنه قد أصيب بسهم فى خاصرته . وأمامه نخلة أو حرف . أما الجزء المكسور ففيه نتوء حل محل الكتابة . وإذا كان ظهر هذه العملة يدلنا على وجود عربى جريح هارب كما نظن ، فينبغى لنا أن نتخلى عن التعرف على ملك عربى فى الناحية الأخرى من هذه القطعة .

الشبه تماما(١) . » وتنطبق نفس هذه الملاحظة على الجدول الذى عمله الأستاذ ماسپيرو ثم عدله(٢) بعد ذلك .

ويذهب الأستاذان ليڤى دى برسلاو وهليڤى إلى أن الفينيقيين قد أخذوا هجاءهم لا من الكتابة الهيراطيقية ولكن من الهيروغليفية المصرية . وعلى هذا ، فقد وجد جوزيف هليڤى أربعة عشر حرفا فينيقيا ، ومن هذه الحروف الأصلية استنتج الحروف الثمانية الباقية . فالحاء مأخوذة من الهاء بإضافة خط لها ، وهو ما يمكن التسليم به تجاوزا . ولكن لم يبين السبب الذى من أجله أخذت الدال من الراء ، وما ذلك إلا لأن النظرية التى انبنى عليها هذا الرأى ليست من القوة بحيث تبين لنا أخذ الدال من الأشكال الهيروغليفية المصرية .

وإذا دققنا النظر ، فإننا نجد أن الحروف الهيراطيقية التى قال بها إمانويل دى روجيه والعلامات الهيروغليفية التى ذكرها جوزيف هليڤى لاتشابه إطلاقا الحروف التى تقابلها فى الأبجدية الفينيقية . إنها لأكثر شبها بتلك الحروف التى لاتقابلها .

ولكن لماذا نحدد نصيب الفينيقيين فى اختراع الكتابة بثمانية حروف فحسب ؟ يرى الأستاذ پلشر أن الفينيقيين كانوا قوما على جانب كبير من المهارة ، حين أوجدوا أربعة وعشرين تركيبا مستمدة من الخطوط . ويكفى لديه للبرهنة على ذلك أن ترتب الحروف الفينيقية من البسيط إلى المركب :

---

(١) فيليب برجيه : تاريخ الكتابة ، ص ١٢٠ .

(٢) ماسپيرو : التاريخ القديم لشعوب الشرق الكلاسيكى ، ج ٢ ، ص ٥٧٥ . وبناء على هذه الصورة فى الكتابة ، يكون الفينيقيون قد أخذوا الجيم والكاف من حرف واحد مصرى ، وكذلك الحال فى الصاد والزاى والهاء والحت . ولا يقال من أين أتت العين . ولا يقتصر الأمر فحسب على أن بعض أشكال الحروف لم يرد ذكر استعمالها فى الهجاء الفينيقى ، وهى الأشكال المهجورة الاستعمال ، ولكن بعض الحروف قد وردت مثل القاف وهى لم تستعمل إطلاقا فى الفينيقية . ونظرا للافتراضات الكثيرة ، فإن النتائج التى وصل إليها الأستاذ ماسپيرو مشوبة بالحيطة حين يقول : « من العسير أن نتعرف على الحقيقة وسط هذا العدد الكثير من النظريات المتعارضة ؛ غير أن هناك نقطتين فحسب تمدان على جانب كبير من الحق وهما : أن الكتاب الكلاسيكيين يكادون يجمعون على أن الفينيقيين هم أول من حاز شرف استعمال الأبجدية الأولى وأن الأبجدية الإغريقية مأخوذة من الهجاء الفينيقى » .

والبحث فى كيفية تصور الحروف الهجائية يبعدنا عن المشكلة الأصلية . فاختراع الهجاء ، الذى يعده رينان أهم اختراع للذهن البشرى ، لم يكن يتكون من تركيبات من الخطوط ولكنه أهم من ذلك فهو ينحصر فى تحليل الكلام إلى أصوات بسيطة . ولم يكن فى الاستطاعة الوصول إلى ذلك بغتة ، بل بحذف العلامات المقطعية فى كتابة صوتية .

+ ‎ ⊹(ᗅ) ⫸ ˥ ᖷ(ᖽ) Ƶ ᕋ ᖶ etc...

وهذا ماعمله الفرس فى القرن السادس قبل الميلاد ، فقد أخذوا من الطريقة المسمارية ستة وثلاثين حرفا هجائيا . ومما لاريب فيه أن الفينيقيين قد أخذوا أول الأمر بنوع من الكتابة تثبت الأصوات المقطعية والأصوات الهجائية ؛ فحذفوا الأولى واحتفظوا بالثانية .

وإذا كانت البرهنة على الأصل المصرى للكتابة ليست قاطعة ، فإن إثبات الأصل المسمارى لها (وهو ما قال به الأستاذ ديك) قد أعرض عنه تماما . ومحاولة الأستاذ هومل فى البحث عن أصل الهجاء فى أوضاع النجوم والبروج ، تصطدم بنفس الاعتراض الذى اصطدمت به نظرية بلشر . فالفينيقيون لم يتعلموا استخلاص الحروف الساكنة صوتياً من تأمل النجوم . والشك الذى يعم هذه المسألة ويحيط بها قد عبر عنه الأستاذ ليتسبرسكى فى الخاتمة التى انتهى إليها . فهذا الأستاذ فى الساميات يرى لعدم وجود أدلة قاطعة ، أن الأبجدية الفينيقية قد استعيرت من الكتابة المصرية وقام بكتابتها رجل كنعانى لم يكن ذا دراية تامة بطريقة الكتابة المصرية فلم يأخذ منها إلا عددا صغيرا من العلامات واشتق الباقى من هذه العلامات . ولو أنه كان يعرف الكتابة المصرية معرفة تامة ، لما كان فى حاجة إلى اختراع أية علامة من العلامات ، ولطبق النموذج الذى أمامه تطبيقاً تاما كما فعل الفرس حين طبقوا الكتابة البابلية على لغتهم[1] . هذه النظرية المؤقتة تعد قريبة من نظرية الأستاذ

(١) ليتسبرسكى : مجموعة من النقوش السامية Ephemeris ، الجزء الأول ، ص ١٣٤ — ١٣٥ .

هليڤى ، غير أن الأستاذ ليتسبرسكى لا يدخل الحروف الهيروغليفية المصرية فى نظريته .
ولكن هل من المعقول أن فى مقدور رجل لا يعرف الكتابة المصرية إلا معرفة قاصرة ، ويتمكن مع ذلك من أن يستخدمها ثم يبتعد عنها فى نفس الوقت ؟ ويمكن القول بأن معرفته الناقصة كانت تحمله على أن يقلد حرفياً الكتابة المصرية ؛ ولكننا نجد أنفسنا دائما تجاه الاعتراض الأساسى للمأخوذ من صعوبة ، ليست هى اختراع العلامات ، ولكن من التفرقة صوتيا بين الاصوات البسيطة .

ولا يزال مجال البحث مفتوحا لافتراضات جديدة . ولكن منذ عام ١٩٠٠ ، أمدتنا الاكتشافات العجيبة التى حدثت فى جزيرة كريت بنتائج لا يتطرق إليها الشك فيما يختص بهذه المعضلة الخداعة . فاسم مينوس ، أو على الأقل الحضارة التى يمثلها ، قد خرج من دائرة الخرافة إلى حيز التاريخ الصحيح . ذلك أن أطلال كنوس ، التى ترجع إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد ، قد أمدتنا بألوف من الألواح كتبت عليها نقوش بحروف غير معروفة لنا . وقد تعرف الأستاذ إيڤانس على ثلاثة أنواع من الكتابة فضلا على ما تعرف عليه من نظام عشرى للعدد . وأول هذه الكتابات وهى أقدمها الكتابة التصويرية pictographique وثانيتها يقال إنها كتابة هيروغليفية وثالثتها كتابة خطية (linéaire) وهذه الأخيرة تنقسم إلى قسمين ا و ب ، القسم الأول منهما لا يزال يحتوى على بعض علامات هيروغليفية .

والتشابه الذى يوجد بين عدد كبير من الأربع والثلاثين علامة التى فى الكتابة الخطية ، والتى عزلها الأستاذ إيڤانس ، وبين الأبجدية الفينيقية قد حمل هذا العالم ، صاحب الفضل فى اكتشاف كنوس ، إلى افتراض أن الكتابة الإيجية قد دخلت فلسطين مع أغراب هاجروا إليها من جزيرة كريت . وبمخالطتهم للفينيقيين ، تعلم هؤلاء عنهم طريقة الكتابة الكريتية ثم اشتقوا منها أبجديتهم[1] .

هذا الافتراض ، لأنه ليس إلا فرضا فحسب ، يستحق الوقوف عنده ؛ لأننا من جهة أخرى لم نصل بعد إلى تحديد أصل الهجاء الفينيقى . والمقارنة بين الحروف

(١) Fries, Salomon Reinach, Evans .

الإبجية والحروف الفينيقية ستظل دون ريب غير محققة ، ما دامت قيمة الحروف الإبجية لم تحدد بعد .

وعلى الجملة ، فيجب علينا أن نترك مؤقتا أصل الهجاء دون أن نبت فيه ؛ ولكننا نستطيع أن نواجه مشكلة ، لدينا عنها وثائق مؤكدة ، ألا وهى مشكلة انتشار الهجاء .

ما هى الأبجدية الأصلية وكيف انتشرت ؟

من المتفق عليه ، حتى عند الأستاذين إيفانس وسلومون ريناخ[1]، أن الأبجدية الأصلية هى الأبجدية الفينيقية التى اشتقت منها الأبجديات السامية واليونانية . أما فيما يختص بالأبجدية السبئية فقد رأينا أنها أشد صلة بالأبجديات اليونانية منها بالفينيقية ؛ وإذا كانت الأبجديات اليونانية قد أخذت من الفينيقية ، فنحن مضطرون إلى قبول التتابع التالى : الفينيقية ، اليونانية ، السبئية . ولكن بما أن اليونانيين كانت لهم كتابة منذ زمن طويل ، فليس من المؤكد بالأحرى أن الأبجدية الفينيقية أقدم من الأبجديات اليونانية . ومع ذلك فعلينا أن نثبت هذا الرأى على الأقل .

وتساق الأدلة التالية[2] لإثبات أن الأبجدية الإغريقية تابعة للأبجدية الفينيقية :

١ — مطابقة الحروف الأصلية بعضها لبعض .

٢ — ترتيب الهجاءين متماثل فى الأبجديتين ؛ والحروف الإغريقية التى يطلق عليها « حروف إضافية » قد وضعت بعد التاء .

٣ — التقليد الذى سار عليه المؤلفون الكلاسيكيون .

٤ — الأسماء السامية التى سميت بها الأبجدية الإغريقية .

---

(١) L'Anthropologie : S. Reinach ، عام ١٩٠٢ ، ص ١٠ : « الأبجديات المستعملة اليوم عند الشعوب المتحضرة قد أخذت كلها من الأبجدية الفينيقية : إن هذا الأمر كثيراً ما برهن على صحته وقد أصبح لا يجادل فيه » .

(٢) لقد قدمنا موجزا لهذا النقاش فى الجمعية الأسيوية يوم ١٠ مارس سنة ١٩٠٥ ؛ انظر المجلة الأسيوية ، ١٩٠٥ ، ج ١ ، ص ٣٥٧ — ٣٦١ .

يبين لنا الدليل الأول أن الأبجديتين الفينيقية واليونانية قد ارتبطت إحداها بالأخرى فحسب .

والترتيب الهجائي يتطلب بضع ملاحظات : إنهما متطابقتان إلا فى بعض الجزئيات . فالهجاء الإغريقى ، بترتيب حروفه وبالقيمة العددية لهذه الحروف ، يتفق على وضع الحروف المسماة التكميلية بعد التاو . ويبدو أن هـذا النظام الهجائى من وضع جماعة بشرية واحدة ، إما إغريقية أو فينيقية ، كانت لا تستعمل هـذه الحروف التكميلية .

ومع ذلك ، فهناك فارق يسير بين النظام الإغريقى والنظام الفينيقى ؛ فالإبسيلون التى كانت تقابل الواو لم تكن تشغل مكان الواو وإنما توضع بعد التاو وأخذت الديغاما مكان الواو . وقيمة هذه الملاحظة تظهر فى أنه فى العهد الذى رتب فيه الهجاء الإغريقى على مثال الهجاء الفينيقى ، كان حرف الديغاما أخذ صوتيا قيمة الواو الفينيقية ، أما قبل ذلك فقد كان حرف الإبسيلون هو الذى عاثل الواو قديما . وفى هـذه المرحلة ، لم يعـد لحرف الإبسيلون ما يماثله فى الأبجدية الفينيقية فوضع بعد التاو .

ولا يمكننا أن نستشهد بالأدلة القديمة لأن بعضها يعارض البعض الآخر . فـكير شهوف ، وإن لم يفطن إلى هذا التعارض ، لم يخدع فى قيمة المعلومات التى تستمد من المؤلفين الـكلاسيكيين فيما يختص بأصل الهجاء إذ يقول : « إن الأمر الذى يعد تاريخيا حقاً والذى نقلته لنا الروايات القديمة ، هو أن الأبجدية الفينيقية أصل الهجاء الإغريقى ؛ ولـكننا سنجد أنفسنا مضطرين إلى ترك هذه المسألة معلقة لا نبت فيها إذا لم نجد أنفسنا فى حالة تسمح لنا بأن نصدقها وبأن نبرهن على أنها صحيحة . إن معرفتنا بالأبجدية الفينيقية هى التى جعلتنا نأخذ بهذا الرأى ، فمنها وحدها ، لا من الرواية القديمة ، يمكن أن نستمد هذا التأكيد[1] » .

ومع ذلك فالقدماء أنفسهم قد احتفظوا بذكرى الـكتابة السينية وأهل كريت ،

---

(١) أ . كيرشهوف : دراسة فى تاريخ الأبجدية الإغريقية Studien zur Geschichte des griechischen Alpahbets : A. Kirchhof ، عام ١٨٨٧ ، ص ١ .

الذين كانوا يستعملونها أكثر من غيرهم بصفة خاصة ، قد عزوا اختراع الهجاء لأنفسهم . ويطيل الأستاذ سلومون ريناخ الوقوف بصفة خاصة عند الفقرة التي أوردها ديدور الصقلي (٥/٧٤) والذي ينسب إلى الفينيقيين فيها تحويراً في الكتابة لا اختراعا لها . إذ يقول ديدور : « هذه الكتابة المعدلة قد أصبحت كتابة غالبية الناس ، وبهذا نستطيع تفسير الدلالة المستعملة عند الإغريق (للحروف الفينيقية[١]) » .

ويمكننا أن نضيف إلى هذا الدليل الخطير نصا آخر قد سبغت عليه الاكتشافات الحديثة في كريت قيمة كبيرة لم تكن متوقعة : ذلك أن الأستاذ سويداس يعلق على كلمة الحروف الفينيقية بقوله : « إن الليديين والأيونيين يزعمون أن الحروف قد سميت فينيقية نسبة إلى مخترعها فوانكس Phoinix ابن أجينور . ويقول الكريتيون ردا على هذا إن الحروف قد سميت فينيقية جريا على العادة التي كانت متبعة وقتذاك من تدوينها على سعف النخيل حين اخترعت » . وليس هذا اشتقاقا خياليا لأن أولئك الذين يكتبون على النخيل قد أخذوا اسمهم من سعف النخيل الذي كان استعماله كمادة من مواد الكتابة قد احتفظ به حتى العهد الكلاسيكي لتدوين التنبؤات الغيبية لأبللون وللقوانين المرعية بالمعابد[٢] » .

وقد بقي لنا أن نناقش الدليل الأخير ألا وهو الاسم الفينيقي للحروف الإغريقية . وهنا ، كما في الترتيب الهجائي ، نستطيع أن نقبل أثر الفينيقيين[٣] ؛ ولكن هذا لا يترتب عليه أنهم أخذوا الشيء واسمه . فإذا اعترفنا مثلا أن الكلمة الإغريقية « بيتيليه » (الحجر المقدس) ذات أصل سامي ، فمن المؤكد مع ذلك أن السكان

---

(١) Salomon Reinach : Témoignages antiques sur l'écriture mycénienne, dans l'Anthropologie ص ٤٩٧ — ٥٠٢ ، عام ١٩٠٠ .

(٢) Athenische Mittheilungen, Roscher's Lexikon II, 892. ج ١٤ ، ص ٢٥٤ و ج ١١ ، ص ٢٨٨ وقارن الطريقة الصينية في الكتابة على صفيحات الغاب الهندي .

(٣) نولدكه : أسماء الحروف السامية في كتابه : دراسات في علم اللغات السامية ص ١٢٤ — ١٣٦ وفيه يرفض أي تدخل آرامي في أسماء الحروف الإغريقية .

المقيمين ببلاد الإغريق قد عظموا بيوت الله قبل أن يستعيروا الكلمة السامية . فنحن نشاهد كل يوم عادة قديمة يخلع عليها اسم أجنبي فتتخذ رنة جديدة . وعلى هذا ، نستطيع أن نتعرف على الصيغة السامية من الأسماء التي تتسمى بها الحروف الإغريقية ، دون أن نستنتج من ذلك الأصل الفينيقي للهجاء الإغريقي .

وآخر محاولة لبيان أن أسماء الحروف من أصل فينيقي ترجع إلى الأستاذ ليتسبرسكي[1] . فهذا العالم المتخصص في الساميات يلاحظ بحق أنه من الخطأ أن نعتقد أن الأسماء السامية للحروف هي التسمية البدائية لها . والواقع أن طريقة ضبط هذه الأسماء قد طرأ عليها ، دون ريب ، تغيرات صوتية نظرا لطول استعمالها وحتى من أثر امتهان معناها[2] . وعلى هذا ، أخذ ليتسبرسكي يبحث في المعنى البدائي لأسماء الحروف ، حتى على الرغم من التحريفات الكبيرة التي لم يمكن إثباتها بصورة قاطعة . ومن بين الحلول المقترحة ، فإننا نرتضي منها حلين اثنين : هما اللذان نعني بهما عناية خاصة . يظن أن شكل اللام الفينيقية القديمة كان على صورة منخاس للثيران . على أن المنخاس كان لا يسمى لَمِدْ ولكن كان يطلق عليه مَلْمَدْ أو مَلْمِدْ . وعلى هذا فيجب أن نقبل أن الكلمة التي أوحى بها شكل الحرف قد خضعت لمبدأ الأكروفونيا[3] .

ألا يبرهن هذا أيضاً على أن الفينيقيين لم يكونوا أحراراً في اختيار أسماء حروفهم ؟ ويقترح ليتسبرسكي تفسير الشكل البدائي للقاف بخوذة بها مغفر ، ويطلق هذا أيضاً على معنى هذا الحرف ؛ فلنقبل هذا الرأي . وقد لاحظ أن هذا النوع من الخوذات لم يظهر في بلاد الإغريق قبل القرن الرابع قبل الميلاد ، وقد اتخذ من ذلك برهانا قاطعا على أن الفينيقية هي أصل الحروف . قد يكون لهذا البرهان قدره وخطره لو لم يكتشف حديثا في جزيرة كريت أن الإيجيين قد عرفوا هذا الشكل من الخوذات منذ ١٥٠٠ سنة قبل الميلاد على الأقل[4] .

---

(١) ليتسبرسكي : أسماء الحروف الأبجدية ج ٢ ص ١٢٥ — ١٣٩ .

(٢) ليتسبرسكي : نفس المرجع ص ١٢٦ .

(٣) ليتسبرسكي : l.c. ص ١٢٨ .

(٤) ليتسبرسكي : l.c. ص ١٣٣ — ١٣٥ .

والواقع أننا نجهل ما إذا كانت أسماء الحروف من أصل يونانى أو فينيق . فحرف دلتا مثلا لا يدل على شيء فى اليونانية ، على حين أن دالت معناها « احمل » ، وهذا ليست له دلالة بل على العكس من ذلك تماما . فإننا نرى عادة أن الجماعة التى تستعير اسم حرف تجعل هذا الاسم عرضة للتحوير حتى تعثر له على معنى فى لغتها . وعلى هذا فدلتا اسم لا معنى له ؛ ولكن السلاقيين حين أخذوه أطلقوا عليه كلمة دوبرو dobro ومعناها « الصنوبر » .

ومع هذا كله ، فنحن لا نستطيع أن نقول بأنه من الثابت أن أسماء الحروف قد اخترعها الفينيقيون . وإن كان هـذا الرأى لا يتجاوز فرضا معقولا . وإذا قبلناه فينبغى لنا ألا نرتب عليه أن أصل الأبجدية فينيق . والواقع أنه بجانب الأسباب التى سبق أن ذكرناها ، يجب علينا أن نضيف إليها أنه إذا اشتقت سيجما من سامك وسان من سين ، فإن هذا الاشتقاق لم يحدث إلا فى عهد فقدت فيه سيجما قيمتها الأولية وهى السين لتأخذ قيمة أخرى هى سامك ، وأصبحت فيه السان سينا بعد أن فقدت قيمتها البدائية وهى الصاد[1] . وقد حدث هذا دون ريب فى فترة متأخرة عن الزمن الذى نظن أن الإغريق قد استعاروا فيه الهجاء . وبما أن استعارة أسماء الحروف لا تستلزم استعارة الهجاء ، فلا نستطيع إذن أن نزعم أن الأمر الأول يتطلب الأمر الثانى[2] .

والأدلة التى تساق لتأييد أبجدية فينيقية نموذجية ، تلك الأدلة التى ناقشناها ، كانت تكفى لو أننا أخذنا بالرأى الذى يقول بأن الإغريق لم يكونوا يعرفون الكتابة فى الألف الثانية قبل الميلاد . ومنذ أن برهن على أنهم كانوا يعرفون الكتابة معرفة جيدة ، فقد أصبحت هذه الأدلة ناقصة .

إن دراسة الهجاء ، وخاصة دراسة الأبجديات الإغريقية ، فى حاجة إلى إعادة

---

(١) قارن : Bulletins et Mémoires de la Société d' Anthropologie de Paris سنة ١٩٠٦ ، ص ١١٥ .

(٢) إن مقابلة هـذه الحروف بعضها ببعض قد عملت نهائيا بواسطة النظام الهجائى لفورمللو Formello الذى اكتشف عام ١٨٨٢ ؛ قارن المجلة الأسيوية ، عام ١٩٠٥ ، ج ١ ، ص ٣٥٧ ، هامش رقم ٢ .

النظر فيها . وأول ما يعمل ، يجب ألا نأخذ بالقاعدة التي وضعها أساتذة الكتابة الإغريقية ، وهي أن النقوش الإغريقية المكتوبة لا يمكن أن يرجع نقش منها إلى ماقبل القرن السابع قبل الميلاد . والأستاذ فروهنر ، الذي اعتمد فحسب على اعتبارات أثرية[1] ، قد رفض هذه القاعدة التحكمية .

* * *

وعلى الجملة ، فإن مسألة أصل الهجاء قد بقيت غير مقطوع فيها برأي . والأصل المصري لها ، الذي يعد راجحا حتى اليوم ، لم يثبت بعد تماما . وإزاء النتيجة السلبية التي انتهت إليها البحوث المتعلقة بهذا الموضوع ، هناك مجال كبير لوضع الأصل الإيجي موضع الاعتبار . وإذا أخذنا بهذا الفرض ، فإن دور الفينيقيين يصبح على أكثر تقدير مقصوراً على عودتها إليهم كعودة الكرة إلى ضاربها .

والنتيجة الوحيدة المؤكدة هي أننا نعتقد أنه ينبغي لنا أن نقترح الأصل اليوناني للأبجدية السبئية ؛ وهذه تحمل في طياته تأييدا جديا للأصل الإيجي للهجاء .

(١) Frolhner : Monuments Plot, ص ١٤٢ ؛ الجزء الثاني .

الفصل الرابع

اللهجة الصفوية

الخصائص النحوية للصفوية — أسماء الأعلام — العبارات الكثيرة الاستعمال فى النقوش — التطور اللغوى عند الصفويين تابع لتطورهم الاجتماعى — معلومات مختلفة مستقاة من النصوص الصفوية ومن الرسوم المنقوشة على الصخور .

اللغة الصفوية لهجة عربية قريبة من لغة القرآن ، أو هى عربية الكتابة كما يدل على ذلك أقدم نص يرجع إلى القرن الرابع الميلادى ، وهو نقش النمارة الذى سجلنا نصه فيما سبق .

وعلينا أن نبين الخصائص التى تستعملها الصفوية لنتمكن من قراءة النصوص . وسنرى فى نفس الوقت أن هذه الخصائص مردها تطور طبيعى ، والمعرفة الدقيقة لأحوال معيشة الصفويين ستتيح لنا تحديد الأسباب التى أوجدت هذا التطور .

والكتابة الصفوية لا تشير لا إلى حروف اللين الطويلة ولا إلى حروف اللين المركبة . وبعبارة أخرى ، كان الصفويون يكتبون دائما كتابة « ناقصة » .

فمثلا كلمة دار بحرف لين طويل كانت تكتب هكذا דר وفى حروف اللين المركبة نرى أن ثبات الكتابة فى نقصانها لا يرجع إلى نزوة من النزوات ، بل يشير إلى حالة متقدمة للتطور الصوتى . والواقع أننا نرى فى معظم اللغات السامية اتجاها إلى إدغام أصوات اللين المركبة التالية : ai تصبح ê أو ī و au تصبح ô . وهذه ظاهرة مشاهدة فى الفينيقية وفى العبرية . احتفظت اللغة العربية الفصحى بأصوات اللين المركبة ، أما الصفوية فقد أدغمتها تماما . يدل على هذا الكتابات الإغريقية لأسماء الأعلام الصفوية . ولكن قبل أن نسلل هذا يجب علينا أن نثبته :

ai — فى العربية الفصحى نرى مثلا كلمة « بَيْنَ » تكتب هكذا ، وفى نقش النمارة تكتب على الصورة التالية : בין

فى اللغة العبرية ، يوجد الإدغام فى ترنيم المساريين ، ولكن « اليود » القديمة قد احتفظ بها فى الكتابة : בין .

وفى الصفوية يتم الإدغام ، إذ يكتبون : בד . ويبدو هذا الوضع غريبا وخاصة أن اللغة العربية الحديثة لا زالت تحتفظ بحروف اللين المركبة فتقول « بَيْنَ » .

ومن ذلك أيضاً اسم العلم « تَيْم » يكتب فى الصفوية תם وينطق تِم Têm كما يدله على ذلك الرسم الإغريقى Θέμος[1] ثَيْمُسْ .

au — اسم العلم « أَوْس » يكتب فى الصفوية هكذا : אס . وإذا وجدنا الصيغة אוס كان هذا رسم التصغير «أُوَيْس» ، والواقع أن هذا الاسم يوجد فى نقوش طور سيناء بهذه الصورة : אוישו .

الحروف الضعيفة — إن الشذوذ الذى تقدمه الحروف الضعيفة فى الصفوية ليس إلا شذوذاً ظاهريا فحسب . وهذا الانحراف ، الذى يبدو فى بعض الحروف تحت تأثير أصوات اللين ، حدث أيضاً فى الكتابة العربية فى عهد قديم . وهذا الأمر قد حمل النحاة العرب على اقتباس تلك العلامة الاتفاقية وهى الهمزة .

وإن ثبات الهمزة كدعامة متوسطة بين الحرف الساكن المتغير وحرف اللين قد أدى إلى اعتبار الهمزة حرفا ساكناً حقيقياً . وغالبا ما يختفى الحرف الساكن فى الكتابة وتبقى الهمزة وحدها .

وعلى هذا فقد كان ينبغى أن تجمع الكلمة العربية راس منذ البداية على «راوس» لأن الألف أصلية . ولكن أثر الحرف اللين قد حمل الكتابة على أن ترسم الكلمة « رووس » وبقى النطق سليما . وحينما عمد النحويون العرب إلى كتابة نطق مخالف للواوين ؛ إحداهما لها قيمة الألف ، أخذوا الهمزة التى كانت قيمتها الاتفاقية هى ألا تجعل للحرف الساكن الذى تحتها أى أثر . وعلى هذا أصبحت الكلمة المذكورة فى المفرد رأس وفى الجمع رؤوس .

والصفوية تؤكد هذه الطريقة ، وتؤيد الدقة الشديدة التى راعاها النحويون العرب

---

(١) هناك رسم آخر هو Θαῖμος ، ولكن فى ذلك الوقت كان ai يدل على ē .

فى تقييد دقائق النطق . وعلى هذا فاسم الفاعل من سار هو ساير ، ولكنه كان ينطق بالهمزة ، ولذلك كتبه النحويون سائر وأضاعوا من الياء قيمتها كحرف ساكن . وكان الصفويون ينطقون هذه الكلمة كالنطق العربى تماما ، لأن الخطاطين الصفويين كانوا يكتبونها هكذا : סאר . ولا ينبغى لنا أن ندهش حين نجد فى الصفوية رسوما تبعد عن هذا الرسم مثل רגאי بجانب רגאי أو אחע بجانب יחע . ذلك أن الاستعمال الصناعى للهمزة يساعد على تفسير هذه الأشكال الشاذة فى الكتابة فحسب .

وآخر خاصية هامة فى الكتابة هى أنه يبدو لنا أن الصفوية ، كما فى السبئية ، كانت تدل على تشديد الحرف المائع بكتابته مرتين ؛ وعلى هذا فالشكل מבאל والشكل מבבאל يدلان على اسم علم واحد .

وسنجمع فيما يلى بعض ملاحظات فى علم البنية « المورفولوجيا » .

الضمائر الشخصية — المعروف أن الضمير المتصل المذكر للمفرد الغائب بهذه الصورة : ה . وربما كان الضمير المنفصل المذكر للمفرد الغائب . هو هكذا הה .

والضمير المتصل المذكر لجمع الغائب على هذه الصورة : הם .

الأسماء الموصولة — اسم إشارة أصبح اسماً موصولا هو : ד ذو بمعنى الذى .

واسم استفهام أصبح اسماً موصولا وهو מד أو מ بمعنى من .

الأداة — المعلوم أن مجموعة اللغات العربية الجنوبية (المعينية — السبئية) ليست بها أداة : وتحديد الكلمة يعينه التنوين . واللغة العربية بالمعنى الحقيقى تستعمل الأداة « أل » . أما مجموعة اللغات العربية الشمالية (اللحيانية ، الثمودية والصفوية) فتستعمل كأداة العلامة ה .

هل الأداة الصفوية مماثلة للأداة العبرية ؟ لا تزال هذه المسألة غير محققة بسبب أننا لازلنا نجهل الطبيعة الحقة للأداة العبرية . ربما كانت هذه الأخيرة مشتقة من الشكل البدائى הל « هل » وفى هذه الحالة تكون مماثلة للأداة العربية . ولكن ربما كانت الصورة البدائية هى « ها » .

هناك فرضان يمكن تطبيقهما أيضاً على الأداة الصفوية . أحدهما أن ה عبارة عن

إشارة خاصة للأداة العربية أل بإدغام دائم للام في الحرف الأول من الكلمة المعرفة . ويمكن أن يضرب مثلا لذلك الاسم المقدس شيع القوم الذى يكتبه النبطيون هكذا שיעאלקדם والذى ينطقونه شَيْع القوم أو شِيع القَوم . وإذا كان الصفويون يدغمون دائماً لام الأداة فهذا معناه أنهم كانوا يكتبون هذا الاسم هكذا שיעהקם ينطقونه شِيع هق — قَوم .

ومع ذلك فإن هذا الدليل لا يكفى وحده لنستبعد الفرض الثانى استبعاداً نهائياً ، ذلك الفرض الذى يذهب إلى أن الأداة الصفوية هى « ها » التى لها قيمة إشارية ، هى حرف تنبيه . وكانت الأداة العربية « أل » فى أول أمرها لها قيمة إشارية أيضاً لا تزال توجد فى بعض المصطلحات مثل اليوم بمعنى هذا اليوم أو اليوم الذى نوجد فيه .

ويجب أن نميز من الأداة علامة التعجب ה التى سنعود للتحدث عنها .

الأفعال — إن الأفعال التى نعثر عليها تكاد تكون مسندة كلها إلى المفرد المذكر الغائب . والخاصية الوحيدة التى تجب الإشارة إليها هى أن الأفعال التى يكون ثالث حروفها الأصلية حرف علة ، فإن هذا الحرف يتبعه حرف لين . وعلى هذا فالصفوية تكتب פמי وتنطقها فَمَى .

هناك أمر مشابه لهذا يتجلى فى יחתיר التى تدل على النطق يُخْتَيرُ لا يختار كما هو الحال فى اللغة العربية الفصحى[1] .

الحروف — إن الفرق الوحيد الذى يوجد بين الحروف الصفوية والحروف العربية يرجع إلى الكتابة الخاصة بالصفوية . فالأداة إلى تكتب هكذا אל وكذلك على تكتب על كما رأينا فى «بين» التى تكتبت على هذه الصورة : בן .

ويجب علينا أن نطيل الشرح فى حرف التعجب ה وفى حرف الجر ל «ب ، ل» . إن اللغة العربية الفصحى تستعمل خاصة ضمن حروف التعجب ، حرف النداء يا . وقد بين الأستاذان ليتمان وهليفى أن الصفويين يستعملون ה فى نفس الغرض . أما حرف الجر ל « ل » فنجده فى أول جميع النصوص الصفوية تقريباً ، وبما

(١) قارن D M . ٣٠٨ و ٣٦٢ .

أنه يسبق دائماً اسم علم ، فلا يمكن تفسيره إلا بلام الملك أو بلام الإسناد أو النسبة .

والأستاذ هليفى يعترف بالمعنى الثانى . ويجب أن يفهم أن النص قد نقش « بواسطة فلان بن فلان . . . الخ » . وبعض النصوص تعزز هذا الشرح ؛ إذ يوجد فيها النص الكامل : « بواسطة فلان نقش هذا النص » .

* * *

وتمدنا النصوص الصفوية بطائفة قيمة من أسماء الأعلام العربية الجاهلية التى تعد دراستها مفيدة ، لا فى اللغة فحسب ، بل يمكن استخلاص لمحات منها عن بعض المعتقدات الدينية .

إن ميزة أو نقيصة أو مصادفة أو مقابلة — تتنبه إليها عقول يقظة وإن لم تكن كبيرة الرقى أو دعاء للآلهة قد تسترعى انتباه الآباء ساعة ميلاد أبنائهم فتحدد الاسم الذى يحمله المولود . وبعد هذا قد تحل كنية أو لقب محل الاسم . ثم ينتقل الاسم أو اللقب إلى الولد أو الحفيد .

وتقسم أسماء الأعلام إلى قسمين كبيرين :

١ — الأسماء البسيطة وهى الأسماء المكونة من كلة واحدة ، اسما أو صفة أو فعلا .

٢ — الأسماء المركبة ، وهى الأسماء المبنية من عنصرين أو ثلاثة عناصر وتكون جملة .

والأسماء المركبة تنقسم بدورها إلى أسماء تبجل الله وأسماء لا علاقة لها بتبجيله .

الأسماء البسيطة : إن التفرقة بين الأسماء البسيطة والأسماء المركبة هى فى بعض الحالات أقل حقيقة مما تبدو عليه فى ظاهرها . فمثلا كلة ‏𐪆𐪋𐪃‏ « عطية » ليست إلا اختصاراً لكلمة ‏𐪆𐪋𐪃𐪀𐪁‏ « عطية الله » . غير أنه فى غالب الأحيان تكون الأسماء حقيقة بسيطة .

وهذا هو المشاهد فى تلك الطائفة المفيدة من أسماء الأعلام العربية المكونة من أسماء حيوانات أو نباتات أو معادن . على أن هناك أمراً غريباً عسير التفسير هو أن يسمى رجل باسم حيوان فى صيغة الجمع ؛ فمثلا ترى بجانب اسم العلم كلب ، الاسم كلاب . وقد فسر روبرتسون سميث هذه الأمور على أنها بقايا من الطوطمية معتمداً

فى تفسيره هذا على أن القبائل العربية تحتفظ بعادات على جانب كبير من البدائية .

والطوطمية حالة بدائية من الحضارة تعد القبيلة نفسها مرتبطة بنوع خاص من الحيوان أو النبات . أما النوع العام للحيوان أو النبات فيكون بمثابة طوطم القبيلة أى أصلها أو جدها . ومن بين القواعد التى تتبع فى حياة القبيلة ، يجب أن نذكر عدم ذبح الحيوان أو أكل النبات أو الحيوان الذى تنتمى القبيلة إليه ، ثم الزواج من خارج القبيلة أو تحريم زواج أفراد يتسمون باسم طوطم واحد[١] .

والديانة الطوطمية تحتوى على مظاهر معقدة منها الغناء والرقص والصلاة ووجبات تناول القربان . . . وما إليها من المعتقدات التى تدور حول فكرة أن حياة القبيلة ورغدها مرتبطان بحياة الطوطم ورغده .

وإذا قبلنا الرأى القائل بأن الساميين قد مروا بالحالة الطوطمية ، فليس من العسير إذن أن نأخذ أسماء الأعلام مثل كلب وخاصة كلاب على أنها بقايا من الطوطم القديم .

ومع ذلك فيجب أن نذكر أنه ليس هناك دليل قاطع على الطوطمية البدائية عند الساميين ، وذلك لا ينبغى أن يكون موضع دهشة لأن الوثائق التى فى متناولنا ، مهما بلغت فى القدم ، فهى تنتمى إلى عهد بعيد كل البعد عن الطوطمية البدائية .

والأستاذ نولدكه يعتقد أنه لا يوجد فى هذه الأسماء أى دليل يؤيد الطوطمية البدائية عند الساميين وإن لم يستطع أن يثبت أن أية تسمية من هذه الأسماء ليست بقية طوطمية . فهى فى معظم الحالات ، تعد علامة « لحسن الطالع » الذى يسميه العرب التفاؤل[٢] .

ويذكر الأستاذ نولدكه فى هذا المقام ، بناء على ملاحظة لدوتى Doughty ، أنه فى البلاد العربية كلها — عند المسيحيين والمسلمين على السواء — إذا أصيب طفل

---

(١) دركهيم : السنة الاجتماعية ، المجلد الخامس ، ص ٨٣ .

(٢) نولدكه : Einige Gruppen semitischer Personemnome dous ses بعض مجموعات من أسماء الأعلام السامية ، فى كتابه Beiträge Zur semit. Sprachviosenschaft. « دراسات فى علم اللغات السامية » ص ٧٤ وما يليها .

بمرض أو عاهة أو إذا مات أحد إخوته منذ زمن قصير فإن هذا الطفل المولود يسمى باسم حيوان ، وعلى الأخص فإنه يخلع عليه اسم الذئب أو الفهد . وأهله يبغون من وراء ذلك أن يتسرب إلى الطفل بعض قوة الاحتمال فى هذا الحيوان أو بعض بأسه .

على أن تفسير هذه الظاهرة بما يسمى «حسن الطالع» ليس كافياً . ويجب أن نذكر أن الشرقى ، حتى عصرنا هذا ، يعتقد أن روح أحد أجداده يمكن أن تحيا من جديد فى جسم حيوان من الحيوانات . والسنة التى أشار إليها « دوتى » تعد بقية من العقيدة البدائية لتفحص الأرواح حيث أن الطبيعة تجمع بين الأشخاص والحيوان ، وما الطوطمية إلا صورة من صورها ؛ وكما هو الحال فى تناسخ الأرواح من أن الروح تتجسد فى أشكال مختلفة . وقرابة الحيوان ليست مقصورة على الناس وحدهم ؛ فقد امتدت منذ نشأتها إلى الآلهة التى خلع عليها الطابع المادى فى صورة حيوان أو نبات أو حتى فى صورة حجر .

وعلى الجملة فإن الطريقة التى أشرنا إليها تعتمد على معتقدات روحية لا تزال حية إلى أبعد الحدود عند العرب .

الأسماء المركبة — أولا الأسماء المتعلقة بتبجيل الله .

نرى غالبية أسماء الأعلام المتعلقة بتبجيل الله فى اللغة الصفوية تدخل فى تركيبها كلمة אלה « الله » . والأسماء التى تتكون بهذه الصورة هى من الأسماء كثيرة الاستعمال مثل « عطية الله » ، « جزاء الله » و « الله أكبر » الخ .

وفيما عدا אל يدخل لفظ « الله » فى مركبات فى صورة تنطوى على حذف بعض الحروف مثل לה . أما الأسماء الأخرى المقدسة التى ظن أنه توصل إلى معرفة مركباتها فى أسماء الأعلام الصفوية فقد ظلت يعتورها الشك .

وأسماء الأعلام التى تنطوى على تبجيل الله تختصر غالباً وخاصة ما يعتور الأسماء المألوفة الاستعمال أو الأسماء المصغرة من تحوير . وعلى هذا אס־אל « عطية الله » قد اختصر إلى אס « عطية » . ولكن العنصر المقدس فى الاسم قد تستبدل به نهاية الكلمة[1] : ־א ، ־י ، ־ה ، ־ך أو ־ו .

(١) انوليتمان : نقوش سامية ، ص ١٢٦ .

وعلى هذا فنحن نرى الاسم עבדא أو עבדה أو עבדי بدلا من עבדאל «خادم الله أو عابد الله» . والاتجاه إلى صيغة الثلاثى قد أدى إلى اختفاء حرف من الحروف الأصلية من عنصر الاسم الذى ليس مقدسا ، وخاصة فى الحرف الثالث منه . وبذلك نرى זבי الذى يكتب Ζαδαῖος هو اختصار لكلمة זבדי التى اختصرت من זבדאל « الله أعطى » .

وهناك نهاية أخرى كثيرة الذيوع هى -ו تستعمل فى أنواع مختلفة من التصغير .

وأسماء الأعلام التى لا تشتمل على ذكر الله هى أصعب الأسماء تفسيراً وخاصة لأن الاسم لا نعثر عليه إلا مرة واحدة فهو يثير شكوكا عند قراءته(١) .

ويجب أن نشير خاصة إلى أسماء الأعلام المكونة من عنصر يدل على القرابة . فهى تبدأ ب ב أوب ד وتنتهى بمجز للغائب المفرد هو ה . ومعنى اسم مثل כעמה هو « كجده » وهذا المعنى لا يعتوره أى شك . وهو يتصل بالعقيدة البدائية التى تقول بأن روح الأجداد تحل فى أجساد ذريتهم ، مثله فى هـذا مثل انتقال الاسم وخاصة من الجد إلى الحفيد .

أما أسماء الأعلام التى تبدأ بالحرف ב فتفسيرها ليس دائما مؤكدا . فالأستاذ ليتمان قد فسره بادىء الأمر بحرف ب(٢) بينما اقترح الأستاذ ليتسبرسكى أن يعتبر هـذا الحرف اختصارا لكلمة « أب(٣) » التى تستعمل غالباً لبيان مجرد الصلة . وعلى هذا فالاسم באבה يقرأ « بو أبيه » أى « أبو أبيه » .

ويجب أن تدرس كل حالة على انفراد ؛ لأن حرف الجر يوجد بكل تأكيد فى בסנתה « بسنته » . وقد بين الأستاذ كليرمون جانو منذ زمن طويل أن الاسم النبطى בחגה يجب أن يقرأ « بحجه » .

---

(١) ليتمان : .c ,ا ص ١٢٤ — ١٢٦ ذكر قائمة بأسماء الأعلام .

(٢) ليتمان : Zur Entzifferung der Safâ-Inscription ، ص ٣٦ « فى حل رموز النقوش الصفوية » .

(٣) ليتسبرسكى : مجموعة النقوش السامية جـ ٢ ص ٣٩ ، وقد أخذ الأستاذ ليتمان ببعض هذا التفسير فى كتابه النقوش السامية ص ١٢٣ — ١٢٤ . قارن أيضاً نولدكة فى كتابه السابق ص ٩٧ . وانظر أيضاً ديرينبورج فى مجلة الدراسات اليهودية سنة ١٩٠٥ ص ٢٩٤ .

وأسماء الأعلام هذه تدل على أن الصفويين قوم من سكان شمال جزيرة العرب . ولقد أشرنا من قبل إلى الفائدة التي تنتج من التقريب بين أسماء الأعلام الصفوية وبعض الأسماء الواردة في التوراة(١) والإنجيل .

* * *

وسنعطي كنموذج للغة الصفوية والكتابة الصفوية بعض نصوص تحتوي على عبارات تعد أكثر شيوعا من غيرها(٢) .

دم — ١٦١ — לאנעם בן אנף בן גרמאל ווגד אתר חני פנגע

« لأنعم بن أُنَيف بن جُرَمْئل . لقد وجد مضرب خيام حنّي . وأخذ يبحث عن المراعي » .

أنعم אנעם يكتب في النصوص الإغريقية أنَمُس Αναμος . « ونحن نفرق بين هذا الاسم الأخير وبين أنمس Ανεμος » الذي يعد ענם « غانم » . وفي مقابل ذلك لا نعير الصورة الأخرى أهمية كبرى وهي أنمس Αννaμος « التي يمكن أن تغري القارئ بالتقريب بينها وبين غنام لأن الكتابات الإغريقية تضعف غالباً ، وعلى غير حق ، الحروف المائعة في أسماء الأعلام الصفوية . وسنرى من ذلك أمثلة عديدة .

אנף هي بدون شك تصغير أنف .

---

(١) انظر أيضاً من ص ١٥ — ١٧ .

(٢) نحن نستعمل الاختصارات التالية للدلالة على النصوص : و = ويزشتين : مجلة جمعية المستشرقين الألمانية المجلد ٣٠ .

Zeitschrift der dutachen morgenländische Gesellschaft : Watzstein

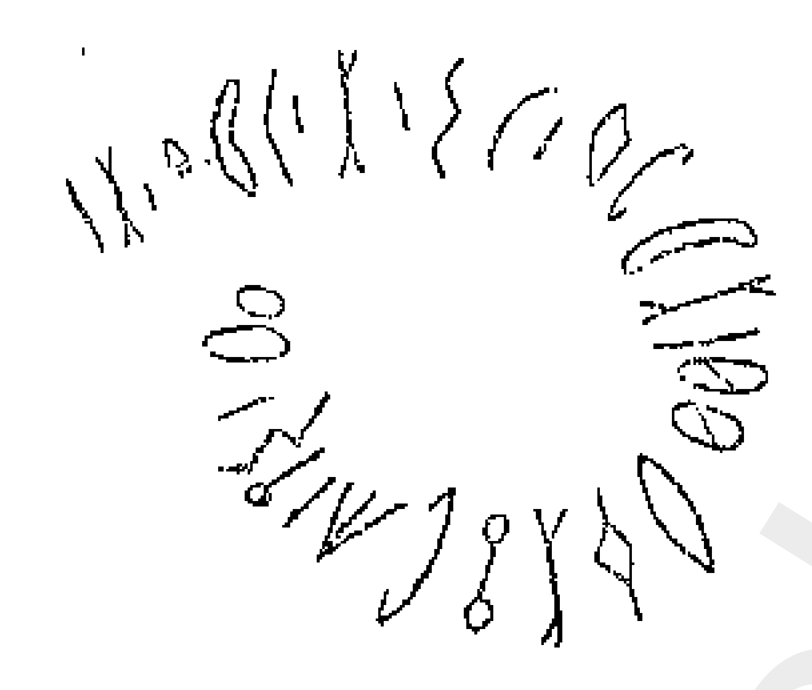
ڤ = Vogüé : سوريا الوسطى ، نقوش سامية ، الجزء الثاني ، باريس ١٨٧٧ .

د = ر . ديسوفو . مكلر : رحلة أثرية في الصفا وفي جبل الدروز ، باريس ١٩٠١ .

د م = ر . ديسوفو . مكلر : بعثة في الأقطار الصحراوية في سوريا الوسطى ، باريس ١٩٠٣ .

ل = انيوليتمان : نقوش سامية ، نيويورك ١٩٠٥ .

גרמאל يوجد فى النقوش الإغريقية فى صورة Γαράμηλος[1] « أنعى الله » . ونفس النص وجد فى حمص[2] . والأسماء الأخرى المركبة من جرم تبدو عليها الصيغة العربية . وأخص هذه الأسماء هى التى تحتفظ بالأداة العربية :



شكل ٢١ — نص صفوى عثر عليه بين غدير أبى زعرور والحفنة

גרמאלבעלי — Γαρμάλδαλος فى طورسينا[3] أو גרמאלהי و גרמלהי إلــه الشمس Garmallae (مفعول إليــه — مجرور) أيضاً فى طورسينا . واسم العلم سمسيجيراموس Samsigeramos ، قد نقله سادة العرب من حمص وشاع أيضاً بين سكان هذه البلدة ، لا بد أن يعد من أسماء الأعلام التى من أصل عربى . والنص الصحيح هو إلــه الشمس Σαμσιγέραμος[4] كما تدل عليه النقوش ، حيث يظهر العنصر العربى الصحيح : « شمس » والعنصر الآخر garam الذى أصبحت فتحته الأولى *a* فتحة ممالة إلى الكسرة *e* لتماثل الكسرة *i*

(١) ودنجتون : نقوش إغريقية ولاتينية فى سوريا ، رقم ٢٢٤٣ .

(٢) يجب أن يقرأ اسم العلم Γαρ[α]μηλου وكان كلينكا قد قرأه Γαρμήλου وذلك فى : Jahreshets des Oesterr مطبوعات المعاهد الأثرية ، ڤينا سنة ١٩٠٠ ، Beiblatt رقم ١٥ و Γαρ[ά]μδλου ، قراءة ه . لامنس فى : Notes sur l'Emêsène ، المتحف البلجيكى سنة ١٩٠٢ ، ص ٢٦ — ٢٧ .

(٣) واسم العلم גרמלשהרי من نفس المجموعة من النصوص ، مشكوك فيه وربما كانت صحته גרמלבעלי .

(٤) ودنجتون ، و . س ، رقم ٢٥٦٤ ، ٢٥٦٧ ؛ ه . لامنس ، Notes sur l'Emèsène ، ص ٣٨ ؛ كليرمون جانو : مجموعة الآثار الشرقية ، ج ٧ ، ص ٦٦ وما يليها .

الموضوعة بين المصطلحين . وفى هــذه الحالة قد تعرض اسم العلم إلى تصحيفات أخرى : فكثيراً ما ينزلق حرف شفوى فى النقوش الإغريقية بين حرفين ساكنين متعاقبين حينما يكون أولهما μ ميا . وعلى هذا فإننا نرى بجانب الصيغتين يمليخص Ἰαμλίχος و أمبليوس Ἀμβλίος وغيرها يمبليخس Ἰαμβλίχος و أمريليوس Ἀμβρίλιος . ونجـد أيضاً سمپسيجيرمُس إله الشمس — Sampsiceramus Σαμψιγέραμος وحينما يصبح الصوت الحلق شديد المجاورة لحرف من حروف الصفير تحصل على الصيغة سمسيكيرمس Σαμψικέραμος .

وقد أخذ الأستاذ بودسان[1] Baudissin يدرس اسم العلم Sampsigéram . وهو يعترض على الأصل العربى لهــذه الكلمة بأن الجزء الثانى منها يجب أن يكون مؤنثا لأن الشمس إلــهة من آلهات العرب . وللتغلب على هذه الصعوبة ، يفترض هذا الأستاذ المتخصص فى الساميات أن اسم العلم هــذا قد ركبه العرب ولكنهم عرب كانوا خاضعين للتأثير الآرامى فوضعوا إلــهة الشمس بدلا من إلــه الشمس .

وقد بقى لنا أن نفسر العبارتين المتصلتين بسلسلة النسب ؛ فالأولى لا تشتمل على أية صعوبة : وجد أنعم النقش الذى اختطه حناى . والواقع أنه بجانب هــذا يوجد نقش حناى (دم — ١٥٧) .. ونعثر على العبارتين المترادفتين :

ונד הספר (وجد هــ سَفْر «وجد الأثر» أنظر فيما يلى دم—١٧٩١)

و ונד חטט (وجد خطوطا « وجد علامات أى نقشا ») .

أما الجزء الأخير فتفسيره أشق مما سبق . وهو وارد فى النصوص التالية :

دم — ١٦١ : פ נגע = ف نجع

دم — ٢٣٩ : פ נגע כבר = ف نجع كبر

---

[1] دائرة المعارف الحقيقية للاهوت البروتوستنتى Realencyclopädie für protest. Theologies ، ج ١٨ ، ص ٥١١ — ٥١٢ — كسرة الصلة تدل على شكل قد قيس قياسا خاطئا بالأسماء المركبة حيث تدل الـكسرة على المضاف إليه ؛ ومع ذلك فليس هذا يقينيا . أما فيما يختص بالمعنى فإن الأستاذ بوديسان يميل إلى تفسير دى ڤوجيه م . ن . س ، الجزء الثانى ، رقم ٣٥٥ حيث معنى الفعل جرم "abscidit" بمعنى قطع قد أخــذ المعنى المجازى "descrevit" بمعنى يقطع برأى .

دم — ٥٢٨ = ل — ١١٠ : פ נגע = ف نجع

دم — ٨٥٦ : פ נגע כבר = ف نجع كبر

د — ١٩٧ : ו נגע = و نجع

وقد حدد الأستاذ ليتمان قراءة נגע « نجع — يبحث عن مرعى » وفسر כבר بمعنى « كثير[1] » . ولكن ألا يمكن التقريب بين هذا اللفظ الأخير وبين الكلمة الآرامية מכבר « منذ وقت طويل » ؟

دم — ١٧٩١ — לולי בן עד בן עד בן עוֿת וחל הדר ווגד ספר חלה פבאסם טלל פ...

شكل ٢٢ — دم — ١٧٩١ — نص صفوى عثر عليه بين غدير الدوب والشبكة

لولى بن عذ بن عذ بن غث وحل هدر ووجد سفر خله فباسم ظلل فـ . . .

« لولى بن عوذ بن عوذ بن غوث . لقد حل فى هذا المكان ووجد نقش خاله . فأقام بين وسم . . . » .

ולי بمعنى الكلمة العربية ولىّ « قريب . صديق » .

עד هى الكلمة العربية عوذ وهى فى النبطية עודו وفى اليونانية Αὖδος

עוֿת قد حققها دم — ٧٩١ ب ، فى النقش الخاص بابن الشخص الذى نتحدث عنه ، وحققها دم — ٥١٧ فى النقش الخاص بالأخ . فالاسم العربى غوث هو النبطى עותו . وقد وردت الكلمة فى النقوش الإغريقية على هذه الصورة : Αὖθος أو Γαῦτος فى الصوت الشديد .

(١) ليتمان : النقوش السامية ، ص ١٦٠ .

وفى التعبير חל הדר نجد أن الجزء الثانى منه هو ، دون أدنى ريب ، الكلمة العربية « دار » التى نجدها فيما بعد (دم ١٧٤) فى تعبير مقارب له .
أما فعل حل بمعنى « فك ، فتح المتاع » ومن هذا المعنى جاء حل بمكان ، أقام به .
وبما أن هذا الفعل يتعدى بحرف الجر كما لاحظ الأستاذ ليتمان فيقال حل إليه أى نزل عليه ، ونجد فى دم — ٨٠١ : חלל אל דר حل إلى دار وذلك إما أن חלל يمثل الصيغة الثانيـة أو أنهم بسبب تضعيف اللام قد كتبوا الفعل على الوزن الأول .

أما العنصر الأخير فغامض . وإليك النصوص التى ورد فيها :

دم ١٦٥ : ו באסם טלל על נצר ובנת תרח (وباسم ظلل على نصر وبنت ترح) .

دم ١٧٩ : ו באסם טללו (وباسم ظللو) .

دم ٢١٠ : פ באסם ט [ל] ל (فباسم ظلل) .

دم ٧٩١ — ا : פ באסם טלל (فبا سم ظلل)

و ٢ ، ٤ ف : פ באסם טלל על תרחת ف باسم ظ ل ل على ترحت

مس بل (لم يطبع بعد) : פ באסם טלל ف ب (ا) سم ظلل

وقد اقترح ليتسبرسكى أن نفسره بالفعل بئس الذى يفيد الذم وتلحقه غالبا ما فيقال بئسما .

شكل ٢٣ — دم ٧٤ — نص صفوى عثر عليه فى رجم موشبيك

ويبدو أنه يحسن أن تأخذ الصيغة ظلل (ظلل) على أنها فعل يسندها دم ١٧٩ إلى الجمع . وبما أنها مسبوقة بحرف الجر ب אסם فيمكن أن تكون جمعاً لكلمة اسم أى أسماء أو أن تكون كما يقترح ليتسبرسكى جمع وسم : بأسوم = بوسوم . وقد بين ليتمان أن الوسم ، علامات ملكية القبائل ، كان غالباً علامات هجائية قديمة . على أن هذا المعنى أو ذاك من المعنيين الأخيرين يدلان فى النهاية على شيء واحد . أما فعل ظلل (ظلل) فيبدو أنه يدل على معنى « بقى أقام » . وسنجد الدليل على هذا فيما بعد فى دم ١٧٩ . وهذه الصيغة قد تقرن بكلمة על (على) « قريباً من » ويرد بعدها اسم علم .

دم — ٧٤ — לעלם בן גרמאל וגם על גרמאל

(لعلم بن جرمأل ووجم على جرم أل)

« لعليم بن جر مأل . نقشه تشريفاً لجرمأل »

עלם يمكن أن تكون عَلِيم أو عُلَيْم

וגם قرئت أولا ושם لما يوجد من خلط يسير بين العين والجيم الصفويتين .

وبعد التردد فى قراءة[1] هذه الكلمة ، فإننا نميل إلى رأى الأستاذ ليتمان فى قراءتها وجم . ومعنى هذا الفعل « دق ، ضرب بمدق » ، والواقع أن عدداً من النصوص التى لدينا قد نقشت بواسطة الدق . وسنرى فيما بعد — بمناسبة النص دم ١٧٩ — أنه يجب علينا أن نفهم أن النص لم ينقش « تكريماً ل » فحسب بل « بحضور فلان » أيضاً .

دم ٧٤٧ — למען בן יסמעל ההית

ل م ع ن ب ن ى س م ع ل ه ح ى ت

---

(١) فارن ر . ديسووفر . مكار : بعثة فى المناطق الصحراوية بسوريا الوسطى ، ص ٩٦ رقم ٢ .

بواسطة معن بن اسماعيل (نقشت) هذه الحيات

מען فى العربية معن وفى النبطى والتدمرى מענו يكتب فى الإغريقية هكذا : منس Μάνος أو منّس Μάννος بتضعيف الحرف الداخلى (المائع) كما قلنا

יסמעאל هو الاسم الذى يكتب فى سفر التكوين هكذا : ישמעאל

شكل ٢٤ — دم ٧٤٧ — نص صفوى عثر عليه بين النمارة وغدير الدرب

والكتابة الصفوية هامة فى هذه الناحية لأنها لا تزال تحتفظ بالياء التى فى أول الاسم . أما العربية فيرد فيها هذا الاسم هكذا : اسماعيل

أهمية هـذا النص القصير تتجلى فى ذكر الكلمة الأخيرة חית ربما كانت حيّات جمع حية . ومجموعة النص لا تدل إلا على أن ناقشه لم يرد إلا أن ينقش حيات بجوار اسمه . والواقع أننا نجد على مقربة من النص نقوشاً لثلاثة حيوانات عبارة عن التواءات ليست واضحة فى الحقيقة . ولكن الأهم من هذا أن اللام التى فى أول النص لا تدل إطلاقا على معنى الملكية ، لا فى هذه الحالة فحسب ، ولكن فى النصوص المشابهة التى تنتهى باسم حيوان : حصان ، جمل . . . الخ

دم — ١٧٤ — לשלח בן נמר וולה על שרבן הבדו וחצר [ה] ד [ה]

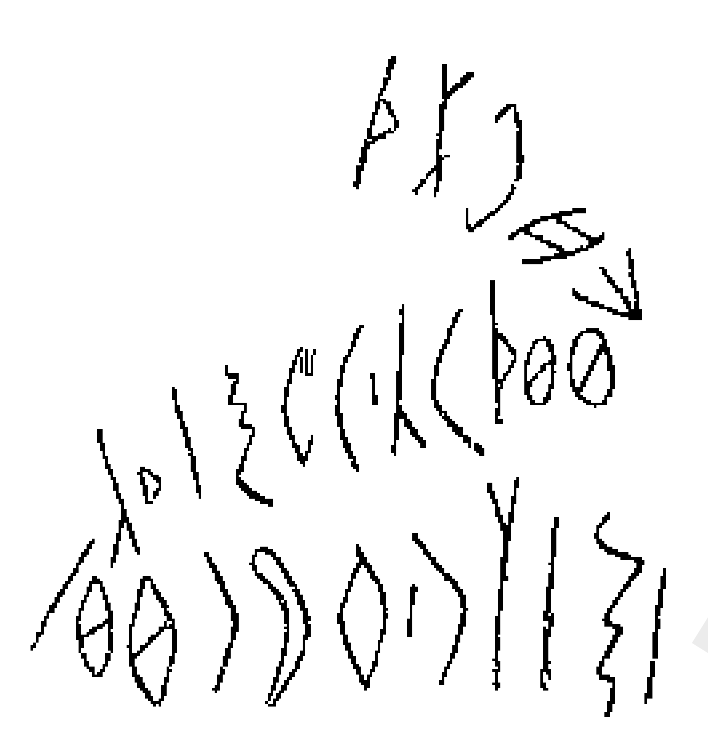
لشلح بن جمر وولة على شمر بن هبدو وحضر

(لشلح بن جمر (عمرو) . فلينزل الذل على بدو شمربان ! لقد حضر (شلح) .

إن اسمى العلم هنا يحوم حولها الشك . يمكن أن يصحح الأول إلى شليل ، وهو اسم عربى معروف ، يظهر دون شك فى ف — ٨٦ .

וולה مصدر هو وَله .

שדבו لا بد أن يكون اسم جمع ، قبيلة . لأن الكلمة הבדו (هيدو) لا يمكن أن تفسر إلا بكلمة البداوى ، جمع كلمة البدوى .



شكل ٢٥ — دم ١٧٤ — نص صفوى عثر عليه على مقربة من الحفنة

* * *

بعد هذه العجالة عن اللهجة الصفوية ، سنجمع أهم المعلومات التى تفيد معرفتها فى الدلالة على عادات الصفويين وطريق حياتهم كما تعرفنا بالأرض التى كانو يسكنونها . أما حديثنا عن كل ما يختص بدين هؤلاء العرب الذين عاشوا قبل الإسلام فسيكون موضعه الفصول التالية .

ومما لا ريب فيه أن الخصائص الصوتية التى تميز الصفوية عن العربية القديمة لها علاقة بالحالة الاجتماعية للصفويين . والواقع أنه إذا كان هناك أمر يوضع موضع الاعتبار فهو المحافظة اللغوية التى تظهر عند البدو من العرب . فهم دون المجموعات السامية الأخرى ، يحافظون محافظة شديدة على اللغة والعادات السحيقة فى القدم . . فالعزلة التى كانوا يعيشون فيها ، وبساطة أخلاقهم ويسر ما يقومون به من أعمال ، كل هذا فرض عليهم ذلك الثبات العجيب من تمتعهم بذوق سليم للغة جميلة نقية . وحينما عمل النحويون العرب ، فى همة عالية ، على تحديد النطق الصحيح للغتهم ، اختاروا الرجوع إلى البدو فى ذلك ؛ لأن النحويين كانوا يعرفون تماماً أن العرب الذين تحضروا قد تأثروا بسرعة بالنطق غير الصحيح لمخالطتهم للسكان الآخرين من غير العرب .

ومن المتفق عليه أن الأصوات اللغوية التى تطورت تطوراً كبيراً — مثلها مثل الأصوات اللغوية فى اللهجات العربية — كما تدل عليه الكتابة الصفوية ، كانت

نتيجة العلاقات التى عقدها الصفويون مع السكان المتحضرين من أهالى الشام ؛ بينما قطعوا الصلات التى كانت تربطهم ببدو الصحراء .

وهناك وجهة نظر خاصة تذهب إلى أن الصفويين قد أقاموا منذ زمن طويل فى ذلك الإقليم قبل أن يأخذوا فى حفر نصوص على الصخور البركانية ، أما وجهة النظر العامة فتذهب إلى أن وجود العامية العربية لا يرجع إطلاقا إلى فساد ذاتى لا مرد له فى اللغة لطول استعمالها . وقد ارتاب بعض العلماء فى أن الظواهر اللغوية التى نتج عنها وجود العربية العامية ترجع إلى زمن أقدم من الزمن الذى يعترف به غالباً . والصفوية تحمل لنا دليلا جديداً ، كما أنها تتيح لنا فى نفس الوقت أن نتعرف على الطريقة المحلية الخالصة وشروط هذا التغير . إن وجود اللهجات العامية فى اللغة العربية ليس من فعل الزمن ؛ لقد نتج من ظروف اجتماعية جديدة أهمها الانتقال من حالة البداوة إلى حالة الحضارة .

هذا التطور الذى حللنا خواصه فى الفصل الأول ، وبينا الأدوار الضرورية له ، قد تم للصفويين فى القرن الرابع الميلادى باندماجهم التام فى السوريين . وفى تلك المرحلة ، كانت اللهجات المدونة فى القرى الصفوية ، كما فى جميع أرجاء الشام ، مكتوبة باللغة الإغريقية .

وفى الوقت الذى قدم لنا الصفويون فيه لغتهم ، كانوا يعيشون عيشة شبه مستقرة متحضرة . فكانوا يقضون الشتاء فى الحرة ، حول الصفا ، من قلعة الأزرق حتى جبل سيس . وفى الصيف كانوا يصعدون بقطعانهم إلى المنحدر الشرقى من جبل حوران ، مثلهم فى هذا مثل عرب الصفا فى أيامنا هذه .

لقد رأينا أن الإقامة بالحرة خلال الحرارة الشديدة تعد أمراً عسيراً لا سيما وأن آبار المياه تكاد تكون نادرة . ولذلك كان الصفويون يقولون بأن قضاء الصيف هناك يعد أمراً عجيباً حقاً . فمثلا فى دم : ١٩٨ = ل — ٥ : ודתא בהדד «لقد قضى الصيف فى هذا المكان» . قارن ٢٣١ : ודתא הודד «لقد قضى الصيف فى هذا المكان الذى يوجد به ماء» .

وكثيراً ما يتحدث عن بعض بلاد سوريا فتوصف بطبيعة الحال بأنها « بلاد الروم » أي بلاد الرومان . وهؤلاء قد بنوا منذ القرن الثاني الميلادي أعرافهم التحصينية الممتدة أقصى امتدا نحوالشرق في إقليم الصفا . وقد نتج من هـذا أن الصفويين قد اعترفوا لهم بالسيادة . ولو أن الصفويين قد وقفوا منهم موقفاً عدائياً لـكان خط الحصون قد سار مع الجانب الشرقي لجبل حوران بدلا من أن يتخذ نحو الغرب ذلك الشكل الظاهر الذي يرى على شكل « خطاف » (انظر شكل ٩) .

وهناك بعض اعتبارات دينية وسياسية واقتصادية تؤيد هـذه الاعتبارات التي ينبغي أن نتنبه إليها لأنها تساعدنا في تفسير النصوص . وعلى هذا فسنرى من الناحية الدينية أن تبعية الصفويين للرومان ترجع إلى اقتباسهم للآلهة بعل شمين Be' el-Samin ودوزاريس Dusarès .

أما من الناحية السياسية فمن الملاحظ أن الصفويين قد عاونوا الرومان معاونة جدية حين تقلصت المملكة النبطية وأصبحت ولاية رومانية في جزيرة العرب ، وهذا الأمر يؤيده النقش التالي : לאנעם בן קחש וענם סנת חרב נבט

دم — ٢١١ = ل — ٤٥ : « لأنعم بن قحش ، لقد استولى على غنائم سنة الحرب مع النبط » .

ومن الطبيعي أنه ينبغي لنا أن ندرك من هذا النص أن الحرب كانت ضد النبط ، وقد اقترح الأستاذ ليتمان أن الإشارة هنا ترمي إلى سقوط المملكة النبطية سنة ١٠٦ ميلادية والزمن الذي نقشت فيه هذه النصوص الصفوية يجعل هذا الافتراض يكاد يكون محققاً .

وهذه المعلومات أصبحت تسد النقص الذي يشاهد لدى المؤرخين الكلاسيكيين الذين لم يخبرونا كيف قضى الإمبراطور الروماني تراجان على المملكة النبطية . وهذا الحادث لا يخلو من أهميـة لأنه يفتتح عهداً خاصاً (عهد بصرى أو الولاية الرومانية في بلاد العرب) ، كما أن عملة قد سكت لتمثل خرافة « احتلال بلاد العرب » Arabia Adquisita (شكل ٢٦) .

وندرك من هذا أن الصفويين قد اقتبسوا التأريخ الذى كان مستعملا فى الولاية الرومانية ببلاد العرب لأن حدودهم كانت مجاورة لها فى جزء كبير منها . وقد قيد الأستاذ ليتمان فى رحلة حديثة له عدة تواريخ لا يمكن أن ترجع إلا لهذا العهد ، وهو عهد بصرى[1] . وهذا يتيح لنا أن نقرأ تاريخاً ورد فى نص دم — ٧٤٢ : וחלל [ה]דר סנת מיח « وحلّ فى هذا المكان سنة مائة » أى فى سنة ٢٠٦ — ٢٠٧ بعد الميلاد[2] [وحلل (ه) درسنت ميت] .

ولدينا أيضاً نصوص صفوية يرجع تاريخها إلى ما بين سنة ١٠٦ وسنة ٢٠٦ ميلادية . ولا بد من أن هذه الكتابة قد بقيت حتى أواخر القرن الثالث ، ويمكن أن نقبل ، مستندين لأقدم النصوص ، مبدأ عصرنا الحاضر .



شكل ٢٦ — ظهر قطعة برونزية كبيرة ضربت تخليداً لإنشاء الولاية الرومانية ببلاد العرب[3]

(١) فى تقرير نشر فى المجلة الأمريكية للآثار ، عام ١٩٠٥ ، ص ٣٨٩ — ٤١٠ ؛ قارن ص ٤٠٧ : « السنة الثالثة » ، عام ١٨ من تأريخ الرومان .

(٢) قارن ليتمان : نقوش سامية ، ص ١١٣ .

(٣) Imp Caes Nervae Traiano Avg Ger Dac P M T R P COS V P P تمثال مكلل بالغار لتراجان إلى اليمين وكساء أرجوانى . وفى ظهر الوسام S.P.Q R. Optimo Principi تمثل بلاد العرب واقفة ، ناظرة إلى اليسار وممسكة بيدها اليمنى غصن زيتون وبيدها اليسرى شكل قرنى تتدلى منه أشرطة . وعند قدمى التمثال جمل يسير إلى اليسار . وفى الحقل من الناحية نرى S.C. وفوق الوسام إلى أسفل نقرأ : Arab. Adquis. .

ويعتقـد الأستاذ ليتمان أنه قد تمـكن من العثور على ذكر حرب أخرى فى دم — ٥٥٤ :

... סנת חרב המדי אל רום ...

وترجمه بما يلى : « السنة التى حارب فيها الفرس (حرفيا : الميديين) الرومان (حرفيا : أهل الروم[١]) » [سنت حرب همدى ال روم] .

سبق أن قلنا إن آمال الصفويين فى العهد الذى عرفناهم فيه كانت تتجه إلى البلاد المتحضرة وأنهم قد قطعوا كل صلة تربطهم بعرب بادية الشام . وهذا الأمر يؤيده النص التالى الذى يبين لنا أن عرب الرحبة (الصفا) كانوا يؤيدون اعتداء عرب حمد أو عرب بادية الشام[٢] .

د — ٣٢ ب : [لحنن بن هعتق من (ال) رحبه سنت قتل ال حمد]

לחנן בן העתק מן [אל] רחבת סנת קתל אל חמד

« لحنين بن هعتق من قبيلة الرحبة سـنة المعركة التى دارت ضد قبيلة حمد » .

ولقد رأينا من قبل ، فى النص دم ١٧٤ ، اللعنات التى وجهت إلى البدو أى إلى العرب الرحل فى الصحراء الكبرى .

والنص د ٣٢ ب له فائدة أخرى لأن فيه دلالة للتطور الاجتماعى للصفويين .

= AE — ٣٢ مليمترا ، كوهين ، ج ٢ ، تراجان ، رقم ٣٢ . ولدينا نقود من الفضة والذهب من هذا النوع ، نجد على ظهر بعض قطع فضية منها أنها ضربت فى Caesarée de Cappadoce (Wroth. Catal. P54) . أما ما يوجد فى اليد اليسرى ، وإن كان يذكر بحزمة ، فلم نعثر له على تفسير . لقد اقترح أن تكون عبارة عن بوصة غاب (كوهين) أو سيف فى جرابه (ورث) أو مدق تصحن به المواد العطرية (Rossbach' Neue Jahrb. f. . K ass. Altert.) عام ١٩٠١ ، ص ٤٠٦ ، هامش ٢) ، أو أنه حد ميدان (ألبيردى شاتيل : المجلة البلجيكية للنقود ، عام ١٩٠٦ ، ص ١٩٣ — ١٩٤ ، لوحه ٦) .

(١) ليتمان : مجلة الدراسات الأشورية ، عام ١٩٠٣ ، ص ٣٧٩ وما يليها .

(٢) ليتمان : Zur Entzifferung ، ص ٦٢ — ٦٣ (حل الرموز) .

لقد احتفظ هؤلاء من حالة بداوتهم بالنظام القبلى مبينا بالمصطلح الجنسى (آل) . واللغة العربية الفصحى تعرف هذا المعنى ؛ ولكن بعد أن فسد نظام القبيلة ، أصبحت تستعمل «آل» فى معنى «الأسرة» أو «الناس» . أما الصفويون فكانوا يستعملون هذا المصطلح فى معنى القبيلة ما فى ذلك أى ريب ، كما سنرى فى النص دم — ٣٢ ا الذى سنذكره فيما بعد . ولكن النص ٣٢ ب يحمل بين طياته معنى مخالفا تمام المخالفة للفظ آل التى فى الرحبة ، نتيجة لأماكن القبائل الصفوية . كانت القبائل قد أصبحت تعرف بالأراضى التى تنزل بها فكانت تتسمى باسم الوضع الذى تحط فيه رحالها . وقد امتد هذا الاستعمال بصفة غير قانونية إلى العرب ذوى النجوع الكبيرة الذين أصبح يطلق عليهم الصفويون آل حمد . وسنرى فى الفصل السابع أن هذا التحور قد انعكس على العقيدة وأن آل فى الرحبة — وهو واد فى أسفل براكين الصفا — تتفق مع Zeus Safathènos إله الصفويين .

لقد أثبتنا عدة مصطلحات جغرافية هى : الرحبه وحمد . والنصوص الصفوية تذكر أيضاً بصرى تحت اسم בצר (١) والنمره הנמרת (٢) . ولدينا هنا دليل على أن النمارة اسم مكان قديم وأن الشيخ نمار ، الذى يزعمون أنه دفن فى ذلك المكان ، شخص مختلق قد سمى به هذا المكان(٣) .

وهناك اسم مكان له فائدة كبرى نعثر عليه فى النص دم — ٨٧٢ حيث نجد فى نهاية النص هذه الكلمة : هشبكى השבכי التى أصبحت الآن « اشبكه » . ولكننا لا نعرف تماما ما إذا كان يقصد بهذه الكلمة اشبكه النمارة أو قرية بهذا الاسم توجد بجبل حوران على مقربة من صحنه . على أن هذه القرية هى التى تعرف فى النصوص العربية باسم الشبكى وهى النصوص التى عثرنا عليها فى الحرة ويرجع تاريخها إلى عامى ١٢٥٥ و ١٢٥٦ ميلادية(٤) .

---

(١) دم ٤٥٥ [بصر] .
(٢) دم ٤٦٧ [هنمره] .
(٣) قارن نشرة ومذكرات الجمعية الأنثروبولوجية بباريس ، عام ١٩٠٦ ، ص ٢١٥ .
(٤) بعثة فى الأقاليم الصحراوية بسوريا الوسطى ، ص ٣٣١ .

وقد قيد الأستاذ ليتمان بعض أسماء جغرافية جديدة عثر عليها فى رحلته الأخيرة التى أنتجت فائدة كبيرة(١) .

كان أهم عمل للصفويين تربية الماشية . والنصوص تشير إلى الجمل والإبل والبكر (الجمل الصغير) والدلول (الجمل السريع) والحصان : (الحى) والفرس والمهر والفلو والضأن والشاة والمعز والحمار والإتان والبقر . وقد اكتشف الأستاذ ليتمان حديثا الأسد والذئب .

وغالباً ما يشير الخطاط إلى واحد من هذه الحيوانات فى شكل قصة حول رسم قد خطه (انظر فيما سبق دم ٧٤٧) ؛ ولكننا نعثر بعض الأحيان على دواع أخرى كما ترى فى النص التالى : [لأسد بن أسد ذ ال كن وولد همعز] .

دم ٣٢ : לאסד בן אסד ד אל־כן וולד המעז

« لأسد بن أسد من قبيلة كون . ولدت المعز » .

أو فى دم ٩٩ ורעי המעז וולד שאהי

« ورعى المعز وولدت الشياه » [ورعى همعز وولد شاهى] .

أو أيضاً دم ٣١٧ : ו[ר]עי בקר הנחל [ورعى بقر هنخل]

« ورعى البقر فى هـذا الوادى » . أى فى الفضاء الذى يوجد بوادى الشام على مقربة من الحفنه . وكانت رحلاتهم مقصورة على تنقلات قطعانهم من الأودية إلى أعالى الجبال فى فصل الصيف والعودة إليها حين يقترب الشتاء . والرسوم التى كان يرسمها الخطاطون وهم يكتبون النقوش تدلنا على طريقة تسليحهم . فراكب

---

(١) المجلة الأمريكية للآثار ، عام ١٩٠٥ ، ص ٣٨٩ — ٤١٠ . كليرمون جانو : كتاب الآثار الشرقية ، ج ٧ ، ٢١٣ — ٢١٧ قد أعطى موجزا نقديا لهـذا التقرير الذى وضعته البعثة الأمريكية فى سوريا .

الحصان يحمل رمحا طويلا لا يزال البدو يحتفظون به حتى يومنا هذا . أما أولئك الذين يقاتلون بالقوس فيسيرون على أقدامهم ويحتمون بتروس صغيرة مستديرة . وهذه الرسوم التخطيطية تكفى للدلالة على أن الحصان العربى الأصل قد وجد فى تلك الفترة خلافا للنظرية التى ينادى بها الأستاذ ريدجوى Ridgeway[١].

وكان الصيد لهوا محببا لنفوس الصفويين . فكثيراً ما نراهم قد رسموا يطاردون غزالا أو بقر الوحش ذات القرون الطويلة العمودية التى لا تزال توجد فى بلاد العرب "oryx leucoryx" ، أو بقر الوحش ذات القرون الملتوية إلى الخلف من ذلك النوع الذى ربما ينتمى إلى أل "égocères" الذى لا يزال يطلق عليه بقر الوحش من فصيلة الخيل .

وهناك حجر محفوظ فى متحف اللوفر (فى القاعة الفينيقية القبرصية) يمثل صيد أسد : يرى فيه الحيوان ، يطارده رجال ، يسيرون على الأقدام ، وقد تسلحوا بالأقواس والتروس المستديرة ، ورجال يركبون الخيل ، يهزون الرماح بأيديهم . ويقول الأستاذ ليتمان بأنه عثر على نص جاء فيه ذكر لرجل جرحه أسد . وعلى هذا فإننا لم نعد نشك فى أن الأسد كان يوجد فى أول عصرنا هذا فى حرة وادى رجيل .

---

(١) انظر الأقاليم الصحراوية بسوريا الوسطى ، والجواد العربى فى مجلة ومذكرات جمعية الأنثروبولوجيه بباريس ، عام ١٩٠٣ ، ص ٥٦٠ — ٥٦٣ .

الفصل الخامس

كعبة الآلهة عند الصفويين

اللات ببلاد العرب ، عند النبطيين والتدمريين — التشابه القديم بين اللات وأفروديت أورانيات أستريته وأترجاتيس ، والتشابه المتأخر بينها وبين الإلهة أثينا ، انفصال اللات من العزى ومناة أو من العزى ورضا ، مقارناً بانفصال عثترمن أزيزوس ومونيموس أو عزيزو أيسو — اللات عند الصفويين — عبارات دينية معتادة

كما قضت المسيحية المنتصرة على الآثار الدينية والآداب الدينية للوثنية الإغريقية الشرقية ، كذلك فعل الإسلام ، الذي ينادي بالوحدانية في قوة ، حينما قضى تماماً على الديانات الوثنية أينما حاربت جيوشه .

إن العبارة المسيحية التي غالباً ما كانت تحفر فوق سكاف الباب : εἷς Θεὸς μόνος (أيس ثيس مُنسْ) هي أول شعائر الإسلام ، هي : لا إله إلا الله . وكان النبي يجادل اليهود والنصارى ولكنه كان يلوم الوثنيين ويعمل فيهم السيف إذا لم يشهدوا بوحدانية الله .

ومع ذلك فقد كانت هناك جماعات صغيرة ، مثل سبئي حران في الجزيرة ، قد احتفظت بعقيدة أجدادها سرا ودفعا لبعض الشبهات . وغلاة الشيعة وخاصة الاسماعيلية التي ينتمي إليها النساطرة والدروز في سوريا كانت آخر ملجأ لهؤلاء المتمردين . ولكن نجاح هذه المذاهب الخارجة المختلفة لم يكن لها من أثر إلا تأخير التطور الديني : ولم تعد هذه المذاهب القديمة تكوّن اليوم غير فرق إسلامية .

ولم تكن المقاومات الشديدة للدين الجديد صادرة عن البدو من العرب الذين سرعان ما انضووا إلى لواء الخلفاء الراشدين لتفوق المسلمين عليهم حربياً . والديانات العربية قبل الإسلام ، وكانت قد اصطبغت باليهودية والمسيحية ، سرعان ما زالت تماما في العهد الأول للإسلام . وإذا كان النبي قد هدم الأصنام فإنه قد احتفظ بالحجر الأسود

فى محراب الكعبة ، وهو ذلك الحجر المقدس ؛ ثم اقتبس الشعائر الوثنية فى بيت الله بمكة . وقد اكتفى بأن نفى عنها الوثنية وأرجعها إلى دين إبراهيم .

والوثنيون الذين اعتنقوا الإسلام قد تركوا كل شيء حتى اسماءهم : مثال ذلك أن اسم عبد العزى قد أصبح عبد الرحمن أو عبد الله . وغالباً ما يرجع هذا التغيير إلى المتأخرين من الكتاب المتعصبين للإسلام[١]. ونحن هنا نعثر على مثل من أمثلة التطهير فى تغيير النصوص فى أزمنة التعصب الدينى ، والإنجيل يقدم لذلك أمثلة عديدة .

ونحن ندرك أننا لا نعرف الشعائر الدينية فى الجاهلية إلا معرفة طفيفة ، ومما يزيد فى أسفنا أننا لو عرفناها لوجدنا فيها شعائر دينية جد بدائية : وقد حاول روبرتسون سميث أن يعيد لنا ترتيب هذه الديانات ؛ وهى محاولة بارعة وإن كانت سابقة لأوانها ، إلا أنها تدل على مقدار ما نفيده منها .

ومنذ ذلك الوقت ، بدىء فى جمع أقل الآثار التى سلمت من الضياع .

وتمدنا النقوش الصفوية بقائمة على جانب كبير من الأهمية ، وربما كانت كاملة ، ورد فيها ذكر آلهة قوم من العرب لم يختلطوا بعد بالسوريين اختلاطاً تاماً . والنصوص اليونانية واللاتينية والنبطية والتدمرية تمدنا بمعلومات تفيد ذيوع هذه الآلهة العربية نفسها بين السوريين . كما تدلنا أيضاً على أهم الأماكن لعبادة هذه الآلهة فى البلاد الحضرية . وإننا لنجد عند المؤلفين الكلاسيكيين صدى لتدخل العناصر العربية فى الشام .

وهذه المجموعة من الوثائق تمدنا بأصدق المعلومات عن الديانات الوثنية عند عرب الشمال . لأننا فيما عدا ما أشار إليه القرآن إشارة عابرة ، لا نجد فى الأدب العربى إلا بعض نصوص من كتاب الأصنام أو ردها ياقوت فى معجم البلدان ؛ وقد جمع الأستاذ ج . فلهوزن هذه النصوص وعلق عليها تعليقات على جانب كبير من الأهمية[٢] .

---

(١) فلهوزن Wellhausen: Reste arabischen Heidentums 2,p. 8—9. : بقايا الوثنية العربية ، ص ٨ — ٩ : الطبعة الثانية .

(٢) فلهوزن : بقايا الوثنية العربية ، الطبعة الثانية ، عام ١٨٩٧ . وكتاب الأصنام من تأليف ابن الكلبى ، الذى عاش فى القرن الثانى الهجرى ، لا يزال مفقوداً حتى اليوم .

ولندرك قيمة ما ورد فى هذه النصوص المتناثرة المتباينة ولنجمع بينها ، علينا أن نرجع إلى الديانات السامية القديمة وإلى الشعائر الدينية عامة ، وقد أخذت هـذه الدراسات تتقدم يوماً بعد يوم .

* * *

واللات هى الإلهة التى تعـد أكثر وروداً فى النصوص الصفوية ، إذ قد ورد ذكرها أكثر من ستين مرة .

وقد احتفظ المؤلفون العرب بذكرى الإلهة اللات وذكروا عنها خاصة أنها كانت تعبد بالطائف على مقربة من مكة ، وما ذلك إلا لأن القرآن قد ذكرها فى الآيات التى سندرسها بعد قليل . وقد اختصت اللات بالوادى الخصيب الذى تقع فيـه مدينة الطائف ، فهناك كان حماها أو البقعة المقدسة التى تقابل الحرم ، وهناك كانت تقام بعض الشعائر . ففى حمى اللات بالطائف : كان من المحظور قطع بعض الأشجار وصيد الحيوان . وقد نشأ عن هذا الرأى تقديس السمك فى بعض المجارى المائية بالشام والحيوانات التى تربى فى حرم معبد الآلهة السورية فى هيرا بوليس . وكل ما كان يعيش فى البقعة التى تحميها الإلهة تصبح له صفة القدسية .

ولم يلتفت أحد قبل ذلك إلى أن هـذا اللون من المعرفة يعد فى الواقع القصة القرآنية التى وردت فى ناقة صالح والتى تنطبق على ذلك تمام الانطباق . فسيدنا محمد (صلعم) كان يبعث الحمية فى نفوس من آمنوا به حين يتلو عليهم ما ورد فى القرآن من أن كثيرين من الأنبياء قبله قد كفر بهم قومهم . وكان يذكرهم بما يقصه عليهم من الآيات الدالة على أن النبى صالحا قد بعث فى قوم ثمود ليرشـدهم إلى عبادة الله الحق . وكان أول عمل قام به صالح أنه وهب ناقة لله[1] . وقال لقومه :

---

(١) لم يفهم المفسرون هذه الأسطورة ، فزعموا أن صالحاً قد أخرج بمعجزة الناقة من صخرة ، وذلك ليزيدوا الأسطورة تأثيراً . ولـكن الآيات القرآنية التى وردت فى خمسة مواضع من القرآن (سورة ٧ آيات ٧١ — ٧٧ ؛ سورة ١١ ، ٦٤ — ٧١ ؛ وسورة ٢٦ : ١٤١ — ١٥٨ ؛ ٥٤ : ٢٣ — ٣١ ؛ ٤١ : ١١ — ١٤) لم تشر إلى هذه المعجزة .

« وياقوم هــذه ناقة الله لــكم آية . فذروها تأ كل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب[١] » ولــكنهم لم يؤمنوا بالله فعقروا الناقة ، فأخذتهم الصيحة وأصبحوا فى ديارهم جاثمين . والذين كانوا يستمعون إلى محمد ، كانوا يدركون أن الله هو الإله الحق ، لأنه أهلك قوما بلغت بهم الجرأة أن قتلوا ناقة ترعى فى حماه .

وكان حرم اللات بالطائف يحتوى على حجر يمثل الإلهة ، حجر أبيض مربع الزوايا ، فــكان إذن حجرا جيريا . وكان فى أسفل الحجر فتحة تسمى « غبغبا » توضع فيها كل الــكنوز الثمينة التى تتعلق بالإلهة من ثياب غالية وحلى ومباخر وذهب وفضة . والتفسير الذى ذهب إليه المسلمون المتأخرون فى هــذه الديانة الوثنية يعد غريبا حقاً : فقد زعموا أن هذا الحجر كان يستعمله يهودى لطحن الغلال ، وذلك استنادا إلى اشتقاق خاطئ للات . وعندما مات هذا اليهودى ، انتقلت روحه إلى ذلك الحجر ، فاتخذه سكان ذلك المــكان إلٰها لهم[٢] .

ونستطيع أن نذهب إلى أن هــذه الديانة الوثنية قد ظل قوم يؤمنون بها سرا حتى بعد أن هدم معبد اللات وأقيم مسجد مكانه . وذلك لأن ابن الــكلبى كان يعلم أن مئذنة المسجد اليسرى بنيت فى المكان الذى كان يشغله هذا الصنم . ومن ناحية أخرى يذكر الأستاذ دوتى أن بعض القوم بالطائف أطلعوه على ثلاثة أحجار أقيمت لذكرى اللات والعزى وهبل . ولــكن ربما كانت هذه الرواية مجرد ظن علمى .
وسنعرض الآن لما ورد فى القرآن عن الديانات الوثنية ؛ وهى روايات قليلة العدد .

ورد فى سورة نوح رقم ٧١ : آيات ٢٢ و ٢٣ على لسان قوم نوح الذين كفروا بدعوته حين دعاهم لعبادة الله : « وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا »[٣] .

---

(١) القرآن : سورة ١١ آية ٦٧ وسورة ٧ آية ٧١ .

(٢) ڤلهوزن : l.c — ص ٢٩ .

(٣) فيما يختص بهذه الآلهة التى كانت تعبد خاصة فى جنوب بلاد العرب ، نشير بالرجوع إلى ڤلهوزن l.c. ص ١٣ — ٢٤ . ولتكملة المعلومات فيما يختص بالديانات السبئية فإننا نشير بالرجوع إلى هومل : Grundriss ، وإلى ويبر فى كتابه : Arabien vor dem Islam .

ولم يرد فى النصوص الصفوية ذكر لأى إله من هذه الآلهة .

وذكر القرآن فى سورة النجم رقم ٥٣ ثلاثة آلهة أخرى ، آيات ١٩ — ٢٣ : « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك إذاً قسمة ضيزى . إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » .

وقد وردت إشارة فى القرآن تلوم العرب على أن يشركوا بالله ويعبدوا آلهتهم ، فى سورة النساء ، الآية ١١٧ : « إن يدعون من دونه إلا إناثا » .

ويبدو أنه نتج من هذا الإشراك بالله أن بعض العرب الوثنيين قد جعلوا اللات شريكة لله ، فقد ورد فى سورة النجم : آيات ١٩ — ٢٣ قوله تعالى : « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك إذاً قسمة ضيزى . إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى » . وسنرى فيما بعد أن العزى ومناة ما هما إلا صورتان للات . حقاً ، لقد أريد أن تنسب هذه الآلهة إلى الله على أنهن بناته ، وهذا الرأى يعتمد على إشارة إلى هذه الآلهة[1] فى سورة الصافات ، الآيات ١٤٩ — ١٥٣ : « فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ؟ أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون ؟ ألا إنهم من إفكهم ليقولون : ولد الله وإنهم لكاذبون . أصطفى البنات على البنين ؟ » ويعارض الأستاذ هرتويج ديرنبورج الرأى الذى يذهب إلى أن هناك إشارة إلى هذه الآلهة فى الآيات السابقة[2] . والواقع أن النص يبين لنا أن المقصود هم الملائكة والشياطين ، فالآية ١٥٨ من نفس السورة تقول : « وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ، ولقد علمت الجنة أنهم لمحضرون[3] » .

---

(١) هاتان الصفتان قد ذكرتا هنا للسجع ولموسيقى الكلام .

(٢) فلهوزن : بقايا الوثنية العربية ، ص ٢٤ ، Welhausen, Reste ar. Heidentums 2, p. 24. الطبعة الثانية .

(٣) Hartwig Derenbourg, Le culte de la déesse al-Ouzzâ en Arabie au IVe siècle de notre ère, extr. des Mémoires orientaux de l'Ecole des Langues Orientales, 1905, p. 33-40. هرتويج ديرنبورج : ديانة الإلهة العزى ببلاد العرب فى القرن الرابع الميلادى ، فصله من المذكرات الشرقية لمدرسة اللغات الشرقية ، عام ١٩٠٥ ، ص ٣٣ — ٤٠ .

وقد أمدنا الكتاب القدماء بمعلومات دقيقة عن عبادة اللات التي يرجعونها إلى زمن بعيد .

وهيرودوت في ١ — ١٣١ يذكر لنا أن العرب كانوا يعبدون الآلهة أفروديت أورانيا وكانوا يسمونها Ἀλιττα"[1] « أليتّا » . وفي نص آخر ٣ — ٣ نرى رسماً أصح هو : Ἀλιλάτ° الإلات .

ولو صح أن هيرودوت قد أورد هذه الصورة Ἀλιλάτ° وكانت كتابتها صحيحة ، لأصبحت مرادفة للكلمة ,אַל־אִלָּת الإلات وهو إدغام وسط بين ,אַל־אֱלָהַת الإلاهت والإدغام التام ,אִלָּת اللات . ومثله مثل لفظ الجلالة ,אַל־אֱלָה الإلاه الذي أصبحت صيغته ,אִלָּה الله .

وربما أمدتنا هذه المقارنة باشتقاق كلمة اللات ؛ ولكن يجب علينا أن نتساءل عما إذا كان هذا الإدغام قد وجد فعلا زمن هيرودوت . وفي هذه الحالة ، أيّ الصورتين نأخذ بها ؟ أهي : أليتا أو الإلات وأيهما أصبحت اللات ؟ إننا — كما سنرى فيما بعد — نضطر إلى قبول هذا الفرض لو كانت هذه الإلٰهة قد ورد ذكرها في النصوص السبئية على صورة אלת واستعيرت هذه الصورة دون أدنى ريب من لهجات شمال جزيرة العرب . وفي نفس الوقت يجب ألا نعمل على التقريب بين اللات وبين الإلٰهة المصرية التي وردت في النصوص المصرية باسم وررت أو أوريرت[2] .

ويذكر هيرودوت أروتال Orotal[3] خدينا لأليلات — اللات . ثم يذكر

---

(١) هذا النص لهيرودوت قد اعتراه بعض التغيير : فاسم Mithra يذكر على أنه اسم إلهة . والرسم المخطوط لاسم Ἀλιττα قد ذكر لورود كلمة Μυλιττα في نفس الجملة (Bilit) .

(٢) هذه المقابلة قد أقرها الأستاذ هومل : مقالات ودراسات ، ج ٢ ، ص ٢١٥ و ٢٧٠ وما يليها . وكذلك أقرها علماء الآثار المصرية أمثال نافيل : الدير البحري ج ٣ ، ص ١٩ — لوحة ٨٤ .

(٣) انظر فيما يلي دوزاريس في الفصل السابع .

أنهما أكبر إلٰهين عند العرب . ويذكر أرين Arrien فى نفس المقام ديونيسوس Dionysos وأورانوس Ouranos[١] ، على حين يذكر سترابون Strabon ديونيسوس وزيوس Zeus[٢] . وعلى هذا فأورانيا Ourania أصبح عند أرين «أورانوس» الذى تحول عند سترابون إلى زيوس . والواقع أن أوريجن Origène يذكر ديونيسوس وأورانيا[٣] .

أما الأول فهو الذى سندرسه فيما بعد باسمه الوطنى المعروف به وهو دوزاريس ؛ أما أورانيا فنحن نعرف من هيرودوت بأنها اللات . فنحن نرى أن اللات تماثل كوكب الزهرة لا كوكب الشمس[٤] كما قيل غالباً من قبل ، وكل ما سنذكره يؤيد هذا الرأى .

إن ذكر ديونيسوس — دوزاريس يدل على أن هؤلاء المؤلفين القدماء كانوا يعلمون خاصة أحوال عرب الشمال . والنصوص النبطية تؤيد أهمية عبادة اللات فى ذلك الوسط . فعند النبطيين تأصلت اللات فى الإلٰهة أورانيتيد ؛ وسندرس إذن فى اهتمام كبير النصوص النبطية التى تتصل بها .

« فمجموعة النقوش السامية » CIS ٢ — ١٧٠ ، تشير فى أكتوبر سنة ٤٧ م إلى أن شخصا يدعى مليكو بن قصيو (؟) كان كاهنا للات فى حبران وهو موضع بجبل حوران .

---

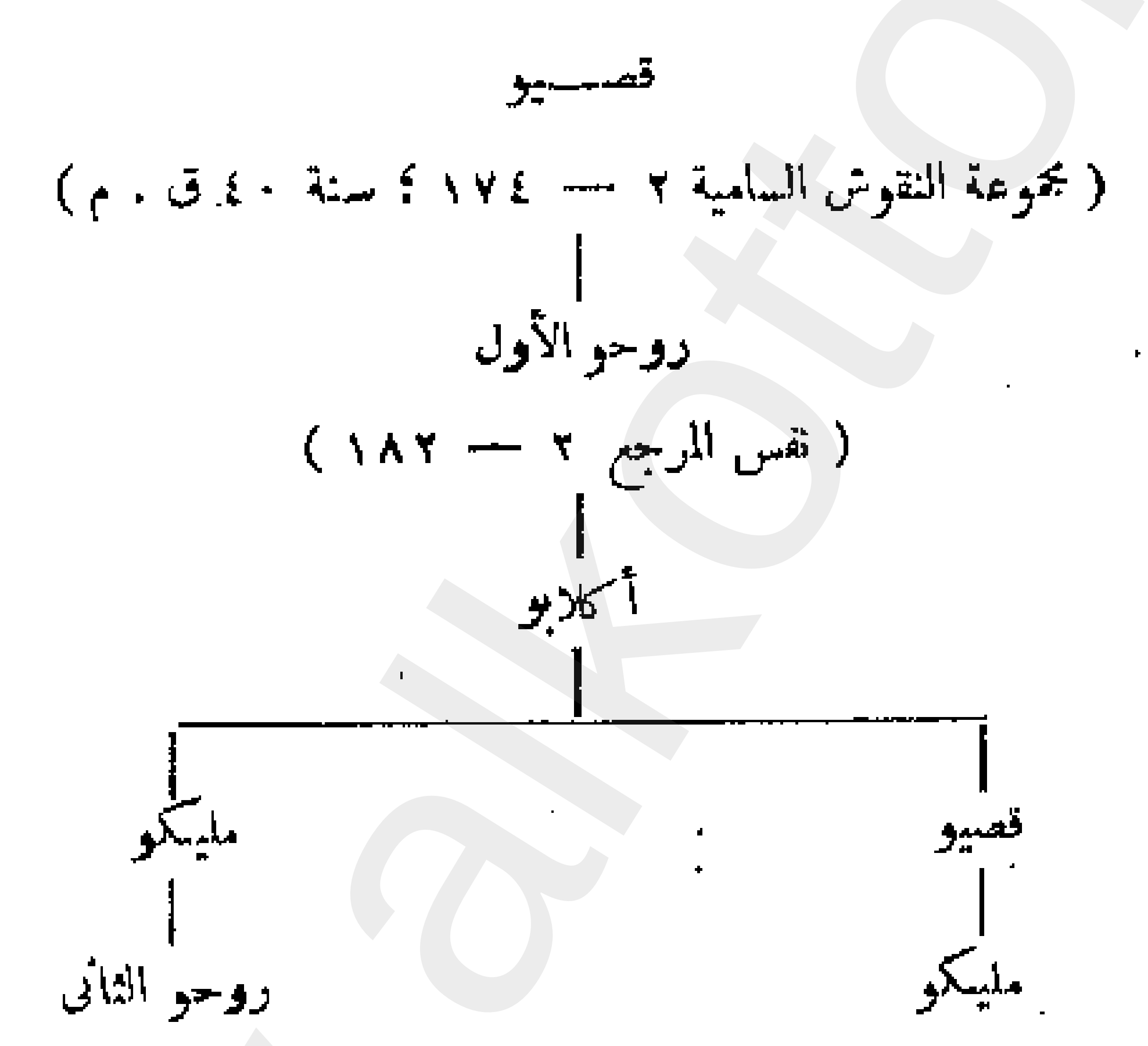
(١) Arrien : Exped. Alex. ، ج ٧ ، ٢٠ .

(٢) سترابون : ص ٧٤١ .

(٣) Origène : Contra Celsum ، ج ٥ ، ٣٧ . وأورجين مفسر ولاهوتى ، ولد بالإسكندرية ، وكان على جانب كبير من النبوغ فى تبرير ما يقوله . غير أنه قد غالى فى استعمال الطريقة الرمزية فى تفسير الإنجيل . وعاش فى المدة ما بين ١٨٥ و ٢٥٤ ميلادية . المعرب

(٤) يجب أن يصحح فلهوزن فى هذه النقطة فى كتابه بقايا الوثنية العربية ، الطبعة الثانية ص ٣٣ ، وهومل فى كتابه ، المطول ص ١٤٧ . والخطأ الذى وقعا فيه قد جاءهما من اختلاط الأمر عليهما من أن الشمس مؤنثة فى اللغة العربية ، وكثيراً ما يعبر عنها بالإلهة . ونرى أنه كوك Cook فى كتابه Text Book ص ٢٢٢ ليس خسيراً منهما حين خلع على اللات طابعا قمريا .

ويذكر نفس المرجع CIS ٢ — ١٨٢ أنه فى سنة ٥٠ م أقيم معبد « للات إلـٰهتهم فى صلخد » بناه روحو بن مليكو وأسرته ، وروحو الثانى هذا كان عمه روحو بن قصيو أو روحو الأول[1] . ونصّ المرجع نفسه فى ٢ — ١٧٤ حوالى سنة ٤٠ ق . م يبدو أنه يذكر قصيو على أنه أب ذلك الأخير . وعلى هـذا فإن روحو الأول أسس عبادة اللات فى صلخد كما يقول الأستاذ كليرمون جانو . وقد انتشرت هذه الديانة ، فأسس حفيده روحو الثانى معبدا يليق بمكانة الإلـٰهة . ويجب أن ننسب إلى هذه الأسرة الدينية مليكو بن قصيو كاهن اللات دون أن نقع فى خطأ ؛ وسنذكر فيما يلى نسب هذه الأسرة :



(نفس المرجع ٢ — ١٧٠ ؛ سنة ٤٧ ميلادية) (نفس المرجع ٢ — ١٨٢ ؛ سنة ٥٠ ميلادية)

يتضح لنا من هذا المثل أن الوظائف الدينية كانت مقصورة على أسرة واحدة . وفى حران كان الإلـٰه يعرف بأنه « إلـٰه فلان » ، ويغلب على الظن أن فلانا هذا كان رئيس الأسرة الدينية . ونحن نتعرف أيضاً على أفراد الأسرة الدينية فى أولئك الذين يكرسون حياتهم لآلهتهم والذين يذكرون الآلهة بأسمائها على أنها إلـٰههم أو إلـٰهتهم . غير أننا أصبحنا نواجه الآن قوما من الحضر قد أحل عامل

(١) كليرمون جانو : مجموعة الآثار الشرقية ، ج ٢ ، ٣٧٣ .

الأسرة عامل البطن والقبيلة فى المحل الثانى . فعند البدو من العرب ، كانت البطن أو القبيلة لا تعرف للأسرة مركزا استثنائيا مثل هـذا المركز . ومن المحتمل أن تكون عبادة إلـه من الآلهة خاصة بهذه البطن أو بتلك القبيلة . فمثلا كانت خدمة عبادة المعبود «يَهُوى» مقصورة أول أمرها على قبيلة ليفى ؛ «ومَلَكْبِل» فى تدمر كان يعد إلـه بنى تيمى ؛ ونحن ندرك أن بنى تيمى كانوا سدنة هـذا الإلـه . وسندرس فى الفصل التالى إلـه قبيلة عويذ . وعلى الجملة فإن كهنة اللات فى معبد الطائف كانوا بنى عتاب بن مالك .

هناك نص نبطى آخر وجد بصلخد فى مجموعة النقوش السامية ٢ — ١٨٣ عبارة عن تدشين معبد فى سنة ٩٥ ميلادية ، قام به شخص يدعى قصيو بن أذينت לאלת וואגרה : (لالت ووجره) . يفهم منه إجمالا أنه معبد شيدل « اللات ووجره[١] » . وهناك شك فيما إذا كانت الكلمة وجره أو وجده . ولم يرد ذكر هذا المعبود مرة أخرى . ويحتمل أن تكون الهاء الأخيرة فى الكلمة عبارة عن هاء الغائب . وإذا سلمنا بأن الكلمة هى وجر فإن من معانيها «الكهف والمعبد ؟» وقد يكون المراد منها الغبغب (الكنز) .

ومثل هذه الألفاظ ليست غريبة على النبطية . ففى مجموعة النقوش السامية ٢ — ١٩٨ ، نجد نصا نقش على قصر البنت فوق قبر كَمْكَم وابنته كُلَيْبَت ، متضمنا الدعوة على من يفسد راحة الثاوين فى هذا القبر : لعنة دوزاريس ومتاب ، لعنة اللات فى عَمْنَد ، لعنة مَنَواتُو وقيس :

٣ — . . . וילען דושרא

٤ — ומותבה ואלת מן עמנד ומנותו וקישה . . .

(١) الوجر : كالكهف فى الجبل ، والوجار ، بالكسر والفتح ، جحر الضبع وغيرها ، والجرف حفر السيل من الوادى . ووجر جبل بين أجا وسلمى . ق . ج ١ ص ١٥٣ .

وكما ذكرنا من قبل اللات ووجر ، فإننا نجد هنا دوزاريس ومتاب ومنواتو وقيس . إلا أننا لا نعرف شيئاً قاطعا عن المراد بالكلمة الأخيرة ، وسنتحدث فيما بعد عن متاب ودوزاريس . كما أننا لا نعرف شيئاً عن اللات التي في عمند .

وقد عثر الأستاذ إينوليتمان حديثا على لقب غريب للات وجده في نص نبطي في أورانيا : אלת רבת אל־אתר (ألت ربت آل أثر) . ووجود أداة التعريف العربية يدل على أننا بصدد تركيب وارد إلى الشام . أما كلمة أثر فهي نفس الكلمة التي وجدناها في النصوص الصفوية وهي أثر بمعنى : العلامة ، وما بقي من رسم الشيء ، ما بقي من منتجع . وتفيد الكلمة ، على العموم ، معنى المكان ؛ على أنها لاتفيد هنا معنى مكان ذي طابع ديني أي حرم مقدس .

وهذا يلقي ضوءا على نص نبطي كان لا يزال حتى الآن غامضا : ألا وهو مجموعة النقوش السامية ٢ — ٤٢٢ — ٤٢٣ . ذلك أن الأستاذ أوتنج قد وجد في تدمر ، عند المنفذ الغربي لسيق ، رسما منحوتا في الصخر مكونا من طاقة مستطيلة قليلة العمق ، يوجد بها مربعان صغيران وبهما ثقب قد رسما على جانبي شكل قائم الزوايا[١] . وقد قرأ الأستاذ أوتنج تحت الطاقة : אתרעתא وعلى جانبيها .מנבגיתא . والأستاذ كليرمون جانو الذي درس هذه المجموعة دراسة دقيقة ، قد أكد أن هذه الكلمة الأخيرة اسم جنس مؤنث — مأخوذ من منبج — هيرابوليس[٢] .

والصفة التي توصف بها اللات وهي : רבת אל־אתר لايوجد أدنى شك من أن ندرك منها كلمتين هما : אתר־עתא « أترعتى » ؛ وعلى هذه كانت إلهة كبيرة عظيمة النفوذ . والأثر ، هو المكان المقدس الذي يتمثل في تلك الكوة وإن كانت عناصره لما تزل غير محددة ، ولكنه يمثل الإلهة ويضفي عليها طابعا ماديا . وهذا المعنى الذي نراه هنا في كلمة أثر لا يختلف كثيراً عن ذلك المعنى الذي فسرناه

---

(١) اقتباس جديد في برونوف : الأقاليم العربية ، ج ١ ، ص ٣٢٣ .

(٢) كليرمون جانو : مجموعة الآثار الشرقية ، ج ٤ ، ص ٩٩ — ١١٢ .

به فى النص الكبير الذى عثر عليه فى بطراء[1] . وهذا يذكرنا بذلك الاشتقاق الغريب الذى يقترحه سمپليكيوس Simplicius ، والذى سنتحدث عنه فيما بعد ، وقد فهم من النص كلى אתר גדא بدلا من ,עתר עתה فسر الكلمة الأخيرة بمعنى τόπος Θεῶν . أما أن أتر جاتس كان يؤمن به بعض العرب فهذا ما يؤيده لوسيان[2] المؤرخ الرومانى حين يذكر أن من بين القرابين التى كانت ترسل إلى المعبد فى هيراپوليس قرابين ترد من بلاد العرب .

ولم يبق لدينا إلا أن نذكر نصا نبطيا وجد بصلخد وقد استمدت منه نتائج هامة ولكنها لم تزل بكل أسف غير مرتبة ترتيبا حسنا : إننا ننقل هذا النص عن مجموعة النقوش السامية ، ولكننا نسارع فندخل عليه فى أول سطر تصحيحا هاما اقترحه الأستاذ كليرمون جانو[3] .

مجموعة النقوش السامية ٢ — ١٨٥ :

דנה מס[ג]דא די ע[בד נשבו | בר
שלא ל[אלת אם | אלהיא | די מרא[נא רבאל

« هذا هو (المعبد) الذى أقامه نشبو[4] بن شولا" لللات ، أم (؟) الآلهة ، أم إلـهنا رابل » .

ومع هذا فقد لاحظ الأستاذ كليرمون جانو أن قراءة « أم الآلهة » مشكوك

---

(١) مجموعة النقوش السامية ، ج ٢ ، ٣٥٠ — ٣ . ومن المحتمل أن يكون كذلك أيضاً فى التدمرية . قارن كليرمون جانو : المجموعة ، ج ٧ ، ص ١٠ وص ٣٩٠ . أما فيما يختص بكلمة אתרקדשו فى مجموعة النقوش السامية ج ٢ ، ص ٣١٢ فإن تفسيرها لا يزال مشكوكا فيه نظراً لأن قراءتها لم يتفق عليها بعد تماما .

(٢) De deâ Syrâ ص ١٠ .

(٣) كليرمون جانو : مجموعة الآثار الشرقية ، ج ٢ ص ٣٧٤ ، هامش ٣ ؛ ج ٤ ص ١٨١ .

(٤) يفضل الأستاذ كليرمون جانو الآن قراءة هذا الاسم « نقبو » وهو اسم معروف .

فيها ، وإنه لا ينبغي الأخذ بها . ويعتقد هـذا العالم الجليل ، الأستاذ بالـكوليج دى فرانس ، أن النص لم يتضمن أية إشارة للات .

وإن كان من المحقق أنه وجدت إشارة للات ، أم الآلهة في عبارة اسنت إيبفان ؟ إذ أن هذا المؤلف قد ذكر أنه يوجد ببطراء صنم يمثل إلـهة عذراء هي أم دوزاريس . وعلى هذا فقد فـكروا في الحال بأن المقصود هي اللات . ويكاد هذا الافتراض يكون مقبولا في ذاته ، ولـكن الدليـل الذي يبدونه يدعو إلى الاستخفاف به .

وإذا كان سانت إيبفان قد وجد اللات ليدلل على مدى انتشار مذهب العذراء ، لما تردد في ذكرها . ولـكنه لم يذكر اللات في نصه وإنما ذكر خابو χααβοῦ وهو اسم عرف منذ وقت طويل أن المراد به هو الاسم العربي «الـكعبة» ، والذي لا يزال يدل حتى يومنا هـذا على البناء المـكعب الذي يوجد بمكة ، والذي لا يزال الحجر الأسود المشهور موجوداً به . وإذا كان هذا الصنم المقدس أو هذه الأصنام المقدسة التي تمثل دوزاريس موضوعة فوق كعبة ، فإن متاب يعده سانت إيبفان في شيء من الازدراء أماً لدوزاريس . ونحن لا نعود إلى إثبات ذلك بعد أن تحدثنا عنه في غير هذا الموضع[1] .

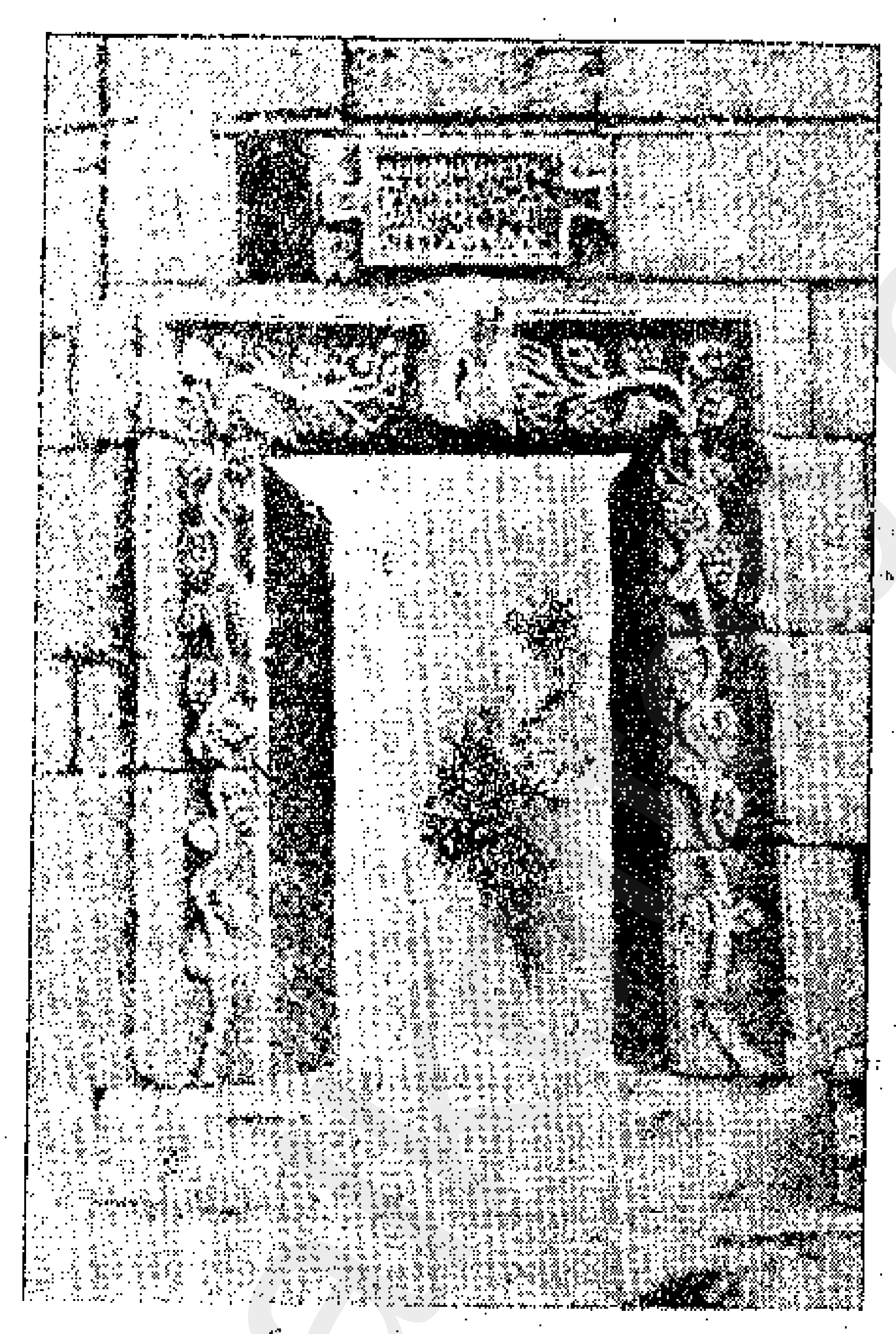
ليس لدينا ما يؤيد أن اللات كانت أما لدوزاريس وإنما كانت على الأصح معه في مكان واحد . ففي هـذه الأوساط السامية ، كان المتبع دائما أن الإلـهة التي تتبع كوكب الزهرة يكون معها دائما إلـه ذو طابع شمسي . وقد عرف عن دوزاريس منذ زمن طويل ذلك الطابع ، إذ أنه يوصف به[2] Θεὸς ἀνίκητος وهو لقب لا يعطى إلا للإلـه الشمسي ، وأن الدوزاريات توصف بأنها Actia أي أعياد تقام تمجيدا للآلهة ثم هناك دليل آخر وهو أن سانت إيبفان يحدد يوم ٢٥ ديسمبر عيداً لميلاده ./

---

(١) انظر ملاحظاتنا عن الميثولوجيا السورية ، ص ١٧٤ وما يليها .

(٢) نص سعاده ، ودنجتون ، l. c. رقم ٢٣١٢ .

Texte de Soada, Waddington l.c. no 2312.



شكل ٢٧ — باب محراب معبد اللات — أثينا بدامة العليا باللجة

لقد دخلت اللات حوران بواسطة النبطيين والصفويين أيضاً ، ولم تلبث طويلا حتى اكتسبت الطابع اليونانى . وقد أخذت عن العبارات الدينية اليونانية اسم أثينا . وكل العبارات الدينية التى قدمت لأثينا τῇ κυρίᾳ Ἀθηνᾷ والتى نعثر عليها فى أورانيا وتراخونيا يمكن أن ترد إلى الإلـهة اللات . وكتاب النقوش اليونانية واللاتينية لودنجتون يحتوى على دلائل تؤيد وجود هـذه العبادة فى بلدة عمرة (ودنجتون ٢٠٨١) وشمالى جبل حوران وفى بلدة تـرْبه (٢٢٠٣ — ا و ب) وفى المشنف (٢٢١٦) فى الإقليم الشرقى لجبل حوران الذى استقر به الصفويون وفى

الرحا (ودنجتون ٢٣٠٨ : τὸν ναὸν τῇ 'Αθηνᾷ ἐν "Αρροις) ، وفى ولفا (٢٤١٠) ، وفى كنانا (٢٣٤٥) فى السفح الغربى لجبل حوران ؛ وأخيراً فى اللجة (تراخونيا) فى حران (ود — ٢٤٦١) وفى دامة العَلْيا (ود — ٢٤٥٣) .

لقد اقتبسنا فى شكل ٢٧ مدخل محراب معبد فى دامة العليا ، وهو يعطينا مثلا على زخرفة بأغصان الكرم يتمثل فيها التقدم الملحوظ . وكذلك نجد فى المشتمل وفى معبد بعل سمين فى بلدة سيعه على مقربة من كنثا ، الصورة المقدسة منحوتة فى أعلى الكرمة . وهنا نرى رأس أثينا قد نحت بطريق الدق . وفى الأعلى نرى نص الإهداء باقيا فى مكانه وهو :

'Αθηνᾷ τῇ κυρί[ᾳ] Τάννηλος Μοαιέρου τὸ πρόπυλον ἀνέθηκεν

والدليل على أننا نواجه ديانة محلية يقدمه لنا نص عبارات الإهداء التى عثر عليها فى بلدة كنثا (ودنجتون ٢٣٤٥) : τῇ κυρίᾳ 'Αθηνᾷ Γοζμαίῃ . ومما لاريب فيه أننا نجد هنا لقبا محليا لأثينا ، كما لاحظ من قبل الأستاذ ودنجتون ، ولكن بقى علينا أن نفسره . وإننا لنقترح أن أمامنا صفة مشتقة من اسم رجل أو قبيلة وأن هذا الاسم يبين أن القبيلة أو الأسرة قد تسمت به لأن لها طابعا دينيا ، كما ذكرنا من قبل . ولنقارن على الأخص لقب Τυχή Θαιμεῖος أو بنى تيمى الذى يلقب به مَلكَبْيل فى تدمر . والصورة الأصلية لكلمة Γοζμαίῃ من المحتمل أن تكون هى גשמי ، ولم يظهر هذا الاسم حتى الآن ، ولكن لدينا الكلمة النبطية גשמו, Γοσάμος .

كان العنصر العربى فى تدمر هاما إلى أبعد حد فأدخل فيها عبادة اللات . وهناك نص تدمرى يشير فى الواقع إلى هذه الإلهة[1] ؛ ولكنها غالباً ما تذكر باسم أثينا : فابن أذينة وزينوبيا وهب لات أى « هبة اللات » ترجم اسمه إلى أثينودور Athénodore

---

(١) دى فوجه ٨ .



شكل ٢٨ — نقش بارز لبعض الآلهات التدمريات
ومن بينها اللات — أثينا(١)

---

(١) عثر الأب لامانس فى حمص على هـذا النقش البارز الموجود حاليا فى متحف Cinquantenaire ببروكسل . وقد كان موضع دراسات متعددة وخاصة بواسطة الأب رونزفال الذى ندين له بهذا الكشف الذى يعد على جانب كبير من الأهمية وهو معرفته اسم الإلهة سيمنا الذى وجده فى آخر السطر الأول . ولقد رأينا من قبل أن الإسمين Ἀθηνᾶ, Κεραυνῷ المكتوبين فوق هذين الشخصين يجب أن يكونا فى الواقع ضمن عبارة الإهداء المنقوشة فى أسفل النقش البارز (ملاحظات عن الميتولوجيا السورية ، ص ١٠٧ ؛ قارن من ٧٣ و ١٠٤ — ١٠٦) . فضلا عن هذا ، فإن اختباراً جديداً للحجر قد مكننا من أن نقرأ Σε[ιμίᾳ] سئيميا لا Σε[μέᾳ]. سميا . والصورة الكتابية الأولى تعد أصح من الصورة الثانية : ει=η=ι . قارن كلمة Σειμίῳ سيميو الواردة فى نص كفر نبو . ولجمع كل هذه الملاحظات ، فإننا نورد هنا القراءة التى نعدها أصح قراءة حتى الآن :

[θεοῖς πατρῴοις Βή]λῳ Ἰαριβώλῳ, Ἀγλιβώλῳ, — Ἀθηνᾷ, Κεραυνῷ, — καὶ Σε[ιμίᾳ ὁ δεῖνα τοῦ δεῖνος] ὑπὲρ σωτηρίας αὐτοῦ κὲ τ[ῶν τέκνων].

لإله الأجداد بيلو ، يريبولو ، أجليبولو أثينا كيرونو [فلان بن فلان] لسلامته سلامة أطفاله .

ومتحف بروكسل قد احتفظ بنقش بارز عجيب (شكل ٢٨) يمثل لنا أثينا — اللات ، ونلاحظ أنه لم يستعر أية صفة من صفات الإلـهة الإغريقية التي يحمل اسمها[١] . وإذا راعينا الملابس التي تظهر عليها ، والصولجان الذي بيدها والإكليل الذي يشع منه النور ، قلنا إنها على الأصح تشبه أستريته أو أترجتيس . على أن هذا التقارب قد لوحظ من قبل ، لأن هذه الإلـهة بوجودها مع مَلَكبل في مكان واحد ، كانت تسمى تارة أستريته وتارة أخرى أترجتس[٢] .

وهناك طابع عام لجميع الآلهة التي تقارن بكوكب الزهرة ، هو أن هذه الآلهة تتخذ لها صورتين : إحداهما أنها تمثل بكوكب الصباح والأخرى أنها تمثل بكوكب المساء . وعلى هذا فالإلـهة عشتر تمثل صورتين : عشتر الحقيقية ألا وهي نجمة الصباح وإلـهة الحرب ، ونجمة المساء أو « بيليت » . وترى الأمر يتعقد في جزيرة العرب ، بمعنى أننا نجد إلـهين أحدهما مذكر يعبد في الجنوب من شبه جزيرة العرب وهو عشتر ، والأخرى أنثى يختص بها سكان شمالي شبه الجزيرة ألا وهي اللات ؛ وكلاهما يمثل كوكب الزهرة . وعلى هذا فيجب أن نتوقع مواجهة أربع صور ، اثنتان منهما للذكور مأخوذتان من عشتر والأخريان أنثيان ينتميان للات .

وصورتا عشتر قد وصلتا إلى المجتمع الإغريقي — الروماني باسم أزيزوس Azizos ومونيموس Monimos . وقد عثر عليهما في حوران شمالا حتى الرها وقد عرفتا هناك دون ريب بفسفوروس Phosphorus وهسبروس Hespéros ؛ ومن هنا ندرك معنى العبارتين deus bonus puer Phosphorus (الإلـه الطيب الفتى فسفوروس) أو Azizus bonus puer (أزيزوس الطيب الفتى) . وهناك نص تدمري يذكر لنا الاسم المقدس أزيزو بصورته المجازية[٣] . ولكن

---

(١) قارن : ملاحظات عن الميثولوجيا السورية ، ص ٩ هامش ٢ ، ص ٢٥ .

(٢) نفس المرجع ، وربما كان من الواجب علينا أن نشير إلى إشارة جديدة للات تحت اسم أثينا ، وردت في زوبرنهيم : النقوش التدمرية ، ص ١٩ — ٢٠ ، رقم ١١ ؛ قارن كليرمون جانو : المجموعة رقم ٧ ، ص ٢٤ .

(٣) لقد درسنا جميع هذه النقط في كتابنا : ملاحظات عن الميثولوجيا السورية .

يخيل إلينا أن التدمريين كانوا يقولون بدلا من أزيزوس ومونيموس : « عزيزو » و « أرصو » . ونجد فى النصوص الصفوية الاسم المؤنث المقابل لهذا الاسم الأخير تدل عليه كلمة « روضة » .

أما ما يختص باللات فالصورتان المقابلتان لها هما العزّيان مثنى العزى ، وهما ، كما يقول الأستاذ نولدكه ، نجم الصباح ونجم المساء . ومن المحتمل أن يكون قد أطلق على نجم المساء اسم مناة الذى ذكرناه من قبل ، والذى يجوز أن يكون قد سمى بعد ذلك روضة ، بينما كان نجم الصباح هو الذى خصص للإلـهة العزى : إلـهة الحرب التى كان يخصص لها نصيب فى غنائم الحرب والأسرى[1] .

ومن المفيد أن نذكر ، كدليل على الاختلاط المتبادل بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، ذلك النص اليمنى الذى يرجع إلى القرن الرابع قبل الميلاد والذى وجد فيه الأستاذ هرتويج ديرنبورج حديثا ذكر الإلهة العزى : عزيم ؛ وهى على هذه الصورة نجد أن التنوين فيها يقابل أداة التعريف فى العربية[2] .

ووفقا لهـذا النمط فى التفكير يجب أن نشير إلى هذا التركيب فى السبئية : אלהעתתר اللات — عثر (وهناك أيضاً التركيب عزيز — لات) وهو لا يعنى بصفة خاصة لا عثر ولا اللات ، ولا يقصد خاصة مركبا خنثيا ، ولكنه يعنى كوكب الزهرة بالذات . ولقد اقترحنا من قبل هـذا التفسير[3] . وقد عاود الأستاذ بوديسان حديثا دراسة المركبات المقدسة[4] ، وخلص من دراسـته إلى

---

(١) قارن : ڤلهوزن : بقايا الوثنية العربية ، الطبعة الثانية ، ص ٤٠ وما يليها ، ولجرانج : دراسات فى الديانات السامية ، الطبعة الثانية ، ص ١٣٥ .

(٢) هارتويج ديرنبورج : ديانة الإلهة العزى ببلاد العرب فى القرن الرابع الميلادى ، المنشور فى المذكرات الشرقية لمدرسة اللغات الشرقية ، عام ١٩٠٥ ، ص ٣٣ — ٤٠ ، ومحاضر جلسات أكاديمية النقوش والفنون والآداب ، عام ١٩٠٥ ، ص ٢٣٥ — ٢٤٢ .

(٣) البعثة ، ص ٦١ ، ومذكرات فى الميثولوجيا السورية ، ص ٨٣ .

(٤) بوديسان : ZDMG عام ١٩٠٦ ، ص ٥٠٤ — ٥٢١ .

وجود صلة بين اللفظين ، وتبين هذه الصلة حالة الإضافة . وعلى هـذا فالمركب أشمون — أسترته الذى يوجد فى نقوش قرطاجة ، يقصد به أشمون خاصة الذى يقدس فى معبد أسترته . وإذا كان الأستاذ بوديسان يقرب ، كما نعتقد ، هـذا المركب الأخير ويعقد حقاً صلة بينه وبين الإهداء Caelesti et Aesculapio ، فمن المغرى أن نقبل أن بين المصطلحين المقدسين الساميين صلة خفية . ونحن نرى أنه ينبغى لنا التفرقة بين طبقتين من هذه المركبات . أولاهما ما تتضمن أسماء مثل : أشمون — أسترته ، ونحن نفسرها بوجود صلة خفية بينها . وقد وجد الاسمان اتفاقاً دون أن يكون بينهما أية صلة طبيعية ، وجدا معاً لأنهما يقدسان فى معبد واحد . أما الطبقة الثانية ، فقد وجد الاسمان المقدسان معاً لوجود تقارب كبير بينهما ، ويدلان معاً على شىء واحد . فمثلا نقول أفروديت — أسترته كما كان المصريون يقولون أمون — رع . وعلى هذا فنحن نفسر اسم أترجتيس Atargatis على أنه مكون من الاسمين المقدسين أسترته أو (إشتر) وعطى . وبنفس الطريقة تفسر هداد — رمَّان (هداد — ريمون) وعشتر — كموش . وليست هناك ضرورة إطلاقا من أن يكون الاسمان من أصل واحد .

ونعتقد أن ليس فى استطاعتنا أن نعقد صلة بين اللات إلهة عرب الشمال وبين (إلت) التى وردت فى نصوص قرطاجة أو بين اللاتو البابلية .

* * *

والنصوص الصفوية تدل على الأهمية العظمى للإلهة اللات وسط هذه المجموعة من العرب . وسندرس فى الأمثلة التالية العبارات الدينية الكثيرة الاستعمال ، مع ملاحظة أن هذه العبارات ليست مقصورة على هذه الإلهة . وهـذه العبارات هى فى الواقع المقصد الحقيقى لدراستنا هـذه ، وعلى ذلك فسنقتصر فى شرحنا على الضرورى متعمدين الإطالة إذا عرض تفسير جديد .

دم — ٥١٧ :

למעַ[י]ר ב[ן] עד] בן עד בן עת בן [א]חבת
בן סר בן [צ]פה [י]חרץ אחה פהלת סלם ל[ד] חרץ
ועי[ר] ד י[עו]ר

«للمغير بن عد بن بن عد بن غوث بن أخبث بن سور بن صفوح . لقد خرج للبحث عن أخيه . فيا اللات ، اشمل بالرحمة من خرج وأصيب بالعمى من عحو (هذه الكتابة) » . والشخص الوارد فى هذا النص أخ لمن كتب النص دم — ٧٩١ (١) الذى درسناه قبل ذلك . ودراسة جديدة لهذا النقش تحملنا على أن نقرأ اسم الجد الثالث : אחבת : أخبث أفعل التفضيل من خبث . فقد ورد فى النص אפח بدلا من צפח . أما חרץ אחה فهو مصطلح من المصطلحات الصفوية التى لم ترد فى المعاجم العربية . وقد اقترح الأستاذ ليتسبرسكى تفسيره بمعنى « ترصد . بحث » وقد أخذ الأستاذ ليتمان بهذا المعنى . غير أننا نميل إلى أن نفسره بمعنى « يطارد » ، دون أن نقصد إلى تضمين المصطلح دائما معنى عدائيا . ففى حالة انتفاء المعنى العدائى كما هو فى هذا النص فإننا نتفق مع الأستاذ ليتسبرسكى إذ أن المعنى هو « تفقد . بحث من جديد » . ولكن فى بعض الحالات ، يكون المعنى العدائى חרץ هو المراد دون أدنى ريب ، وذلك حين يكون المسند إليه שנא شانئ بمعنى عدو . ولتمارن المصطلح الوارد فى النص التالى (دم — ٢٥١) :

פהלת סלם هذا المصطلح هو أكثر المصطلحات الدينية ورودا ؛ وقد عرفنا اليوم المراد منه . لقد اقترح الأستاذ ليتسبرسكى قبل الآن ، ووافقه الأستاذ ليتمان ، على أن نفصل פה ، وأن نجعل منه أداة هى « فُوة أو فاة » بمعنى קדם الوارد فى نصوص طورسينا وأن نفهم منه : « أمام لات ، السلام ! »[1] وقد ذهبنا إلى اعتبار פ مثل حرف (فَ) بينما الهاء التى تتبعها هى الأداة . والواقع أن هذه الهاء ، كما شرحها فى نفس الوقت الأستاذان ليتمان وج . هليفى ، حرف تعجب

---

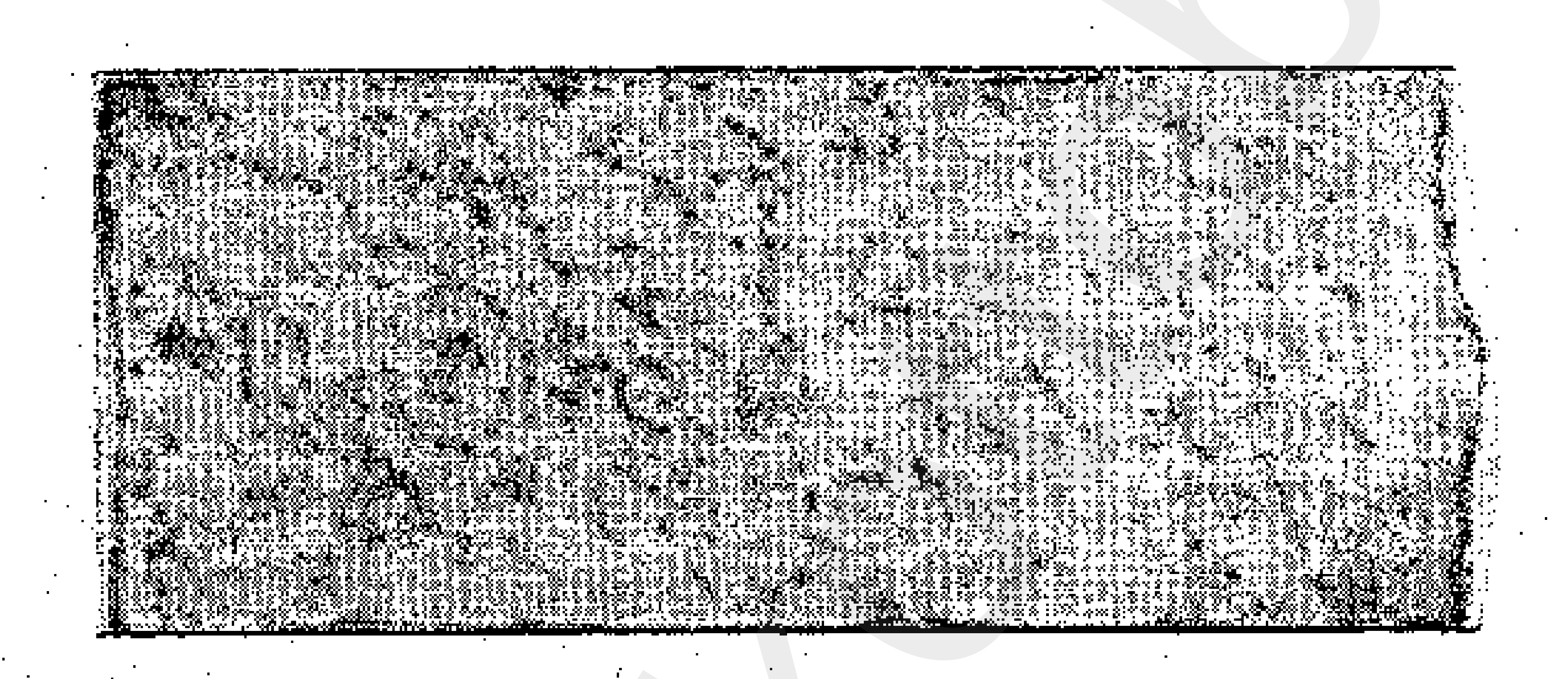
(١) ليتسبرسكى : المجموعة ، ج ٢ ، ص ٤١ .

ونداء مثلها مثل « يا » النداء العربية[1] ؛ فهي إذن هاء التنبيه (ها) الواردة في حرف النداء أيها .

وعلاوة على الأدلة التي سبقت في هذا الصدد ، يمكننا أن نضيف دليلا جديداً هو نص إغريقي فسره الأستاذ كليرمون جانو ، وكتابته من نفس الخط السابق :

Ζεῦ Σαφαθηνέ, | προκοπὴν Ἀρχ]ελάῳ Ἰουλίου.

« يأيها الإلـه زيوس الصفوى ، اشمل بالنصر والربح أرخيلوؤس ابن إيوليوس[2] » !



شكل ٢٩ — تقديم مقدس لزيوس الصفوى

وأرخيلوؤس اسم مستعار دون شك لصفوى كان يقيم ببصرى . وقد نقش نصه الإغريقي وفقا للطريقة الصفوية مستعيضا فقط بكلمة «ربح» عن لفظ « غنيمة » .

وعلى هذا فالكلمات פהלת סלם تؤدى معنى : « إذن يا ألَّلات ، السلام » !

ونلاحظ أيضاً الإيجاز الشديد الذى يطرأ على اسم هذه الإلهة ، وإن كنا نجد أيضاً كلمة הּאלת .

أما الكلمات ועור ד יעורה فتنطوى على لعنة تصبّ على من يحاول محو النص . وهنا كلمة עור فهي أمر من صيغة فَعَّل . وأحياناً نجدها في صورة اسم

(١) ج . هليفى : المجلة السامية ، عام ١٩٠٤ ، ص ٣٧ وما يليها ؛ ليتمان : في حل الرموز ، ص ٥٥ .

(٢) قارن كتابنا : رحلة أثرية في الصفا ، ص ١٩٢ — ١٩٣ لمعرفة المراجع .

(عَوَر) بمعنى « فقدان العين » ؛ وعلى هذا فإننا نرى فى دم — ٤٠٦ و ٥٤٧ :

יעור הספר פהלת עור לך : « إذن ، يا ألّلات ، فلينعقد عينا ذلك الذى سيمحو هذه الكتابة (سفر) . » ولنقارن ما ورد فى دم — ١٤٦ : [illegible] [illegible] « يا ألّلات ، العمى (أو عاقبى) ذلك الذى سيمحو ! »

دم — ٢٥١ = ل — ٥٩ :

ללעתם בן טמתן בן המלך בן כתף בן
המלך בן חמין (ou טמתן) בן עצצת ונפר מן רם פהלת
סלם מ ד חרץ מן חל

« للعثم بن طمثان بن ها — مالك بن كثيف بن ها — مالك بن حميان (أو طمثان) بن غضاضَت . عاد من بلاد الروم . يا ألّلات ، لاسلام على ذلك الذى يطارد من بين الفرسان . »

وقد قدم الأستاذ ليتمان ملاحظات قيمة على هذا النص ، نقتبس بعضها : أما فيما يختص بالمعنى الذى أعطى لفعل حرص فنشير بالرجوع إلى النص السابق (دم — ٥١٧) .

وأما المصطلح ונפר מן רם فيوجد فى دم — ٣٠٦ ا و ٣١٤ — ولم نعد نعتقد الآن أن المراد هو الفرار من بلاد الروم . والواقع أننا رأينا من قبل كيف كان الإقليم المحيط بالصفا تحت حكم الرومان ، وكيف كان الصفويون يعاونون الرومان وأصبحت المملكة النبطية مقاطعة رومانية ببلاد العرب . وصاحبنا هذا يشير فقط إلى عودته من بلاد الروم ، وربما كان يرمى إلى الهجرة السنوية التى قادته مع قطيعه من جبل حوران فى أرض الحره . ويمكن أن نقارن ما ورد فى هذا النص بالمصطلح : « نَفَر الحاج من مِنًى » الذى يشير إلى عودة الحجاج السنوية من منى إلى مكة . وعلى هذا ففى دم — ٣١٤ ولו ונפר : מן רם نفهم منه : « لقد ابتعد ، ثم عاد من (بلاد) الروم[1] . »

---

(١) ليتمان : النقوش السامية ، ص ١٩٠ يترجم : « ... هرب وفرّ من الرومان . »

وفى دم — ١٧٩ ، بعد ذكر النسب والإشارة إلى عدة أشخاص كتب النص من أجلهم ، نجد ...פולי ובאסם כללי פהלת רוה סאר ולקא ד רחל :

« وعلى هذا ، فقد ابتهد هو بينما أقاموا هم بين وسم . فيا ألات ، احرسى من سار واستقبلى من عاد . »

ويبدو أن الجملة الأخيرة يراد بها الشخص الذى كتب النص وقد ترك مكانه للأشخاص الذين كتب النص من أجلهم . ويخيل إلينا أن ذلك يدل على أن معنى العبارة : « لقد كتب ذلك تشريفا لفلان » معناها أيضاً : « بحضور فلان . » وبعبارة أخرى ينبغى لنا أن نعدّ من يرد اسمه بعد عبارة : وَجم على حاضراً كتابة النص .

وكانت الإلهة ألات ، التى تدين بطابعها الحربى إلى تشبيهها بأثينا ، تدعى للحصول على الغنائم ومني פהלת עֲנמת : « لقد قام بغزوة . يا ألات ، الغنائم[1] ! » ويدعونها لتنصرهم على أعدائهم فى دم ٤٦٧ :

...ובהל הנמרת פהלת סלם משנא . . . لقد توقف بالتجارة . يا ألات ، ليتخلّ السلام عن العدو ! » ونرى أيضاً تلك العبارة الغريبة الواردة فى دم — ٨٨٠ :

.. והלת והבת שנאה בן ידה .

« يا ألات ! لقد جعلْتِ عدُوّه بين يديه » .

ونحن نختم ذكر هذه العبارات الدينية الصفوية بنص لدينا بعض ملاحظات عليه[2] .

دم ٥٥٠ ا :

לשמת בן לעתמן בן שמת בן שרך בן אנעם
בן לעתמן ווגם על אמה ועל דדה ועל חלה ועל עם ועל
אנעם קתלה הל צבח פולה על בן־חלה תרח ורעי הצאן
ורהץ בתבר והלה שנא פ הלת סלם ווגד אתר אחה פנקם

(١) ف = ٣٢٣ ؛ د ٩٦ ؛ دم ١٩١ = ل ١٢٠ الخ ...

(٢) ليتسبرسكى : المجموعة ، رقم ٢ ، ص ٤٢ وما يليها .

« لشامت بن لعثمان بن شامت بن شوريك بن أنعم بن َلعثمان . كتبه لشريفا لأمه وعمه (داد) ولخاله ، لعُمٌ ولأنعَم . قاتله خاله صباح . فليحل الدعر بابن خاله تَرَح ! كان (شامت) يرعى الغنم ويسقيها من الغدير حينما اعتدى عليه خاله . يا ألّلات ، السلام ! لقد وجد رحال أخاه ، وعلى هذا فقد ثأر لنفسه . »

إننا نقرأ الآن اسم العلم َعوْم بدلا من أن نرده إلى עמה « ومن عمه » ، لأن هذا الاسم تدل عليه كلة داد . وهذا الاسم العلم עם كثير الورود فى اللغة الصفوية . ويقرأ عادة عَمّ ؛ ولكننا نميل إلى قراءته َعوْم اسم من عام « سار » حينما يتحدث عن الجمل . وهى الأصل للكلمة اليونانية Αὔμος . « أُمُسْ » ، ونعتقد أنه يجب علينا أن نعدّ ترح[1] ، الذى يدعو عليه شامت باللعنة ، اسم علم . ومن المحتمل جداً أن يكون نفس الشخص مذكوراً فى نص قريب من هذا النص : ألا وهو دم ٤٤٩ : ו]לה על חבבה קתל תרח .

«وليحل الدعر بحبيب الذى قاتل ترح» . ونستطيع أن نفهم من هذه الكلمة : חבב, « حبيب » لا بمعنى الصديق ولكن بمعنى « خال » الذى يستعمل بعض الأحيان فى اللغة العربية . وهذا النص الأخير يرمى إلى نفس الحادثة التى وردت فى النص السابق .

(١) فيما يختص بهذا الاسم ، انظر ما سبق ص ١٥ — ١٧ .

الفصل السادس

آلهة الصفويين (تابع)

الله — رُضا — جدعويذ — شمس — إيثا — إثاؤُس ʼΕΘαος — رَحَم — يشيع القوم .

الله[1]

تقدم النصوص الصفوية لأول مرة الدليل القاطع على أن الله كان إلـهاً عبده عرب الشمال قبل أن يصبح الإلـه الواحد الأحد عند المسلمين .

ويدلّ على هذا بعض إشارات منها أن الله كان يرد في بعض أسماء الأعلام النبطية المركبة . وقد رأينا من قبل أن القرآن يتحدث عن أن الوثنيين قد جعلوا الله نباتاً وأقاموا علاقة بين الله والجن ويلوم النبي العرب القدماء على أنهم أشركوا بالله حين عبدوا آلهة أخرى ومن هنا نشأت كلمة المشركين . ولكننا نجد المصادر العربية على الجملة قد سكتت عن ذكر مكانة الله بين الآلهة الأخرى قبل بعث النبي عليه الصلاة والسلام .

وقد نتج عن هذا الصمت أن أصبح بعض الباحثين يخلطون حين يتساءلون عما إذا كان الله مجرد اسم جنس للإلـه هبل[2] الذي كان يعبد في الكعبة . ويذهب الأستاذ ڤلهوزن في شرح اسم هبل إلى أنه كان بمثابة الإلـه الذي يحرس مكة وذلك في عقيدة المسلمين وحدهم حين يتحدثون عن الأصنام ، وذلك أن المسلمين لم يكونوا يدركون إطلاقا أن صنما يمثل الله . ومن ناحية أخرى ، نرى أن القرآن لم يشر إطلاقا إلى هبل . . .

---

(١) اقتضت ترجمة هذا الفصل شيئاً من التعديل في بعض الألفاظ الفرنسية ، قبل نقلها إلى العربية ، للملاءمة بين العقيدة الإسلامية السمحاء والبحث العلمي الدقيق . وهو ما لا ينتظر من العلماء ، غير المسلمين ، إدراكه حين يتعرضون إلى أصول العقائد عند المسلمين . (المعرب)

(٢) ڤلهوزن : بقايا الوثنية العربية ، الطبعة الثانية ، ص ٧٥ .

ومع ذلك فهذا الرأى يفترض أن الله كان ممثلا فى صنم أو وثن ، غير أننا لا نرى ضرورة لذلك . بل نذهب إلى عكس ذلك فهناك ما يدل على أنه إذا كان هبل قد حظى عندهم بأن يمثله صنم فإن الله قد احتفظ بالتمثيل الأساسى عند القدماء وهو الدلالة عليه بحجر مقدس .

وقد آمن محمد بأن الله إله واحد لا شريك له حتى إذا دخل مكة هدم الأصنام كلها دفعة واحدة ، وقد رأينا من قبل أن النبى قد وفق بين العقيدة القديمة فى الكعبة والعقيدة الإسلامية فى التوحيد . وإذا كان الحجر الأسود هو الذى يرمز لله عند العرب فى الجاهلية فإننا ندرك إذن سبب احتفاظ النبى به .

ومن الجدير أن نلاحظ أن لفظ الله لم يرد على لسان النبى صلى الله عليه وسلم فى أول نبوته ، فالترتيب الزمنى لسور القرآن يدل على أن الله كان يعبر عنه بالرحمن فى أول الأمر . وقد حمل هذا بعض الباحثين على الزعم بأن الرحمن اسم لإله آخر من آلهة الوثنيين ، وأن النبى فى زعمهم قد أطلقها للدلالة على الله ؛ ولكن المعتقد أن كلمة الرحمن لم تعدُ أن تكون اسم جنس . وقد فسرها بعض العلماء (من أمثال نولدكه وشبرنجر وجرونبوم) بأنها كلمة مأخوذة من اليهودية . وقد نسوا أن اللغة الدينية كانت تسبق الحدود الضيقة للعقائد وأن الصفة الآرامية رحمنا كثيرة الورود فى النبطية والتدمرية ؛ وقد وجدت أيضاً فى الحميرية[1] .

ومن العجيب حقاً أن نجد كلمة الله تدل على إله فى مجموعة عربية قبل الإسلام بخمسة قرون أو ستة . غير أنه من الغريب أن هذه الكلمة قد وردت فى النصوص الصفوية خمس مرات ولكننا نجهل كيف كان الصفويون يكتبونها . والواقع أن هذا الاسم المقدس كان مسبوقا دائماً بهاء النداء . ومع ذلك ، فقياساً على اسم اللات ، نستطيع أن نذهب إلى أنه فى حالة الإفراد ، كانت تكتب אלה وأن العبارات التى ترد فيها الكلمة بهذه الصورة הלה (فيها هاء النداء) تدل على أن هناك حذفا للألف التى فى صدر الكلمة . وهذا يدل على أن المجموعات العربية منذ أول

---

(١) الحميرية فى القرنين الرابع والخامس الميلاديين رחמנן .

التاريخ الميلادي ، قد فقدت تماماً الشعور بقيمة الأداة فى العنصر الأول من الكلمة ، وأصبح مثل هذه الكلمة مثل لفظ اللات .

ويستنتج مما جاء فى الآيات القرآنية التى ذكرناها فى الفصل السابق ، أن الله كان يعبد فى مكان واحد مع اللات . فكان العرب يدعون الله كما يدعون اللات لتكتب لهم السلامة ، ولكن هناك فرقا دقيقاً وهو أن هذا الدعاء لم يكن بسبب الخروج لموقعة أو غزوة . ولكن بمناسبة حادث سلمى ، كالقيام برحلة مثلا . وعلى هذا فإننا نسجل النص التالى الوارد فى دم ٣٣٩ :

לסני בן סני בן מחנן וו[ג]ד אתר דדה פנגע :
כבר פהלה כלם לד [ס]אר יעירת ווגם על מחלם ועל טנן
ועל הבסך

« لسئ بن سئ بن محنّن . عثر على معسكر عمه . بحث طويلا[1] عن الكلأ فيا ألله ، امنح السلامة لمن يسافر وساعده[2] ! كتب هذا تكريماً لحلم ولطهان[3] ولها — ماسك » .

* * *

رضـــــا

لقد رأينا من قبل أن الاسم المزدوج أزيزوس — مونيموس لم يكن يدل إلا على اسم واحد هو عثتر ، إلـه مذكر كان يعبد فى جنوب جزيرة العرب ، وهو إلـه الكوكب الزهرة . وهذا الاسم المركب كان يدل على كوكب الصباح وكوكب المساء ، يقابل فوسفوروس وهسپيروس .

أزيزوس ومونيموس إلـهان عربيان ، كانا يعبدان فى الرها زمن الرومان ؛ ومما

(١) انظر ما سبق ص ١٠٣ .

(٢) انظر ليتمان : النقوش السامية ، ص ١٦٥ فإنه يقرأ هذه الكلمة « غيارة » . وهذا اللفظ يمكن أن يدل على معنى « الراحة » .

(٣) قارن الكلمة النبطية טננו Τάνενος التى اكتشفها ليتمان فى المجلة الآثار عام ١٩٠٥ ، ج ٤ ص ٤٠٩ و ٤١٢ .

لا ريب فيه أن الأسرة العربية التي كانت تحكم هـذه المدينة هي التي كانت تتصور هذه العبادة .

وكان هذان الإلـهان يظهران في موكب عربة الشمس . كان أزيزوس يتقدم العربة ومونيموس يتبعها[١] . وهناك آثار مختلفة تدل على هذه الفكرة ، وخاصة سقوف المعابد التي توجد في بوثيشيا وبعلبك وتدمر . ففي ديانة بعلبك أو في أية ديانة مشابهة لها يظهر ذلك النقش البارز العجيب للفرزول[٢] . وفي هذه الأشكال التصويرية تتخذ هذه الآلهة صور وجْهيْ وذقنيْ فوسفوروس وهسپيروس . والعبارات اللاتينية التي تتضمنها المعابد قد كتبت دون أية تفرقة إلى « الإله الطيب الفتى فوسفوروس » أو إلى « الإلـه أزيزوس الفتى الطيب . »

وفوق الإسكاف في معبد أم العوامن ، يوجد تابعان على جانبي قرص الشمس ؛ يرتديان ثيابا طويلة وعلى رأس كل منهما القلنسوة الفارسية العالية . ويتلألأ نجم فوق كل منهما . ومع ذلك فإننا لا نستطيع القول هنا بأن هذين الإلـهين هما الإلـهان العربيان أزيزوس ومونيموس .

وعلى العكس من ذلك ، نجد في إقليم حوران عبارة مهداة للإلـه أزيزوس[٣] وقد رمز إليه بصورته النصفية يعلوها النسر الشمسي . وفي تدمر ، نجد نصاً يتضمن الاسم المركب عزيزو — أرصو[٤] بدلا من أزيزوس — مونيموس .

١ — « لأرصو ولأزيزو . الإلـهان الخيران المجزيان ، قد عمله بعكي (أو بعلي) .

---

(١) جوليان : Orat ج ٤ ، ص ١٥٠ و ١٥٤ .

(٢) انظر كتابنا . ملاحظات عن الميثولوجيا السورية ، ص ٥٤ .

(٣) ودنجتون . ٢٣١٤ .

(٤) ليتمان : النقوش السامية ، ص ٧٧ وما يليها . كان أول من كشف هذا النص ونشره موريتز زوبرنهيم ؛ قارن الملاحظات الحديثة التي نشرها كليرمون جانو في المجموعة ، ج ٧ ، ص ٣٢ — ٣٤ والجرائج في مجلة الكتاب المقدس ، ١٩٠٦ ، ص ١٧٦ . والتاريخ مختلف فيه ، لأننا إذا أخذنا بقراءة لجرائج في سنة ٢٥ ليس فيها شك فإن الفترة الحديثة التي يقترحها من الصعب قبولها . ويقترح كليرمون جانو فترة تبدأ من سنة ٢٤٦ ميلادية ، ولكنه يفضل مع ذلك أن يفترض أن رقم المئات قد حذف عمدا .

٢ — ابن يرحيبولا ، قسّ (أفكل) أزيزو الإلـه الطيب .

٣ — والرحيم ، لسلامته وسلامة إخوته ، فى شهر تشرى (أكتوبر) .

٤ — من سنة ٢٥ . فليذكر الناس يرحى النحات ! » .

ومع هذا النص نقش بارز : فأمام مجموعة من الناس ، جلس طفل عار على عرش وهذا الطفل يمثل الاسم المركب أرصو — عزيزو .

وطبيعة كوكب المساء الذى يميز أرصو يمكننا من التعرف على إلـه من آلهة الصفويين يرد فى النصوص على هاتين الصورتين : .רצו et רצא وهاتان الصورتان الكتابيتان المختلفتان تفسرهما لنا الكلمة العربية الفصحى رُضاء . وصورة الهمزة تدل على أن الصورتين الكتابيتين لهما نطق واحد : رُضاؤ ورُضَاى . وفى العربية نجد أن رضا إلـهة ، ومما لاريب فيه أنها مؤنثة أيضاً فى الصفوية ، بينما نجد أرصو فى الشكل التدمرى يدل على مذكر . ومن هنا أيضاً نرى فى كوكب الصباح المذكر عزيز وإلى جانب العزى الأنثى .

وقد عثر عدة مرات فى صخور صفا[1] على إلـهة عارية تتحلى بعقد فى جيدها وأساور فى ذراعيها وخلاخيل فى رجليها وفى وسطها حزام . وتمسك بذراعيها الممدودتين أطراف شعرها أو وشاحا . وإنا لنقتبس هنا الصورة التى رسمها لها الأستاذ دى فوجه (شكل ٣٠) . وإلى جانب الإلـهة قد نقش كوكب ونصين . وفى أطول النصين ، كتبت ثلاثة أسماء مقدسة متوالية مسبوقة بحرف النداء : והרחם והימות והרצו ... وأول هذه الأسماء لفظ « رحام » وهو ما سندرسه فيما بعد . أما الاسم الثانى فهو اسم جديد وقراءته ليست محققة . وأما الاسم الثالث فهو رضا ونحن نقترح أن نطلق هذا الاسم على الصورة العارية المرسومة على مقربة منه والتى يميزها لنا الكوكب . ويدعم اقتراضنا هذا ف ٣٩٧ = و ١ ، ٢ ، e . حيث يرد ذكر رضا فى نص رُسم فيه كوكب .

---

(١) وتر شتين فى رجيم كمكول ؛ الأستاذ دى فوجه فى وادى الغرز ؛ قارن هذا الأخير فى ٣٧ ص ١٤١ .

ما الذى تنطوى عليه حركة الإلـهة ؟ من المحقق أن هذا الرسم يشير من ناحية إلى صنم بعينه ؛ ولكن من ناحية أخرى ، نرى أنه غير محتمل أن تكون الصورة مجرد تقليد للزهرة البحرية . إن نصف الدائرة التى رسمها الشعر أو على الأصح الوشاح(١) ، تدل أكثر ما تدل على الطابع الليلى للإلـهة وذلك محاكاة للرمزية الإغريقية الرومانية .



(شكل ٣٠) إلـهة صفوية ، ربما كانت رضا ، نجم المساء(٢)

وسندرس فيما يلى بعض عبارات ورد فيها اسم رضا وتنطوى على بعض الخصائص .

دم ٢٠٥ = ل ٢٦ ويقترح الأستاذ ليتمان القراءة التالية :

לחנן בן ל[ע]תם הרצו בך [ה]מט לקמת

(١) لقد رأينا فيما مضى ، ص ٥٠٢ أن الآلهة العارية فى المشتى تمسك فى كل يد طرف وشاح . ويمكن أن نفترض هنا أن هذا التصوير للات أو لإحدى الآلهة التى تمثلها .

(٢) نقلا عن دى ڤوجه : سوريا الوسطى ، نقوش سامية ، ص ١٤١ . وقد تفضل المركيز دى ڤوجه فسمح لنا بتحقيق النص من كراسة مذكراته .

« لحيين بن لعثم . يارضو ، باسمك كتب لوقمات » .

وتصحيح الاسم إلى لعثم يؤيده دم ٢٥٢ = ل ١٦٠ . أما العبارة الأخيرة فإن الأستاذ ليتمان يقربها من النصوص الثمودية : » הרצו בך סעד ל" : «يارضو ، باسمك ساعدى ل . . . » . غير أن التركيب هنا فيه اختلاف يسير . ونحن نقترح ما يلى فى تحفظ : ... הרצו [ע]ל חטט נקמת

« يا رُضا النقمة على حطيط » . والاسم الأخير اسم عربى نجده فى فهارس وستنفيلد ، ص ٢٣٩ .

إن العبارة الثمودية التى نقلناها عن الأستاذ ليتمان قد قرّبها من بعض النصوص الصفوية تقريبا موفقا ، وكتابة العبارة دون لام النسبة فى أول الكلمة تعدّ غريبة . ويستنتج هذا العالم باللغات السامية أن بالعبارة تأثيراً ثموديا . ونورد فيما يلى نصوصا صفوية من هذا النوع .

دم ٢١٨ = ل ٥٢ :

ה[ר]צו סעד בסא

« يا رُضا ، عاونى باسى » !

ل ٣٣ :

הרצו סעד א[כ]ל :

« يا روضا ، عاونى عـ [كـّ] الـ ! »

ل ٣ : ה[רצ]ו סעד מען :

« يا رُضا ، عاونى معن ! » ويقرأ الأستاذ ليتمان ה[לה]ו « الله » بدلا من رضا ، وهى كتابة تعدّ الوحيدة فى الصفوية حتى الآن ويفسرها بالتأثير الثمودى .

ويجب أن نذكر أن العبارة التى من هذا النوع الشائع וחרצו « ويا رضا » تتضمن إدغاما فى .ורצו .

ففى : ف ٣٩٧ = و . ١ ، ٢ ، e ؛ قارن دم — ٤٤٦

לשן[ט]ל(?) בן אמעץ ורצו נקם מ שנא

« لشطل (؟) بن أمعض ويا روضا انتقمى من العدو ! »

* * *

جد — عويذ

إننا نعلم أن عدداً كبيراً من النصوص الإغريقية أو النبطية لإقليم حوران تذكر « إلـه فلان » ، وقد ذكرنا من قبل أن « فلانا » هذا هو رئيس الأسرة الدينية . وعلى هذا نجد أن Θεὸς Αὔμου أو إلـه أمُس ، وكثيراً ما كان يعبد فى اللّجة ، قد أرجع إلى زوس هليوس[١] Zeus Nêlios . وذكرنا من قبل أن اللات كانت « إلـه شَمْسِى » توصف بأنها إلـهة بواسطة الأسرة الدينية التى كانت تدين بها فى حران . ومما لا ريب فيه أنه يجب علينا أن نفهم النصوص التى تذكر دوزاريس — أعارا على أنه رب مولا ناربِّل[٢] . ولا بد أن يكون الملك ربّل الثانى قد احتفظ لنفسه بأعلى الدرجات الدينية لدوزاريس — أعارا الذى أقامه هو إلـها فى بصرى .

ومن الطبيعى فى الحالة البدوية أن تكون الصفة الدينية فى حوزة البطن كلها أو القبيلة كلها ، وأن تكون التسمية المقابلة لذلك « إلـه القبيلة الفلانية[٣] » . وعلى هذا فإننا نجد فى النصوص الصفوية إلـها يدعى جد — عويذ ، وعويذ هذا اسم لقبيلة هى Αουει ‹ δηνοι[٤] .

(١) ودنجتون : ٢٣٩٢ — ٢٣٩٥ — ٢٤٥٥ — ٢٤٥٦ . والأستاذ بوديسين فى Realencyclopädie ، Heazog-Hauck, s.v. Aoune, صفحات ٥٠٨ — ٥١٠ — ٥١٢ — ٥١٣ — ٥١٤ ، يأخذ بالرأى الذى ذهب إليه ودنجتون وهو أن Αὔμος كان اسما مقدسا ، دون أن يدلى مع ذلك بدليل جديد . وفى مناسبتين (ودنجتون ٢٤٥٥ — ٢٤٥٦) نجد دون شك Θεῷ Αὔμου نيو أو مو . والفرض الذى يذهب إلى أن هذا الاسم الأخير يحتفظ بزيادة نبطية هى واو يتطلب : أمثلة لتدعيمه . ونظير ذلك فإننا نجد صيغا مثل Θεὸς'Αμέρου « ثيوس أميرو » و Θεὸς Οὐασεάθου « ثيوس ووسيانو » ، والصيغ النبطية فيها لا تجد مجالا للشك . ونحن لا نقبل تدخل إلـه سبئى هو אום الذى لم نجده إطلاقا مع ذلك فى حالة عزلة ، لأننا نربط Aumos أموس بالإلـه עום .

(٢) أنظر فيما يلى ، الفصل السابع .

(٣) انظر ص ١٢٤ و ص ١٢٩ ثم فيما يلى ص ١٠١ .

(٤) انظر كتابنا : البعثة ، ص ٦٣ .

وقد عرفنا منذ زمن طويل أن الـكلمة السامية جَد" هى عربية أيضاً وتقابل الـكلمة الإغريقية Τύχη « الحظ » . وهذا اللفظ الأخير كثيراً ما يكون مطابقا لـكلمة genius « الروح » . ومع ذلك فقد ذكرنا من قبل ، ولا زلنا نذكر ، أن مكانة جد[١] هى مكانة ثيوس Θεός, وذلك فى الأقطار الصحراوية بسوريا . وعلى العكس من ذلك نجد فى الأقاليم المتحضرة أن جد" قد أصبح الإلـه الحارس المدينة ، هو فى الواقع τύχη .

ومقابلة جد لثيوس يؤيدها الاشتقاق الذى فسّر به سمبلـكيوس لاسم Ἀταργάτη الذى يوضحه τόπος Θεῶν . ومن المؤكد أن سمبلـكيوس كان يخلط بين עתרעתה وبين אתר גדא [٢] . وقد بينا من قبل أن « جد » الذى يعرف بواسطة ذلك النبع المشهور بتدمر كان الإلـه الشمسى يرحبول الذى يحتمل جداً أن يكون من أصل عربى . كما يعتقد أن مَلَكْبِل كان جد" القبيلة التدمرية بنى تيمى وقد تعرف عليه الأستاذ كليرمون — جانو منذ وقت طويل[٣] .

وهذه القيمة التى تضفى على جد لا تعرف إلا فى الأوساط السورية التى تأثرت تأثراً كبيراً بالنفوذ العربى . وهى تفسر لنا كلمة نقلها إلينا يعقوب السروجى هى جدلات ، وقد أرجعها الأستاذ هوفمان إلى الأصل جد — اللات[٤] .

وإذا اتجهنا إلى حوران وجدنا نفس الاستعمال وهو جد — ثيوس . وهناك نص نبطى عدنا بخير مثل لذلك[٥] :

---

(١) لمناسبة هـذا التقريب ، أنظر كليرمون جانو : مجموعة الآثار الشرقية ، ج ٢٧ ص ١٠ .

(٢) لقد تعرف على هذا الخلط الأستاذ Fr. Cumont A:Real- Pauby-Wissowi Encyel. ج ٤ ، ٢٢٤١ ؛ قارن بحثنا ، ص ٦٣ وما يليها .

(٣) أنظر : ملاحظات عن الميثولوجيا السورية ، ص ٧٣ .

(٤) ج . هوفين : مجلة الدراسات الأشورية ، ١٨٩٦ ص ٢٥٩ .

(٥) لقد علقنا من قبل فى كتابنا « ملاحظات عن الميثولوجيا السورية » بهذه الملاحظات نفسها ، ص ٧٤ هامش / ٤ متعينين بقراءات ليتسبرسكى وكليرمون جانو . وبعد ذلك نشر ليتمان هذا النص فى : نقوش سامية ، ص ٩٣ — ٩٤ .

« بدر وسعد ئل بن وترو ، محب الجد ، سلام عليك ! » .

« قوصيو بن حنئل ، الفنان ، سلام عليك ! » .

والميزة الخاصة لهذا النص أن واضعيه من الصفويين ، فإن بدد وسعدئل من أسماء الأعلام الصفوية ، ولهذا لم تلحق أولها الواو الأخيرة . واسم الأب كان مشهوراً أيضاً لدى البنطيين ، وقد كتب قوصيو بناء على الهجاء النبطى الذى كان معروفاً له .

وعلى هذا فقد أصبحنا بذلك فى منطقة صفوية ، ونستطيع أن نذكر أن جد — عويذ إلـه لقبيلة Αουειδηνοί ، ومعنى هذا أنه إلـه ، نجهل اسمه على وجه التحديد ، إلا أن رجال الدين المنتسبين إليه من قبيلة عويذ .

ف ١١٠ ب ؛ قارن ليتمان : Zur Entziff ص ٤٦ و دم ٦٢ .

למען בן חני בן מ[ל]ך ודתא וחרץ שנא פהאלת
דין וגדעוד סלם

« لمعن بن حنّى بن مالك . قضى الصيف (هنا) وتتبع العدو . » يا ألالات الجزاء ويا جد — عويذ السلام ! » .

ويمكن أن نعد דין تمييزاً للات ، ولكننا نفضل جعلها مصدراً على وزن فِعال فتكون إذن دِيان .

شمس

لأول مرة تتاح لنا فرصة للمقارنة بين آلهة جماعة من عرب البادية وبين آلهة أهل الحضر ، نجد أن عبادة الشمس لم يكن لها عند البدو إلا أهمية ثانوية بينما نجد أن العبادة المنتشرة بين أهل الحضر فى ذلك الوقت كان يمثلها إله الشمس . وهذا يفسر لنا أن البدو من العرب عندما تحضروا ، سرعان ما فقدوا إلـهتهم الشمسية ليستبدلوا بها إلـهاً من آلهتهم مماثلا لإلـه الشمس عند الحضريين . وعلى هذا نرى دوزاريس وفى عصر متأخر فى القدم نرى ملكبل ويرحبول .

وقد اتخذ العرب الشمس إلـهة لهم . ولا نعثر عليها فى الصفوية إلا مرة أو مرتين ولم يتنبه لها أحد قبل ذلك .

دم ٥١٣ :

לחלץ בן שחס בן עמרת בן עם [וו]לה על :
חבבה קתל תרח פחשמם והגדעוד והלת עקב בהרם ד
אסלש ו עור ד [יעור

« لخالص بن شُوكَهيمْ بن كَميرت بن عوم . ليحل الدعر بحبيبه الذى « هزم ترح[1] يا شمس ، يا جد — عويذ ، يا أتلات ... وليصب بالعمى من يمحوه » .

ومن المؤكد أن شمس ورد ذكرها . فالسامك من الأشكال النادرة ولكنه ذو دلالة ؛ قارن NOL فى دم ٧٣٧ . وربما كان هناك ذكر لهذه الإلـهة فى ف ٣٨٩ ؛ [פ]השמ[ם] ולת ؛ غير أن هناك شيئاً من الشك فى ذلك .

إثاع Ἔθαος

إن العبارات التى ترد فيها هذه الكلمة لا تترك أى شك فى قيمتها[2] . والصيغة الصحيحة لاسم هذا الإلـه هى ,יתע ولكننا نجد أيضاً ,אתע مما يدل على أن الأصل الأول كان ينطق كالهمزة . والصفة יתע كان يوصف بها بعض ملوك سبأ ، وبالتقريب بينها وبين الأصل العبرى יתע استنتج منها معنى « الحامى » σώτηρ

ونستطيع أن نحدد قراءة هذا الإسم المقدس بفضل نص إغريقى عثر عليه أول الأمر الباحث وتزشتين ثم عثر عليه بعد ذلك ودبختون فى السفح الشرقى لجبل حوران عند العجيلات .

---

(١) فيما يختص بهذه الفقرة ، أنظر ما سبق ص ١٣٨ — ١٣٩ .

(٢) بحثنا ، ص ٦٤ .

ونحن نعلم أن هذا الإقليم قد استعمره الصفويون . وقد حوفظ على هذا النص محافظة كبيرة ، فقد أحيط بإطار ، وقراءته تثير أى شك[1] .

Οἱ ἀπὸ κώμης ʼΈγλων | Θεῷ αὐτῶν ʼΕθάῳ | ἀνέστησαν δημο | σίαν τὴν οἰκοδμήν.

وكانت إجلا هو الإسم القديم للعجيلات δημοσία οἰκοδομή المذكور هنا فربما كان المكان الذى يجتمع فيه أهل هذه الديانة المكان الذى تقام فيه الصلاة . أما التعريف ب Θεὸς αὐτῶν فإنه يتصل بالاعتقادات التى تحدثنا عنها من قبل . ليس هناك أى ريب فى أن المقصود هو الإلـه ﺍﻟﻠﻪ الوارد فى النصوص الصفوية .

وهذه المقابلة تستبعد نهائياً ذلك التقريب الذى يؤخذ به عادة بين Ἔθαος والإسم المقدس ... أو עתה فى النصوص التدمرية ؛ ويجب أن نرى فى هـذا الأخير الإلـه أترجاتس . وقد اقترحت قبل ذلك التفرقة بين الاسمين[2] ، ولكننا لانستطيع أن نقيدها على أنها أصبحت نهائية الآن .

وبناء على ما ورد فى الكتابة الإغريقية ، يبدو لنا أن ... يقابل إثاع أو إيثاع .

ونحن نعدّل الترجمة التى اقترحناها للعبارة المقدسة التى وردت فى دم ١٥٨ :

לגרמאל בן אנף בן גרמאל ודבח פה[א]תע סלם מ באס

«لجرمئل بن أنيف بن جرمئل . لقد ضحّى . يا إثاع ، لا سلام على المكروه ! »

وهذا المعنى يؤيده ما ورد فى دم ٢٧٤ :

... וה[ית]ע סעדה מ באס ‹ע› הסנת ונקמת מ ד רכב במלא (?)

« . . . يا إثاع ، عاونه ضد المكاره فى هذا العام (؟) واثأر ممن يتبعه . . . »

وأخيراً ، قارن دم ٧٨٦ :

... והיתע נקמת מ ד רכבה פהרצו פלטה

« . . . يا إثاع ، اثأر ممن يتبعه ! يا رضا ، نجيه ! »

---

(١) وتز شتين ، ١٩ = ودنجتون ٢٢٠٩ .

(٢) قارن : ملاحظات عن الميثولوجيا السورية ، ص ٨٢ .

ثم لنذكر أيضاً ف ٢٠٣ = د ١٣٣ ؛ قارن ليتمان : Zur Enz iff ، ص ٤٩ ودم ٩٩ :

.. פיתע פלט מן סקם

« أنقذ إثاع . . . . من المرض » .

رَحَام

لقد رأينا من قبل هذا الاسم المقدس فى ف ٤٠٢ (شكل ٣٠) ؛ ونجده أيضاً فى نص د ٢٥٠ . وهذا النص الثانى يتضمن العبارة التالية :

....ונקמת הרחם סלמה

« . . . . والثأر ! يا رحام أنقذه ! »

وهذا الإلـه نفسه قد ورد ذكره مع اللات فى نص تدمرى . فوجه ٨ :

ליקר שמש[ו]ואלת ורחם אלהיא טביא.

وقد اقترح الأستاذ نولدكه أن يقرأ رَحَّام لا رَحام ؛ ولكن هذا الأمر لا يزال قيد البحث ولم يبت فيه بعد . وهذا الإلـه معروف فى السبئية ؛ وعلى هذا ففى مجموعة النقوش السامية ، الرابع ، ٤٠ ، ٥ نجد רחם סגה : « رَحَام موجوح » . وتقدم لنا الصفوية السلسلة التى تربط هذا الإلـه التدمرى بإلـه جنوب جزيرة العرب .

شيع القوم

لقد عرف الأستاذ إينو ليتمان هذا الإلـه فى النصوص الصفوية وفى نص تدمرى كتبه نبطى . وفى نفس الوقت نجد الأستاذ كليرمون جانو قد وجد اسم هذا الإلـه فى نص نبطى .

والنص النبطى(١) عبارة عن تقديم لأريكة بواسطة شخص يدعى أدودو أو عرو آدو إلى الإلـه שיעאלקום فى سنة ٣٦ من دَبِّل الثانى (٩٦ ميلادية) .

ويقدم لنا النص التدمرى(٢) بعض تفصيلات هامة :

١ — « هذان الهيكلان قد أقامهما عُبيدو بن غانمو » .

٢ — « بن سعد للات ، النبطى من قبيلة دوحو ، الذى كان فارساً » .

٣ — « فى جبدَتَ وفى معسكر عَنَ » .

٤ — « لشيع القوم ، الإلـه الطيب المجازى ، الذى لا » .

٥ — « يشرب الخمر ، لسلامته وسلامة . . . الخ » .

ويبدو أن الإله شيع القوم ، كما ذكر الأستاذ كليرمون جانو ، كان يعبده قوم من العرب — الأنباط يدعو مذهبهم إلى عدم معاقرة الخمر وكانوا فى هذا يخالفون مذهب دوزا ريس(٣) . وينبغى لنا أن نفهم من النص الذى ورد فى كلام يتودور الصقلى أنه كان يصف الحياة البدوية — وهى الحالة القديمة التى كان عليها النبط — من أنه كان يوجد قانون يقضى بالإعدام على العرب الأنباط إذا ما زرعوا قمحاً أو أشجاراً تثمر الفواكه أو إذا ما شربوا خمراً أو بنوا منازل . وهناك مؤلف قديم لم يدرك أن هذا كان مصير كل جماعة للرعاة فذهب إلى القول بأن هذه الحالة الشاذة فرضتها عليهم قوانين صارمة . وكان تطور النبطيين يعدّ تطوراً كاملا لدرجة أنه فى العصر الإسلامى أصبحت كلمة « نبطى » ترادف كلمة مزارع ، فلاح .

وإذا لم نأخذ نص ديدور الصقلى بحرفه فإنه مع ذلك يشير إلى ملابسات الحياة البدوية القديمة ويدل على أن « تحريم الخمر عند تلك الجماعة الكبيرة من الأسرة السامية مستمد من أصول عميقة فى الماضى(٤) » .

---

(١) فهرس الكتابات السامية ، ٨٦ و ٤٧١ .

(٢) فهرس الكتابات السامية ، ٢٨٥ ، ليتمان : نقوش سامية ، ص ٧٠ — ٧٥ .

(٣) كليرمون جانو . مجموعة الآثار الشرقية ، ٤ ، ص ٣٨٢ — ٤٠٢ ، ٥ ، ص ٤٤ و ص ١٧٩ ، قارن ڤلهوزن : فهارس جوتنجن العلمية ، ١٩٠٢ ، ص ٢٦٩ .

(٤) كليرمون جانو : .l.c ، ص ٣٩٦ .

ويروى لنا نونيس[١] Nonnus الشاعر المصرى القديم فى ديونيزياك Dionysiaques قصة تلك الحرب الشعواء التى شنها ملك خرافى من ملوك العرب يدعى ليكورج Lycurgue على ديونيزوس إلـه الخمر عند اليونان . وهـذا الاسم يوجد فى الميثالوجيا الإغريقية ، إلا أن الأستاذ كليرمون جانو قد بيّن أن لهذه القصة أصلا قديماً . والواقع، أنه وجد فى حبران تقديم ورد فيه Λυχούργω Θ]εῷ[٢] ويبدو أن مقابلة هذا الإلـه الإغريقى بالإلـه يشيع القوم تعدّ مقابلة لا بدّ من الأخذ بها . ولـكن كيف بُدّل الاسم العربى حتى أصبح ليكورج ؟ من العسير أن نبدى رأياً قاطعاً فى ذلك . ومن بين الافتراضات التى قيلت فى هذا الموضوع ، ذلك الافتراض الذى يبدو أقربها جميعاً إلى الحقيقة والذى يذهب إلى أن قصة ليكورج ، عدوّ ديونيزوس ، قد أدخلت فى جزيرة العرب على أثر ذلك الظرف الذى وجد فيه بتلك البلاد ذات مقدمة من أهم صفاتها تحريم الخمر .

واسم الإله فى الصفوية يكتب على هذه الصورة שׁעהקם مما أدى بها حين مقارنته بالصورة الـكاملة الآتية שׁיעאלקום إلى الحصول على بيانات محددة فيما يختص بقراءته . والقوم فى العربية الرهط والجماعة من الناس ، وهذه الـكلمة كانت أيسر فى التحديد من الـكلمة المركبة معها وهى شيع . وينبغى لنا أن نختار صورة من هاتين الصورتين شَيْع وشيع ، وهما من أصل واحد اشتق منه كلمة الشِّيعة وهم أنصار سلالة علىّ بن أبى طالب . والمعنى الأصلى لهاتين الـكلمتين ، اللتين لا تعدوان أن تـكونا صورتين لهجيتين لـكلمة واحدة ، هو « الشخص الذى يرافق » . فيقال : « شاع قومُ الله بالسلام » بمعنى « فليصحبك الله بالسلام » ويمكن أن نتوسع فى المعنى الأصلى فيطلق على « الشخص الذى يقود » أو على « الذى يساعد ويعاون » ؛ ولـكنها معان مشتقة لا تعدّ أصلية .

---

(١) نونيس ، شاعر مصرى قديم ، ولد فى أوائل القرن الخامس الميلادى ببلدة بنبوليس (إخميم) . وأهم مؤلفاته الـكتاب المذكور هنا ، وقد تناول فيه تاريخ إله الخمر ديونيسيوس ، وما يتعلق عامة بالخمر . وله منظومة باليونانية فى إنجيل القديس حنا ، مما يرجح أنه كان مسيحيا .

(٢) كليرمون جانو : المجموعة رقم ٦ ، ص ٣١٧ . (المعرب)

ومن الضروري أن نحدد معنى القوم . فالواقع أن هذه الكلمة لا تدل على معنى الناس كما نفهمه الآن ، ولكنها تدل على «جماعة» من الناس تجمعهم رابطة معنوية . وقوْم (جُوم) كان يراد بها ما تقدمه القبيلة من الرجال . وإذا اتبعنا نفس هذه السلسلة من التفكير وجدنا أن كلمة قوم يمكن أن تدل على جماعة الصوفية في الإسلام . وعلى هذا فنحن نميل إلى أن المراد بكلمة قوم جماعة قد كوّنت لغرض خاص ، من المحتمل جداً أنها تطلق على رهط من الجُنْد . أما معنى القافلة فقليل الاحتمال إلى حد بعيد ، لأن الصفويين لم يكونوا يحترفون هذه المهنة . ونلاحظ أن ذلك الشخص النبطي عُبَيْد والذي أشرنا من قبل إلى نقشه كان في الواقع جندياً . فشيع القوم إذن معناه « ذلك الذي يرافق العسكر » . وعلى هذا فنحن نواجه إذن إلهاً من آلهة الحرب .

ويبدو أن الإلـه شيع القوم كان يعبد في العصر الروماني في الصفا وجنوب جبل حوران . والنص النبطي والتقديم التدمري اللذين ذكرناهما من قبل يدلان على أن هذا الإلـه العربي قد عرفته الأوساط النبطية التي كانت متصلة بالصفويين . والواقع أن النص النبطي قد وجد في تل غارية . أما التقديم التدمري فقد قام بعمله شخص نبطي ينتمي إلى قبيلة روحو التي كانت تقيم بصلخد على مقربة من تل غارية . وأما موضع حبْران الذي وجد فيه هدى تكريس للإلـه ليكورج فيقع أيضاً في هذا الإقليم .

* * *

وعلى هذا فلا يسعنا إلا أن ندهش لوفرة الآلهة الصفوية . وهذا المثل ينقض من جديد تلك النظرية التي تقول بأن حالة البداوة تتطلب عبادة إله واحد[1] . والأسباب التي تذكر في هذا الصدد وهي عدم وجود مذاهب زراعية ومذاهب محلية لا تكفي إلا في حالة البداوة المطلقة ، على افتراض أنها أسباب كافية للإقناع . ولقد رأينا من قبل أن هذه البداوة المطلقة لم تكن تنطبق على العربي البدوي . لأن هذا البدوي

(١) هذه النظرية التي ناقشها رينان ، قد ظهرت في صورة جديدة في : « السنة الاجتماعية » Année Rociologique ، عام ١٩٠٦ ص ١٨٨ .

كان مرتبطاً ببعض الأقاليم التي يعدها ملكا له ويسمها بوسمه ويطبعها بطابعه ، ويزرع في بعض أجزائها الغلال والنخيل . وغالباً كان يقيم زمن الشتاء في منازل قد بنيت بالأحجار أو اللبِن .

ونعتقد أننا لا نستطيع أن نجد حجة مقنعة في تلك التسميات المقدسة مثل جدعويذ وهو الإله الذي كانت تعبده قبيلة عويذ ، لأننا نجد أن أفراد هذه القبيلة مع عبادتهم لهذا الإله كانوا يعبدون دون ريب آلهة أخرى .

الفصل السابع

الاندماج النهائى للصفويين

اتخاذ بعل سمين ودوزاريس إلهين للصفويين — تحول الصفويين إلى الحياة الحضرية . زوس سفثينوس الإله زيوس سفثينوس (الصفوى) — الاندماج التام للصفويين بالسوريين

درسنا فى الفصول السابقة الآلهة الصفوية ، وغالبيتها آلهة عربية قد تغلغلت فى سوريا . وقد بقى علينا أن نبين أثر الديانات السورية فى الصفويين وخاصة أثر بعل سمين « إله السموات » .

إن الامتداد الجغرافى لنفوذ هذا الإله يبدو كبيراً جداً ، سواء أكان يسمى بالاسم الآرامى بعل سمين الذى عرفه به الصفويون أم بالاسم الكنعانى الذى عرف به قبل ذلك فى سوريا وهو بعل شميم . ولقد عثر على إهداءات مقدمة لبعل شميم لا فى فينيقيا وحدها ولكن فى قرطاجه وسردينيا أيضاً .

وفى المناطق الصحراوية بالشام ، كانت تدمر مركزاً كبيراً لديانة هذا الإله . وكان يلقب ب מרא עלמא الذى يراد به إله الخلود كما يعنى إله العالم[1] . إنه أيضاً إله الرحمة والجزاء .

إن التزج الذى حدث فى العصور المتأخرة كان يرمى إلى أن يطغى إله الشمس على هذا الإله كما طغى على الآلهة الأخرى ؛ وإننا لنجد أثراً واضحاً لهذا الشعور فى فيلون إله بيبلوس (جبيله) . ولكن النصوص التدمرية تدل على أن بعل سمين كان لا يزال معروفاً معرفة حقة فى ذلك الإقليم على الأقل .

وقد أظهر الأستاذ أن بوشستين Puchstein وسوبرنهيم Sobernheim أن

---

(١) ليتزبرسكي : المجموعة : رقم ١ Ephemeris I ، ص ٢٥٨ الذى يقارن بين التراكيب العبرية والعربية .

النقش المكتوب باللغتين التدمرية والإغريقية ، والذى يشير إليه فوجه رقم ١٦ ، أظهرا أن الكلمة المقابلة لبعل سمين ليست هليوس Hêlios وإنما هى زيوس Z—eus[١] ونقش الـتَّطيْبى ذو اللغتين يتضمن مقابلا هو : زيوس مجستوس كيرونيوس Zeus Mégistos Keraunios (فوجه رقم ٧٠) .

ومن المتفق عليه أن بَعل شميم مغرق فى القدم وخاصة لأنّ ذكره قد ورد فى المعاهدة التى عقدت بين أسر هدّون (Asarhaddon) وملك صور بهذا الاسم بـ ع ل — س — مـ — يـ[٢] .

ومن المفيد أن نبين الطابع الذى تركته فى سوريا الدراسات اللاهوتية التى تتعلق بهذا الإله . ففى البقعة التى تمتد بين طرابلس وأنطاكية ، لا يزال النصيريون[٣] يحتفظون بهيكل حقيقى للآلهة وقد أطلقوا عليها أسماء إسلامية مستعارة : علىّ ومحمد وسلمان الفارسى . والحقيقة أن هذه الأسماء الثلاثة تمثل السماء والشمس والقمر . ومع ذلك ، فإن بعض أنصار هذا المذهب يضعون الشمس على رأس هذه القائمة ويزعمون أنها ترمز إلى ظهور علىّ ، وهؤلاء يسمون الشمالية أو الشمسية . أما الذين يضعون القمر فى أول هذه القائمة وينظرون إليه إشارة إلى ظهور علىّ فيسمّون القمرية .

أما الرواية الأرمنية الواردة فى قصة أحيقار فهى تحتفظ بالآلهة الثلاثة التى يتوجه

---

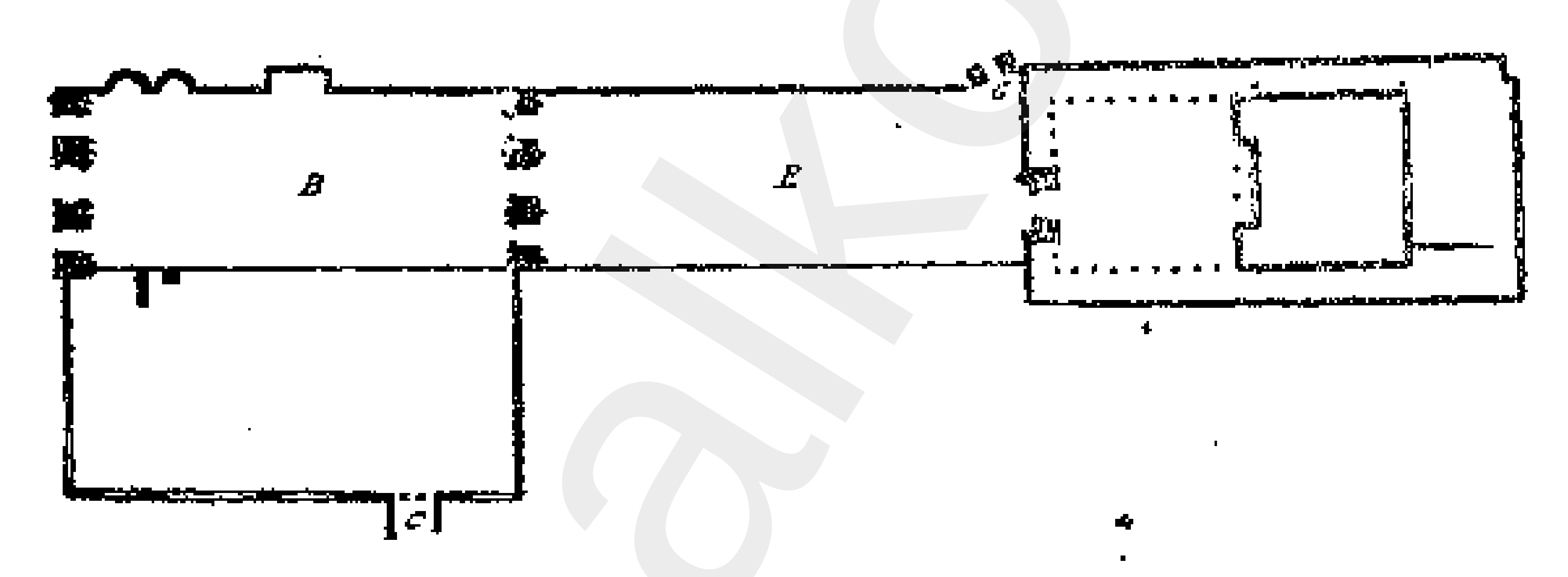
(١) موردتمن وموللر : « النقوش التدمرية » Palmyrenische Inschriften ، ص ٢٢ — ٢٣ رقم ١٠ ؛ قارن كليرمون جانو : Recueil d'arch. or ج ٧ ، ص ١٤ — ١٥ .

(٢) تسمرن : « النقوش المسمارية والعهد القديم » Keilinschriften und das Alte Testament ص ٣٥٧ ؛ قارن لتزبرسكى : Ephemeris المجموعة ج ٢ ص ١٢٢ .

(٣) النصيريون : فرقة من غلاة الشيعة من سوريا . لهم آراء فى اللاهوت والغيب والوحى . ولا يزالون يؤمنون بالتناسخ . ولقد كتب الأستاذ لويس ماسينيون عنهم مقالا قيما بدائرة المعارف الإسلامية . أورد فيها المراجع الأوربية والعربية التى يمكن الرجوع إليها .
(المعرب)

إليها أحيقار ببصره في أول هذا السفر ، وهي : بِلْشِمْ وشِميل وشمين[1] . وينبغي لنا أن نصحح دون أدنى ريب هذا النقل المكاني الذي طرأ على هذه الأسماء وأن نقرأها : بلشمين وشمل وشم أي ,בעלשמן ، .שמאל . وهذه الآلهة تقابل من كل النواحي الآلهة الثلاثة الكبرى عند النصيرية حيث أن عبدة الشمس هم أنصار שמאל .

ويوجد بعل سمين في جنوب جزيرة العرب باسم דשמוי وباسم .דשמי أيضاً . ونحن نعلم أن : ذو = بَعَل . ونستطيع أن نفسر .שמוי على أنه صيغة جمع هي سماوي من سماء . ومهما تكن الصعوبات التي تعترضنا من جراء هذه المسألة[2] الفرعية ، فإن جميع الشكوك قد زالت منذ أن وجد الأستاذ ليتمان في الصفوية هذا الرسم : .בעלשמי : [3] بجوار الشكل التالي المعروف وهو : ,בעלשמן :



(شكل ٣١) رسم معبد بعل سمين في سيعه على مقربة من كنته . رسمه الأستاذ دي ڤوجيه

وقد احتفظت الصفوية بالاسم العربي بجانب الاسم الآرامي .

(١) ر . ريسو : تاريخ وديانة النصيريين ص ٨٢ وما بعدها و ٢٠١ — ٢٠٢ ؛ ومذكرات في الميثولوجية السورية ص ٥٨ رقم ٤ ؛ ليتزبرسكي : Ephemeris المجموعة ج ١ ص ٢٥٩ .

(٢) هناك اعتراضات قدمها الأستاذ ليتزبرسكي : Ephemeris المجموعة رقم ١ ص ٢٤٣ وما يليها .

(٣) إينو ليتمان : المجلة الأمريكية للآثار سنة ١٩٠٥ ص ٤٠٨ .

والرسم الشائع وهو בעלשמן يبين لنا أن الصفويين قد عبدوا فى هـذا الاسم إلـهاً استعاروه من السكان السوريين وإن يكن رب السموات معروفا لدى الأوساط العربية . ذلك أنه كان يوجد فى سيعه بجبل حوران بقعة شاسعة لمذهب بعل سمين متصلة بالصفويين . وقد درس الأستاذ دى ڤوجه أطلال هذه البقاع وقد اقتبسنا شكل ٣١ من دراسته ثم درسها الأستاذ بتلر حديثا مرتين(١) .

فالباب الـكبير A على الطراز الذى كان متبعاً فى الإمبراطورية الرومانية العليا ؛ وكذلك الحال فى الباب D . ولـكن بجانب تلك الأشكال والنقوش والانتصارات التى يظهر فيها هذا الطراز الجميل ، نجد قطعاً هى بلا ريب بقايا بناء أقدم من هذا البناء يتجلى فيه طراز مخالف كل المخالفة لذلك الطراز الرومانى . فالباب G كله من ذلك الطراز الخاص . وقد تعرف الأستاذ بتلر فى تلك الناحية على أساس معبد من نفس النوع ومن الطراز نفسه سنتحدث عنه فيما بعد .

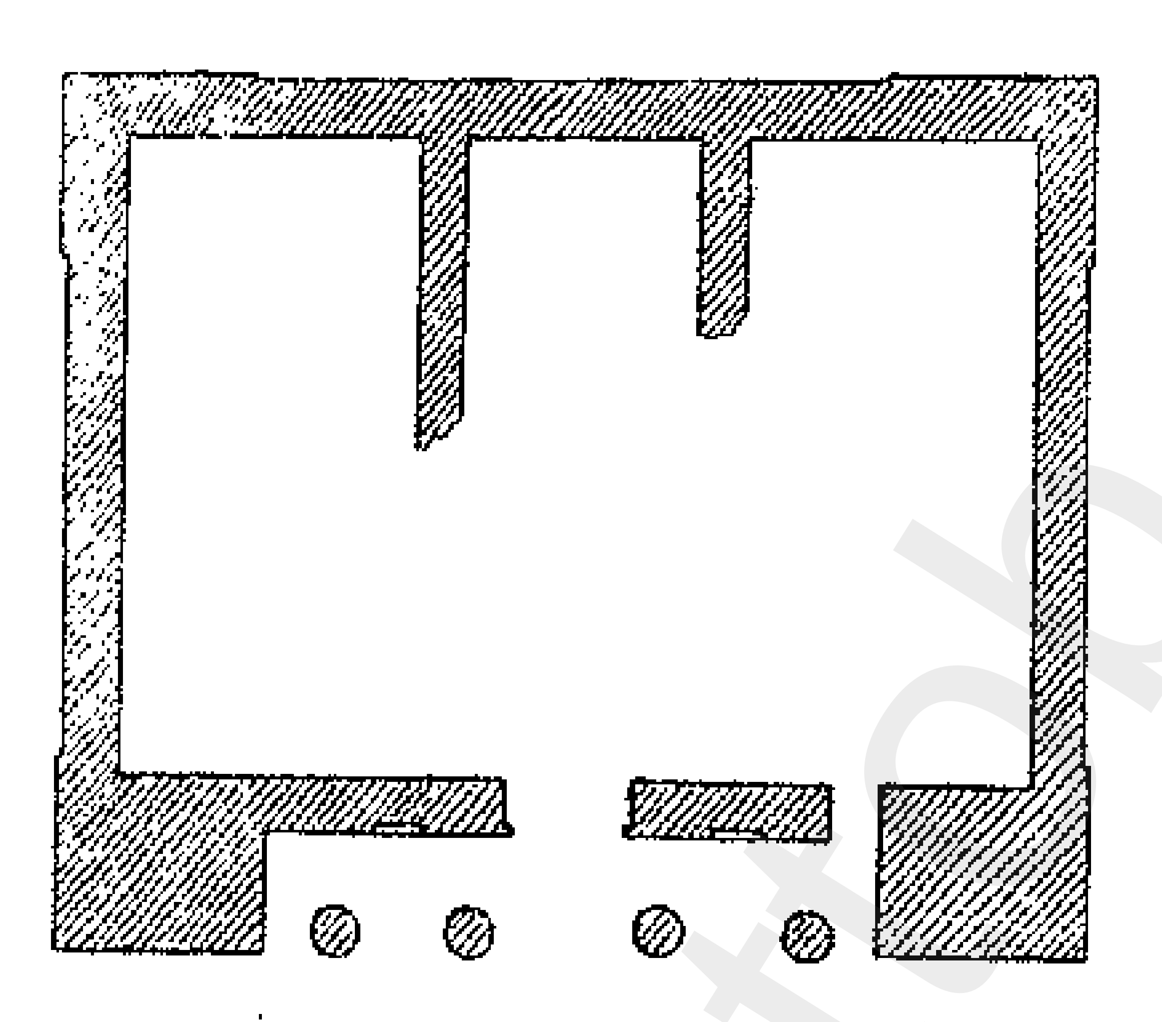
وعند اجتياز الساحة المحيطة بالهيكل ، يجد الإنسان نفسه أمام « نؤس naos» قد بنى فى مستوى أعلى من البناء العادى . وهـذا البناء الذى له أهمية كبيرة ، قد نقبت فيه البعثة الأمريكية عام ١٩٠٤ . والملاحظات التى نقدمها هنا يجب أن تراجع على الـكتاب الذى يعده الأستاذ بتلر حالياً للطبع .

وتصميم معبد سيعه ووجهته لا تدلان على أنه معبد إغريقى : فليس هناك أى أثر للجزء العلوى من الوجهة ؛ والبناء مكون من طابقين يقوم أحدهما فوق الآخر . وفى الطابق الأسفل ، يوجد رواق ذو عمودين قبل باب الخروج ، وفى الطابق العلوى ، ترى زخرفة لركائز قليلة البروز . ومع ذلك فإن الترميم الذى يقدمه الأستاذ دى ڤوجه للوجهة على إثر اكتشاف سريع أصبح لا ينطبق على الاكتشافات الحديثة . ثم ألا يمكن أن يكون بناء هذا المعبد قد اقتبس من معبد مقام على مقربة منه بمدينة أبيلا إحدى المدن العشر والذى تعرفنا عليه من نقود تلك المدينة ؟ فنحن نرى

---

(١) دى ڤوجه : سوريا الوسطى ، العمارة ، ص ٢٣٢ . بتلر : منشورات إحدى البعثات الأثرية الأمريكية إلى سوريا ، رقم ٢ ، ص ٣٣٤ — ٣٤٠ والمجلة الأثرية ، ١٩٠٥ ، رقم ١ ، ص ٤٠٤ — ٤٠٩ .

فى تلك النقود رواقاً داخلياً بين برجين(١) . ويبدو أن هذا الطراز نسق سورى حيث أننا نجده فى قصر ربّا على مقربة من وادى مجيب فى شرق الأردن (شكل ٣٢) ، ونجده أيضاً فى آخر صورة من صوره فى القرن السادس الميلادى بكنيسة تورمانين(٢).



(شكل ٣٢) رسم معبد قصر ربّ ، كما رسمه برنوث ودومازنسكى « الولاية العربية » ج ١ ، ص ٤٦ — ٥١

وقد لاحظ الأستاذ بتلر أن (النؤس) كان مزدوجا ، بمعنى أنه مكون من معبد داخل معبد آخر ، وهذا يفسر نص (مجموعة النقوش السامية ١٦٣٢٣) الذى سنقتبسه فيما يلى ، كما أنه يذكرنا بنظام سليمان فى أورشليم . أما المدرج (ثيثرون) théatron لغامضة فيمثلها الفناء F محاطاً برواق . وفى الحائط الشرقى لهذا الفناء أقيمت مقاعد تشبه مقاعد المسرح(٣) .

وزخرفة هذا المعبد لا تقل غرابة عن نظامه : « فكل الخطوط قد أثقلت بنحوت قد زادت عن الحد زيادة مفرطة ووزعت توزيعاً سيئاً(٤) » . فلدينا هنا زخرفة

---

(١) سولسى : النقود فى الأرض المقدسة ، لوحة ١٦ ، رقما ٧ و ٨ .

(٢) فوجيه : سوريا الوسطى ٢ العمارة ، لوحة ١٣٢ و لوحه ١٣٥ .

(٣) بتلر : المجلة الأثرية ، ١٩٠٥ ، رقم ١ ، ص ٤٠٥ — ٤٠٦ .

(٤) فوجيه : م. ط. ص ٣٣ .

تعدّ الخطوة الأولى لما روعى من ذوق فى تلك الزخرفة السقيمة التى نجدها فى قصر المشتّى . وحتى الزخرفة بغصون الكرم التى تسيطر على رأس الإله يمكن أن تقارن بزخرفة قصر المشتى كما شرحها الأستاذ كليرمون جانو .

ويقول الأستاذ دى ڤوجه : « إن تنسيق التفصيلات والشكل الذى تتصف به الأعضاء الرئيسيه والأشكال الجانبية ، كل هذا يبين لنا فناً عجيباً قد اختلطت فيه الطريقة الإغريقية بما لا أعرفه من فيض شرقى حيث تبدو الفظاظة وسقم الذوق ممزوجين بمهارة اليد وحيوية الخيال . »[1] فالشرقى لا يعجب بالخطوط البسيطة ، لقد رأينا هذه التناسقات السورية تمتزج وتنصهر فى الزخارف الفارسية فى نقوش القصر الأبيض وفى قصر المشتى .

ويوجد تحت الرواق أربع قواعد تحمل تماثيل قد أصابها التلف الآن . أحدها تمثال هيرود الأكبر الذى أقيم لبث الرعب فى نفوس المسيحيين . وكان هذا التمثال « فى الحجم الطبيعى ؛ ولم يبق منه إلا القدم اليمنى التى لا تزال ملتصقة بالقاعدة التى كتب عليها النص ، أما الجذع فقد طرح على مسافة غير بعيدة من القاعدة وأصابه تلف كبير »[2] .

ودنجتون ٢٣٦٤ : Βα[σι]λεῖ Ἡρώδει κυρίω Ὀβαίσατος Σαοδου [

ἔθηκα τον ἀνδριάντα ταῖς ἐμαῖς δαπανα[ῖ]ς.

وكلة χυρίω تدل على أن التمثال قد أقيم وهيرود لا يزال حياً . أما اسم أبياتوس Obaisatos فيمكن تقريبه من Ὀβαισηνοί أو من אל עבישת . أما التركيب ταῖς ἐμαῖς δαπαναις فيدل على أفراد القبيلة .

ومن القواعد الثلاث التى بقيت من هذا التمثال ، نرى اثنين منها قد زيّنت بتماثيل حجمها أقل من الحجم الطبيعى . كان أحدها يمثل « مليكت » وهو ابن أوسو

---

(١) ڤوجه : l. c س ٣٣ .

(٢) ڤوجه : l. c س ٣٥ .

مؤسس المعبد[1] . والآخر لحفيده مليكت الذى بنى الطابق العلوى[2] . ونثبت هنا شجرة أنساب هذه الأسرة[3] .

مُؤَيْـيرُس	Μοαίερος	
أَوْسُـس	Αὖσος	
(Cls, II, 163).	Μαλειχάθος	مليخَـثُس
	Μοαίερος	مؤيْـيرس
(Cls. II, 164),	Μαλειχάθος	مليخَـثُس

وقد نقش مؤسس المعبد فى سطر واحد على إفريز المعبد إهداء نبطيا لبعل سمين (مجموعة النقوش السامية ١٦٣) . وقد نقل الأستاذ دى فوجيه منه عدة أجزاء ثم جاء الأستاذ إينو ليتمان والأب سڤينياك فاكتشف كل منهما جزءاً منه[4] . وإذا كان النص كاملا فمن المحتمل أن يكون الجزء الذى نقله سڤينياك هو نفس الجزء الذى أشار إليه الأستاذ ليدزبرسكى .

דכרון טב למליכת בר אושו בר מעירו די הו בנה על בעשמין בירתא גויתא ובירתא בריתא ותיטרא דא ומט[רתא שנת 280 עד 311 ועד חיין בשלם.

« تخليدا لذكرى مليكت بن أسو بن مُعيَّر والذى أقام تمجيدا لبعل سمين المعبد

---

(١) ودنجتون ٢٣٦٧ = مجموعة النقوش السامية / ٢ ، ١٦٣ ، قارن ودنجتون ٢٣٦٨ .

(٢) ودنجتون ٢٣٦٦ = مجموعة النقوش السامية / ٢ ، ١٦٤ ، قارن ودنجتون ٢٣٦٩ .

(٣) إذا أخذنا بتسلسل ودنجتون ٢٣٦٩ ، لوجدنا أن الحفيد هو الذى بنى المعبد والجدّ هو الذى أتمّه ببناء الطابق العلوى . والنص النبطى بمجموعة النقوش السامية / ٢ ، ١٦٣ يدل على أن مليكت الثانى هو حفيد مليكت الأول .

(٤) زيادة على المراجع م . ن . س ١٦٣ يجب أن تضاف : ليتمان : النقوش السامية ، ص ٨٠ — ٩٠ والمجلة الأثرية ، عام ١٩٠٥ ص ٤١٠ ، سڤينياك : مجلة الكتاب المقدس ، عام ١٩٠٤ ، ص ٥٨١ — ٥٨٢ ، ليدزبرسكى : المجموعة Ephemeris II ، ص ٢٥٧ — ٢٥٨ .

الداخلى والمعبد الخارجى وهذا مسرح Θέατρον والأبراج[1] . . . من سنة ٢٨٠ إلى سنة ٣١١ . . . بسلام[2] » .

والتاريخ الذى اكتشف هو ٣٣ — ٣٢ قبل الميلاد إلى السنة الثانية أو الأولى بعد الميلاد ، وهذا التاريخ على جانب كبير من الأهمية . ويقول الأب سفينياك ، الذى يرجع إليه فضل هذا الكشف : « إن الاستنتاجات البارعة التى أبداها الأستاذ دى ڤوجيه تفترض أن البدء فى إقامة البناء الأكبر بسيعه يرجع إلى سنة ٤٢ قبل الميلاد . والقطعة التى اكتشفت حديثا تؤيد تماما ظنون هذا العالم الجليل . فالرقم الأول لا يمكن أن يكون فى الواقع إلا تاريخا لبدء العمل ، وسنة ٢٨٠ التى ترجع إلى زمن السلوقيين تقابل سنة ٣٢ قبل الميلاد[3] .

ويجب علينا أن نربط بين هذا الإهداء وبين النص اليونانى المنقوش على قاعدة تمثال مليكت بن أسوس لأن هذا النص الأخير يؤيد قراءته .

ودنجتون ٢٣٦٧ :

: Σεειηνῶν τὸ κοινὸν | [ἀ]νέθηκαν Μαλειχά|[θ]ῳ Αὔσου τοῦ Μαχι[έ|ρ]ου, [ὅτι κατεσκεύα]σας τ|ὸ ἱε[ρὸν καὶ τὸ]ν περ|ὶ αὐτ[ὸ πάντα κόσ]μον.

وكلة (hiéron) تقابل בירתא גויתא ويراد بها المعبد (برتا) الداخلى .
وهناك تمثال آخر أقامه δῆμος ὁ τῶν 'Οδαισηνῶν (CIs, II, 164) لمليكت ابن « معيّرو » لأنه أضاف إلى البناء طابقا جديداً .

---

(١) هذه الكلمة يعتورها كثير من الشك ، ولكن الاصطلاحات التى أريد إحلالها محلها تعدّ أقل صلاحية من هذه الكلمة .

(٢) إن الجزء الذى عثر عليه سفينياك يبدو أنه ترميم دقيق للجزء H ، وهذا الاستنتاج مستمد من نسخه . وعلى العكس من ذلك ، نرى أن بين جزء سفينياك والجزء F للأستاذ ليتمان حجرا ناقصا على الأقل . والتاريخ ٣١١ قد عرفه الأستاذ ليدزبرسكى . ولا يزال التركيب الوارد قبل « بسلام » مجهولا لنا .

(٣) سفينياك : مجلة الكتاب المقدس ، عام ١٩٠٤ ص ٥٨١ .

وكلمة « برتا » تدعو إلى الالتفات أما الكلمة العبرية בִּירָה فهى حديثة نسبيا ؛ ولم تظهر قبل نفى اليهود فى تلك الأزمنه . ويبدو أنها قد استعيرت من الآرامية (الأشورية برتو birtu) . ومعنى هذه الكلمة فى الآرامية : الحصن ، القصر . وفى بيت المقدس أشير أولا إلى حصن المعبد (Bopes) ثم إلى المعبد على أنه بيت الله . والظروف التى أنشىء فيها معبد بعل سمين فى سيعه تتيح أن نفترض أن كلة برتا ، التى طبقت عليه فى النصوص المحلية ، قد استعيرت من آرامية فلسطين .

ما هى الظروف التى استدعت إقامة تمثال لهيرود الأكبر فى معبد سيعه ؟ لقد وضع بومبى فلسطين تحت الحكم الرومانى فى سنة ٦٤ — ٦٣ قبل الميلاد . والمدن العشر قد خضعت للتنظيم الرومانى ما دامت مدنها قد جعلت ذلك تاريخا لها يبدأ من تلك السنة . وقد اعترفت مملكتا اليهود والعرب بسيادة روما .

وكان إقليم جبل حوران واللجة ملجأ المغيرين على القوافل . وكان عرب تراخونيا يبدون ما يدل على سوء سيرتهم ومسلكهم ، فعهد أغسطس إلى زنودور ، الذى كان أميرا عربيا لأبيلا على مقربة من دمشق ، بمراقبتهم والوقوف فى وجه غاراتهم . غير أن زنودور رأى أن مصلحته المادية تقتضيه أن يتفق مع هؤلاء العصاة من جيرانه وأن يقتسم معهم الغنائم التى يحصلون عليها من غزواتهم . ولكن الحالة فى هذه المنطقة أصبحت خطيرة إلى أبعد الحدود فعهد الإمبراطور بهذه المقاطعة إلى هيرود الأكبر ملك اليهود . فمدّ هيرود سلطانه على ايتوريا l'Iturée وتراخونيا Trachonitide وأورانيا Auranitiole وباتانيا Batanée .

وقام هيرود بالمهمة التى ألقيت على عاتقه خير قيام . فقد وضع ثلاثة آلاف من سكان مملكة أدوم على تخوم تراخونيا[1] . وقد أقيمت مراكز محصنة عهد بحراستها إلى جماعة من الضباط الملكيين كانوا يلقبون بلقب Ἔπαρχοι[2] .

لقد تسربت إلى جبل حوران إذن المدنية الإغريقية الرومانية . وقد كان الباعث

---

(١) جوزيف . Ant. jud. ، ج ١٦ ، ٩ ، ٢ .

(٢) مومن : Mommsen . التاريخ الرومانى ؛ الترجمة الفرنسية ج ١١ ، ص ٤٢ .

على ذلك كبيراً ، فنحن نعرف مقدار إسراف هيرود حين مدّ يديه إلى أمواله ليغترف منها الهدايا للمدن الإغريقية وليزين معابدها . أما فى بيت المقدس ، فقد جدّد معبده وبنى ملحقات المعبد بطريقة عظيمة فأنشأ ملعبا للخيل ومسرحا . وقام بأعمال عظيمة فى يهوذا ، وعلى الأخص إيجاد ميناء على مقربة من بلدة قيسارية . ويدل تمثال هيرود الموجود بعبد بعل سمين بسيعه ، على أن هـذا الملك قد عنى بالمشروع الذى نفذه مليكت وحفيده من بعده .

***

لقد استعار الصفويون بعل سمين من العناصر السورية الموجودة وقتذاك فى أورانيا Auranitiade . غير أن هذا الإقليم كان قد قصده فى القرن الأول قبل الميلاد عدد كبير من العناصر النبطية . وقد أخذ الصفويون من هؤلاء النبطيين الإلـه دوزاريس . وسنرى من كتابة هذا الإسم المقدس نفسه أن هذه الاستعارة كانت فى العصر المتأخر . ونحن نعلم أن مدينة البطراء (سلع) Petra [1] كانت عاصمة الأنباط ومركزاً لعبادة دوزاريس . وكانت الشّرى مقاطعة جبلية حول البطراء ، وعلى هذا فقد كانوا يفسرون دوزاريس الذى كان يسمى أصلا « ذو الشرى » على أنه « سيد الشّرى » . وقد رفض الأستاذ ڤلهوزن الأخذ بهذا التفسير واعتمد على شرح عربى يذهب إلى أن الشرى إقليم حول « الحرم » من الأرض المقدسة ، وذهب إلى القول بأنه « سيّد الأرض المقدسة ، سيد الحِمى »[2] .

(١) سلع Petra سميت بعد الفتح الإسلامى الرقيم ، وهى مدينة بوادى موسى ، وقد ظنوا أنها مدينة أصحاب الكهف . كانت عاصمة دولة الأنباط التى كانت تقع بين فلسطين وخليج العقبة ووادى الحجر والبحر الرومى . وهى بلاد مملكة آدم قديما Idumée . وكان اليونانيون يسمونها فى كتبهم ببلاد العرب الحجرية Arabia Petra . ومن هنا جاءت تسميتهم لها بالبطراء . وكان يغلب فى ملوك هذه الدولة اسم الحارث ، وعبادة ومالك . واستمرت دولة الأنباط فى بعض الروايات من القرن الثانى قبل الميلاد إلى أوائل القرن الأول الميلادى . ولم يرد ذكر هذه الدولة فى كتب العرب على ما نعلم . (المعرب)

(٢) ڤلهوزن : بقايا الوثنية العربية Reste ar. Heid ، ص ٥١ و فهارس جوتنجن العلمية Göttingische Gelehrte Anzeigen ، سنة ١٩٠٤ ، ص ٩٤١ . هذا المؤلف العالم يبرهن على مقاطعة سلع لا تسمّى الشرى وإنما الشّرات . فضلا عن ذلك فإن قبيلة دوس ، وأصلها من جنوب جزيرة العرب ، كانت تعبد دوزاريس ، وعلى هذا فمن العسير أن يكون هذا الإلـه إنما وجد بجوار سلع .

ولكن يبدو لنا أن التفسير العربي يفرق بين الشّرى وبين الحرم — الأرض المقدسة — ومن ناحية أخرى فليس هناك محل للتمييز بين الحرم والحمى .

على أننا لن نعود إلى التحدث عن خصائص مذهب دوزاريس بعد أن درسناها في غير هذا الموضع[١] ، ولكننا سنتناول نقطة هامة قد وُضّحت أخيراً توضيحاً تاماً .

حينما استعمر الأنباط حوران نقلوا إليها ديانة دوزاريس . وهناك نصان نبطيان من هذا الإقليم قد ذكر فيهما لفظ يدل على الإله ، وليس فيه ما يدعو إلى الحيرة : דושרא אעדא :[٢] . ومنذ ذلك أصبحنا لا نأخذ بالقول بأن أعرا ودوزاريس إلهان مختلفان ، وعلى هذا فقد سقط أهم اعتراض على افتراض الأستاذ كليرمون جانو حين أراد أن يقرّب بين أعرا وأرتال[٣] . وإذا كان تفسير الإسم الأخير لم يتضح لنا تماماً فيمكننا على الأقل أن نجعله الإسم الدال على دوزاريس[٤] .

ومن ناحية أخرى ، نرى الأستاذ ليتمان[٥] . قد تعرف حديثاً على أن النص Cls II — ١٩٠ كان تكريساً بلغتين لدوزاريس . وقد نقل من الجزء الإغريقي الكلمات التالية . Μάσεἰχος Ἀλουειδάνου Δουσάρει Ἀάρρα, إلى دوزاريس — أعرا .

---

(١) عبادة دوزاريس بناء على نقود أدرا وبصرى في مذكرات عن الميثولوجيا السورية ، ص ١٦٧ — ١٨١ .

(٢) سفيناك وجوسين : مجلة الكتاب المقدس ، سنة ١٩٠٥ ص ٥٩٢ وما يليها ، وقد عرف الأستاذ ليزبرسكي بعد ذلك أن هذه التسمية نفسها موجود على مسلة إمتان ، Répert. d'épigsém. ، رقم ٨٣ . أما الواو التي بين المصطلحين فقد أدخلنا هادون داع إليها . وقد دفعنا رأي تخيلناه سلفاً أن تقرأوا وا بدلاً من ألف من تلك الحروف المزخرفة .

(٣) هيرودوت : رقم ٨٢٣ .

(٤) كليرمون جانو : Recueil d'arch. or. رقم ١ ، ص ١٥٦ — ٢١٥ .

(٥) ليتمان : المجلة الأمريكية للآثار سنة ١٩٠٥ ، ص ٤٩٩ و ماير Ed. meyer الإسرائيليون وقبائلهم . Die Israeliten und ihre Nachbarstämme ، هل سنة ١٩٠٦ ، ص ٣٤٣ ، تعليق رقم ٧ . ولقد أشرنا من قبل أن ذكر أعرا قد قرئ في Cls II — ٧٧ ؛ قارن بحثنا ، ص ٥٥ ، تعليق رقم ٤ .

وعلى هذا فقد حدد هذا التعبير الأخير تحديداً تاما . وتـكرار «رو rô» يفسره التكرار المطلق للأصوات الذلقية[1] التي كثيراً ما نعثر عليها في النصوص الإغريقية .

وعند الأنباط الذين أقاموا بأورانيا كان نطق « ذو الشرى » الذى تدل عليه الكتابة النبطية דושרא لا بد أن يكون قد اتجه إلى تلك الصيغة الخشنة « ذَلْ » لأننا نجد فى الصفوية דשר بجانب الصيغة דשר.

وسنورد هنا ، لننتهى من هذا البحث ، نصا نقله الأستاذ إنّو ليتمان ورد فيه ذكر الآلهين اللذين اقتبسهما الصفويون ضمن آلهة أخرى وردت فى النص :
ل ١٢٥ :

לאדנת בן ורד בן אנעם בן כ[ה]ל בן עם בן כהל :
ד אל נעבר פהלת ושעהקם וגדעוד ובעלסמ[ן] ודשר עירת
לה ועור וערג וקאתר ודד לד יעור החטט

« لأُذَيْنَتْ بن وَرْد بن أنْعَم بن كُحَيْل بن عَوْم بن كُحَيْل من قبيلة نَغْبَر يا أللاتّ ، شيع القوم (شيع ها قوم) ، جدعويذ ، بعل سمين ودوشّرى عاونوه ! العمى ، العرج . . . والدودة لمن يمحو هذا النقش ! » .

أما فيما يختص بكلمة عِيرت فانظر ما ورد قبل ذلك فى صفحة ١٤٢ . وأما الصيغة الأخيرة فيقرأها الأستاذ ليتمان على هذه الصورة :

וקאת בוד(ק) ל "and bloodshot eyes (?) to him....." والتلهب

(١) أصوات الذلاقة . الأصوات الذلقية . وهى فى العربية اللام والراء والنون . وقد أحس علماء العرب بعلاقة صوتية تربط هذه الحروف فجمعوها تحت اسم واحد هو الذلاقة . والمحدثون من علماء الصوت يرون أن وجه الشبه بين هذه الأصوات هو قرب مخارجها واشتراكها فى نسبة وضوحها الصوتى ، إذ أنها من أوضح الأصوات الساكنة Consonnes فى السمع . فهى تشبه من هذه الناحية أصوات اللين . وهذه الأصوات الثلاثة ليست شديدة ، أى لا يسمع لها انفجار حين النطق بها . وليست رخوة ، فلا يسمع لها حفيف أو صفير ، ولذلك عدها الأقدمون حروفا متوسطة . (المعرب)

عيناه بالدم » غير أن هذه الصيغة بعينها قد وجدت فى : دم ٥،١٢ وتقرأ نهايتها هكذا :

...וקאתר ו[דד] לד יעו[ר] הספר

דד هى الكلمة العربية دود جمع دُودَة ، وهى الكلمة التى أوردناها فى ترجمة النص السابق . أما الكلمة التى وردت قبلها فهى ,קאתר وهى كلمة لا تتيح لنا المعاجم العربية شرحها . ومن المحتمل أن تكون صيغة جمع مثل « قوابل » مأخوذة من الأصل קתר ويراد بها حشرة من الحشرات .

* * *

إن استعارة سكان أورانيا للإلهين بعل ممين ودوزاريس لتدل على الزمن الذى أوشك فيه الصفويون على الاندماج فى الشاميين من أهل سوريا . وقد أخذت الروابط المعنوية التى تربط القبيلة تنحل شيئا فشيئا حينما دخلوا فى خدمة الجيش وحينما اشتغلوا أجراء عند الحضريين . وقد احتذى الصفويون المثل الذى سار عليه الأنباط من قبل .

وقد أخذوا عن الأنباط طرق البناء التى كانت متبعة فى أورانيا ، فبنوا قرى بالأحجار البركانية على السفح الشرقى لجبل حوران ، ثم مارسوا الزراعة والتجارة . أما أولئك الذين استمروا فى التردد على الحره فلم يكونوا إلا رعاة خاضعين لقوانين إرسال القطعان إلى الجبال العالية زمن الصيف .

والنصوص التى نقشها الصفويون الذين تحضروا فقد كتبت بالإغريقية وإن كانت إغريقية فاسدة . أما اللغة التى كانت مستعملة فى الحياة اليومية فهى دون ريب اللغة الآرامية ، بينما كانت الأجيال الجديدة من السكان العرب تحتفظ فى تلك الأرجاء دون أدنى شك بعرفتها للهجات الصحراء حتى فرضها عليهم الفتح الإسلامى بصفة نهائية ، وهؤلاء السكان من العرب هم الذين ندين لهم بالنقش النبطى العربى الذى وجد فى النمارة[1] وبالنقش الذى وجد فى زبد[2] وقد كتب بلغات

---

(١) قارن النص الذى ذكر من قبل ص ٣٤ وما يليها .

(٢) انظر النقش ذا الثلاث لغات الذى وجد فى زبد والذى ذكره ليتزبرسكى : **Handbuch**، «المتن» ص ٤٨٤ واللوحة رقم ٤٣ ، ١٠ — لقد اطلعت من جديد على هذا النص الأصلى =

ثلاث هى الإغريقية والسريانية والعربية ، وبالنقش ذى اللغتين الإغريقية والعربية الذى عثر عليه فى حران[١] .

وعلى السفحين الجنوبى والجنوبى الشرقى لجبل حوران كانت النقوش الإغريقية التى كتبها الأنباط تعد كثيرة منذ منتصف القرن الثانى الميلادى أى بعد قليل من تبعية هذه الأصقاع للإمبراطورية الرومانية فى بلاد العرب . ولم يبدأ الصفويون فى كتابة نصوص إغريقية إلا فى القرن الرابع الميلادى[٢] . لقد فقدوا حتى أسماء آلهتهم ، لأننا لو وجدناهم مرة يذكرون (Βαρις) فإن الإلهة اللات قد أصبحوا يطلقون عليها أثينا ، وأن إلهاً كبيراً من آلهة الصفويين أصبح لا يعرف إلا باسم زوس صفاثينوس[٣] Z–eus Safathénos– . ولقد رأينا من قبل أن هذه التسمية قد جاءت بعد تكوين جماعة من الصفويين تسمّت باسم الرحبى ، قبيلة الرُّحبى . واليوم أصبحت ديانة هذا الإله المحلى زوس يحتفظ بها مذهب الشيخ سراق ، وهو مذهب له تقديسه وتبجيله فى الرحبى[٤] ، على أن اشتقاق اسم سراق غامض كل الغموض . ويصح أن نقربه

= المحفوظ فى متحف Cinquantenaire ببروكسل . وليس لدينا إلا القليل فيما يختص بالسريانية والإغريقية نضيفه إلى قراءة الأستاذ ساشو Sachau : فالاسم الذى قبل الأخير هو على الأصح ١٠ م لا ٥ — ٥ م . أما فى اليونانية فقد قرأنا Σἔργίον ، ΑΡΧΠΘC Αδοντις بدلا من Θερδίου ، وأخيراً : ΜΑΡΑΒΑΡΚΑΔ . أما التصحيحات فى الجزء العربى فأكثر أهمية من ذلك . فمن المحال أن يوجد فى أول النص بسم الله . ويجب أن تكون الصيغة هى : [لا عـ] زّ إلاّ له أو [لا شك] ر إلاّ له . ويعترى أسماء الأعلام بعض الشك . ونعتقد أننا نستطيع قراءة أحد هذه الأسماء وهو : هَـلـشباء . لقد حققنا التخمين الذى ذهب إليه الأستاذ كليرمون جانو صراقيس (قارن بحثنا ، ص ٣١٦ ، تعليق رقم ٣) ، وعلى هذا فالنص هو . [لا عـ] زّ إلاّ له شرحوبرامت (أواى) منعو (؟) وهلبأ برص القيس وشرحوبر سعدو وسعدو وش [ر] يحو .

(١) بحثنا ص ٣٢٤ وما يليها ، Répert. d'epig. Aem رقم ٤٨٠ .

(٢) رعا فى ودنجتون ٢٠٢٤ ملح الشعرار فى سنة ٣١٥ ميلادية ، ولكن بكل تأكيد فى ودنجتون ٢٢٣٨ (بوسين) من ٣٢٢ — ٣٢٣ .

(٣) انظر ما سبق فى ص ١٣٥ .

(٤) انظر . ديسو وفر . مكلر : رحلة أثرية فى الصفا ، ص ٤٠ — ٤٣ ونشرات ومذكرات الجمعية الأنثروبولوجية بباريس ، سنة ١٩٠٦ ، ص ٢١٦ رقم ٤ .

من كلمة עֲרָבָה التى يفسرها الأستاذ ڤينكلر[١] بلفظ « صحراء » ، ومن الكلمة السريانية شرقُو « ساكن الصحراء » ، وربما اشتق من الكلمة الأخيرة لفظ سرازين Sarrasins, Saracènes[٢] « المشارقة » .

وعلى هذا ينتهى تاريخ دخول قوم من العرب تمكنا من تتبعهم عن قرب . وهو فى مجموعه تاريخ جميع البدو الذين كانوا منذ عهد الإسرائيليين لا يبتغون إلا أن يستقروا فى أراضى الشام الخصبة . والمعلومات التاريخية التى لدينا عن هؤلاء السكان المختلفين فى حاجة إلى أن تمحص تمحيصا علميا دقيقا .

ولقد كشفت لنا النصوص الصفوية عن جماعة من البدو قبل أن تتخلى هذه الجماعة عن آلهتها ولغتها وكتابتها ، ولقد استطعنا أن نتتبع تطورها نحو الحياة الحضرية : وهذا حدث يعد وحيدا فى بابه حتى الآن ويبرهن ، كما نعتقد ، على أننا كنا على حق حين خصصنا للصفويين هذا المكان فى دراسة دخول العرب فى سوريا قبل الإسلام .

(١) ڤنكلر Altorientalische Forschungen « بحوث فى الشرق القديم » ٨ ص ٧٤ وما يليها .

(٢) يقال إن هذه الكلمة تحريف لكلمة « شرقيين » وبقيت الكلمة علما على المسلمين من القرون الوسطى إلى منتصف القرن السادس عشر . (المعرب)





القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر